المركز القومى للترجمة



المشروع القومى للترجمة

جينادى جورياتشكين

مصر فى الأرشيفات الروسية

ЕГИПЕТ В РУССКИХ АРХИВАХ

ГОРЯЧКИ Г. В.

ترجمة وتقديم: إيمان يحيى

مراجعة المادة التاريخية: عاصم الدسوقى

2196



يتنقل المؤلف بين أكثر من عشرين مؤسسة روسية لحفظ الوثائق؛ ليلقى الضوء على أحداث وحقب شهدها تاريخ مصر الاقتصادى والاجتماعى والسياسى. سيكشف لنا هذا الكتاب مناطق معتمة من تاريخنا، لم يُلقَ عليها الضوء بعد، لعل أكثرها إثارةً الحروب التى خاضها المصريون ضمن الجيش العثمانى ضد روسيا، ومصير الأسرى المصريين فى بلاد الموسكوف.

كما سنتعرف من خلال الوثائق الروسية على الحزب الشيوعى المصرى الأول، وعلى نشاطه فى عشرينيات وثلاثينيات القرن العشرين، وصلاته بالكومنترن، وعلى دراسة طلاب مصريين فى جامعة كادحى الشرق فى موسكو.

تصميم الغلاف: نسرين كشك

مصر فى الأرشيفات الروسية

مصر فى الأرشيفات الروسية

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور

إشراف: كاميليا صبحى

- العدد: 2196
- مصر فى الأرشيفات الروسية
- جينادى جورياتشكين
- إيمان يحيى
- عاصم الدسوقى
- الطبعة الأولى 2013

هذه ترجمة كتاب:
ЕГИПЕТ В РУССКИХ АРХИВАХ
ГОРЯЧКИ Г. В.

شارع الجبلاية بالأوبرا– الجزيرة– القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524 Fax: 27354554

مصر فى الأرشيفات الروسية

تـأليـف: جينـادى جـورياتشكين
تـرجمة وتقديـم : إيمـان يحيـى
مراجعة المادة التاريخية: عـاصم الدسـوقى



2013

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

جوريانشكين، جينادى.

مصر فى الأرشيفات الروسية/ تأليف : جينادى جوريانشكين، ترجمة وتقديم: إيمان يحيى، مراجعة المادة التاريخية: عاصم الدسوقى

ط ١ - القاهرة: المركز القومى للترجمة، ٢٠١٣

٢٨٠ ص، ٢٤ سم

١ - مصر - العلاقات الخارجية - روسيا

٢ - روسيا - العلاقات الخارجية - مصر

(أ) يحيى ، إيمان (مترجم ومقدم)

(ب) الدسوقى ، عاصم (مراجع)

(جـ) العنوان ٣٢٧,٦٢٠٤٧

رقم الإيداع ١٠٢٢٢ / ٢٠١٢

الترقيم الدولي: I.S.B.N - 978-977- 216 - 125- 6

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتويات

مقدمة المترجم

إذا كانت المكتبة العربية فقيرة فى الأدبيات والكتب الروسية المترجمة من اللغة الأصلية إلى العربية؛ فإن الكتب التاريخية الروسية التى تتعرض لتاريخ مصر، هى من الندرة النادرة. من هنا، يبدو هذا الكتاب فريدًا فى موضوعه ومحتواه. ولعلها من المرات القليلة التى يطلع فيها القارئ المصرى على الوثائق الروسية المتعلقة بتاريخ بلاده.

لقد كشفت دائمًا الكتابات المعتمدة على الوثائق الأجنبية الخاصة بأرشيفات وزارات الخارجية وتقارير سفاراتها فى مصر العديد من الجوانب الخفية فى التاريخ المصرى، كما أنها توضح المواقف الحقيقية والدوافع التى تقف خلف مواقف تلك الدول. ولعل تحقيقات مؤرخينا المصريين فى الأرشيفات البريطانية والأمريكية فى السنوات الأخيرة خير دليل على أن التاريخ له أكثر من وجه، ومن المستحيل إغفال وجه من وجوهه عند كتابته. من هنا تأتى أهمية التنقيب فى الأرشيفات الروسية، إذ إن الإمبراطورية الروسية ومن بعدها الاتحاد السوفيتى قد كان لهما دور سياسى مهم فى مصر ومنطقتنا العربية.

لم تحظ الوثائق الروسية للأسف باهتمام مؤرخينا المصريين، إذ إن إجادة اللغة الروسية مثلت عائقًا أمام اطلاعهم عليها، ناهيك عن بقاء تلك الوثائق فى أضابير الأرشيفات دون حق الاطلاع عليها لفترة طويلة من الزمن. ولقد قام بعض المستشرقين والمؤرخين الروس بالاطلاع على وثائق الأرشيفات الروسية أخيرًا. وقد يمثل ذلك نقصًا فى قراءة المصادر الأرشيفية التى نطلع عليها من خلال أعمال

هؤلاء المستشرقين؛ فالمعلومات الوثائقية التى تجذب المؤرخ الروسى، قد تختلف عن تلك التى يهتم بها المؤرخ المصرى. ولعله اختلاف الاختيارات وتباين الرؤى بحسب موقع كل منهما. ولا شك أن اختيار الوثيقة وقراءتها يرتبطان بهوية العين التى ترصدها.

لذا، تبدو الوثائق الروسية، وكأنها رؤية لتاريخنا ومجتمعنا من خلال عيون الروس. وهى ليست مجرد رؤية رسمية فقط، يكتبها الدبلوماسيون ورجال السياسة والحرب، بل ورؤية شعبية يوثقها الرحالة والمثقفون والأدباء والفنانون. تتنوع الوثائق الروسية ما بين مكاتبات وتقارير ورسائل رسمية وبين رسائل ومكاتبات غير رسمية يقوم بها أفراد وأناس عاديون وأدباء زائرون.

وهكذا تبدو مصر عبر تلك الوثائق محط أنظار الإمبراطورية الروسية. ولعل ذلك يرجع .إلى الموقع الجغرافى المهم لها ودوره فى التجارة والملاحة البحرية، أضف إلى ذلك المشاركة الملموسة للجيش المصرى فى الحروب الروسية- التركية المتتابعة. يبدو اهتمام الروس بتسليح وتدريب الجيش المصرى فائقا، كما أنهم لا يغضون البصر عن السوق المصرية لتصريف منتجاتهم؛ فيوفدون بعثات الاستكشاف التجارية لدراستها. ويظهر عبر الوثائق واضحًا طموح الإمبراطورية الروسية للوصول إلى المياه الدافئة وتأمين طرق الملاحة لأساطيلها المتجهة إلى الشرق الأقصى؛ فتتعدد الخطوط الملاحية التى تربط بين البحر الأسود وموانئ مصر، ونجد سيلاً من وثائق مكاتب تمثيل ووكالات شركات الملاحة الروسية وسجلاتها التى لا تغفل شاردة أو واردة عن أحوال مصر إلا وتسجلها.

ويتضمن الكتاب الذى بين أيدينا صفحات من الوثائق المحفوظة فى الأرشيفات الروسية فى الفترة ما بين بداية القرن الثامن عشر والربع الأول من القرن العشرين.

يتنقل المؤلف بين أكثر من عشرين مؤسسة روسية لحفظ الوثائق، ويختار من بينها وثائق عديدة، تلقى الضوء على أحداث وحقب شهدها تاريخ مصر الاقتصادى، الاجتماعى والسياسى. وسنعرف عبر صفحات هذا الكتاب من شهود عيان روس الكثير عن احتلال الإنجليز لمصر عام ١٨٨٢، وسنقترب من ساحة المناورات الدولية قبل وبعد ذلك الحدث. سنطالع سيلاً من المراسلات والتقارير الدبلوماسية والعسكرية الروسية من كل أنحاء المعمورة حول هذا الحدث الجلل وتداعياته. لم يكتف الروس بتقارير ممثليهم فى مصر، بل وبعثوا بجواسيسهم ليسيروا فى ركاب حملة الاحتلال البريطانى ويبعثوا بتقاريرهم السرية عما يحدث.

سنكتشف مناطق معتمة من تاريخنا، لم يلق عليها الضوء بعد. لعل أكثرها إثارة الحروب التى خاضها المصريون ضمن الجيش العثمانى ضد روسيا، ومصير الأسرى المصريين فى بلاد "الموسكوف". سنعلم للمرة الأولى المدة الطويلة التى قضاها الأسرى من الضباط والجنود المصريين والتى قاربت العامين. وطبقًا للتقديرات الروسية بلغ عدد الأسرى المصريين ثمانية ألف شخص، توزعت إقاماتهم بين مدن عديدة فى الجزء الأوروبى من روسيا. تحكى الوثائق الروسية قصصًا حية عن مصائر هؤلاء المصريين وحياتهم فى أجواء الشتاء الروسى القارس.

وتأتى المفارقة، حين تكشف وثائق الأرشيف الروسى بالمقابل عن مجتمع المهاجرين والمنفيين الروس ونشاطاتهم السياسية والاجتماعية. ونتتبع من خلال تقارير القناصل ورجال الأمن الروس أحوال تلك الجالية التى ضمت الثوريين المعارضين للقيصرية فى البداية ثم الروس البيض المناصرين للقيصر فيما بعد. وهكذا نرى على ضفتى الوثائق أحوالاً وقصصًا إنسانية لمصريين عانوا الغربة والأسر فى روسيا، وروس يذوقون مرارة المنفى والعوز فى مصر.

ومن أكثر صفحات هذا الكتاب إثارة، تلك التى تكشف دور الجالية الروسية فى الإسكندرية فى إيصال "إيسكرا" والمطبوعات البلشفية السرية إلى روسيا. لقد كانت الإسكندرية فى فترة زمنية معينة هى الطريق الوحيدة لإيصال المطبوعات السرية المرسلة من لينين وأصحابه فى المنفى بسويسرا وفيينا إلى رفاقه داخل روسيا! عبر تلك الوثائق نرى وجهًا ثوريًا للمجتمع الكوزموبوليتانى فى الإسكندرية، ولعل وضع مصر فى بداية القرن العشرين كان ملائمًا لتلك الأنشطة الثورية للأوروبيين. كانت مصر تتمتع باستقلال شكلى عن الإمبراطورية العثمانية، وفى الوقت نفسه هى مستعمرة بريطانية تسمح للمعارضين ذوى الأصول الأوروبية بالنشاط السياسى. كانت الأحوال السياسية والاجتماعية تسمح بأن تكون مصر مكانًا مثاليًا للجوء السياسى ولاحتضان المعارضين من الدول الأخرى بمن فيهم معارضو الباب العالى.

كما سنتعرف، من خلال الوثائق الروسية، على الحزب الشيوعى المصرى الأول ونشاطه فى العشرينيات والثلاثينيات من القرن الماضى، وصلاته بالكومنترن ودراسة طلابه فى جامعة كادحى الشرق فى موسكو. ويلقى هذا الكتاب الضوء على صفحات لم تُكشف بعد عن نشاط ذلك الحزب وقياداته التى سافر بعضهم إلى موسكو وأيضًا عن أخطاء وتصورات قيادة "الشيوعية الدولية" عن إمكانات النشاط الثورى فى مصر والمنطقة العربية.. وعبر تلك الصفحات تمرق أمام أعيننا قصص الإخفاق والنجاح ومفارقات مثيرة.. وعبر الأرشيف الروسى سنتعرف على بدايات الحركة العمالية فى مصر التى قد ترجع إلى ما قبل التاريخ المعروف والمكتوب عنها.

وسنقرأ أيضًا بعض صفحات روسية عن تاريخنا الاقتصادى- الاجتماعى، ومحاولات محمد على فتح قنوات مع روسيا بعد اتفاق الدول الكبرى عليه. قابلت

تلك المحاولات خطوات ملموسة من الجانب الروسى لإقامة علاقات تجارية واقتصادية وطيدة، فيهتم الروس باستكشاف إمكانية تصدير الحديد الروسى إلى مصر بدلاً من الحديد الألمانى والإنجليزى. كما ينفقون الجهد والوقت فى دراسة إنشاء بيوت تجارية تختص بالتجارة مع مصر وبلدان البحر الأحمر. ولعل أكثر الصفحات إثارة بهذا الخصوص، هى تعاون محمد على والخبراء الروس فى التنقيب عن الذهب فى السودان واستخدام طريقة الترشيح فى استخراجه.

وتكشف الوثائق محاولات روسية لاستمالة الخديو إسماعيل لفك تحالفه العسكرى مع الباب العالى، ويصل الأمر إلى استقدام الخديو إسماعيل الجنرال الروسى "فادييف" من أجل تحديث الجيش المصرى. ويقضى الجنرال الروسى عامين فى مصر (١٨٧٤- ١٨٧٦)، يكون فيها بمثابة وزير الحربية المصرى الفعلى. ويتنبه الباب العالى لتحالفات إسماعيل باشا ومناوراته فيضغط عليه لينهى مهمته وليطرد القنصل العام الروسى بالقاهرة.

ولا شك أن هناك الكثير بين دفتى ذلك الكتاب، لم ننتبه إليه عند كتابة تـــاريخنا. ولعـــل الدكتـــور جينـــادى جورياتشكين – المؤلف – قد أضاف بكتبه ودراساته المتتابعة الكثير إلى مجال البحث التاريخى المختص بتاريخ مصر والعلاقات المصرية- الروسية بكتبه ودراساته المتتابعة. وللرجل كتاب سابق بالعربية عن تاريخ الطبقة العاملة المصرية، وآخر عن مصر وروسيا فى الأرشيفات الروسية، ناهيك عن العديد من الدراسات الاستشراقية المعتمدة على الأرشيفات الروسية. ولعلها مناسبة لتوجيه أنظار الباحثين للتنقيب ولدراسة الأرشيفات الروسية، خاصة تلك التى تتعلق بتاريخنا المعاصر الحديث.

لقد تعرض عديد من أعمال مؤرخينا للوثائق البريطانية والأمريكية، ولكننا لم نلتفت بعد إلى الوثائق السوفيتية والروسية الخاصة بتاريخ مصر والمنطقة

العربية فى النصف الثانى من القرن العشرين. تلك الفترة، التى شهدت نفوذًا ونشاطًا سوفيتيًا بارزًا، تستحق من الباحثين الاهتمام. لقد جاء انهيار الاتحاد السوفيتى ليفتح أمام الباحثين خزائن مهولة من الوثائق، ليست فقط وثائق الدبلوماسية السوفيتية، بل ووثائق المخابرات السوفيتية (ك.ج.ب) ووثائق اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى. ولعل الدكتور جينادى يواصل تنقيبه فى تلك الوثائق الحديثة نسبيًا، ويضيف إلى مكتبتنا العربية الضرورى والمزيد من الكتب والدراسات.

تبقى ميزة لهذا الكتاب، لا بد من ذكرها؛ ألا وهى أن المؤلف يختط سياقًا لسرده عبر التعرض للمؤسسات الأرشيفية الروسية، ذاكرًا مواقعها وأهم مجموعاتها الوثائقية المتعلقة بمصر. يتحول الكتاب فى جانب منه إلى دليل للباحثين، إذا أرادوا البحث فى الأرشيفات الروسية. ولا شك أن ذلك يعطى قيمة كبيرة لذلك الكتاب، قيمة بحثية غير قيمته المعرفية.

وفى النهاية يمثل الكتاب إضافة نوعية جديدة للمكتبة العربية، وإثراءً لمجال البحث فى تاريخ مصر. ولعله يكون فاتحة لترجمة ونشر العديد من الكتب الروسية المتخصصة فى التاريخ الاقتصادى والاجتماعى والتاريخ السياسى والعسكرى لمصر.

المترجم

إيمان يحيى

٣ سبتمبر ٢٠١١

مقدمة المؤلف

تعد الأرشيفات الحكومية لروسيا الفيدرالية المسئول الأساسى عن حفظ الذاكرة الوثائقية للتاريخ، ويُطلق عليها صندوق الأرشيف الحكومى لروسيا الفيدرالية.

تم إنشاء هذا الصندوق بناءً على مرسوم "إنجاز ومركزة العمل الأرشيفى فى الجمهورية السوفيتية الفيدرالية الاشتراكية الروسية"، الذى أصدره مجلس المفوضين الشعبيين للجمهورية السوفيتية الفيدرالية الاشتراكية الروسية، والموقع من فلاديمير لينين بتاريخ أول يوليو١٩١٨. يمثل صندوق الأرشيف الحكومى إجمالـــى الوثائق المملوكة لروسيا الفيدرالية، التى ذات قيمة سياسية أو اقتصادية أو علمية أو اجتماعية أو ثقافية أو تاريخية. كما يحتوى على أغنى مجموعة وثائق متنوعة فى نوعيتها ومحتوياتها، التى تخص عصورًا سياسية مختلفة – بدءًا من الأزمنة القديمة حتى أيامنا الحالية.

يعد صندوق الأرشيف الحكومى ثروة للثقافة القومية والعالمية، وتعكس الوثائق التى يحتويها الصندوق ماضى شعبنا البطولى وحاضره وأهم الأحداث التاريخية ومراحل تطور المجتمع والدولة وأيضًا الحركة الثورية والشعبية وأيضًا الحـــرب الأهليـــة والحـــرب الـــوطنية العظمى، كما يعكس أيضًا تطور العلوم والثقافة والفن.

فى أواخر ثمانينيات القرن العشرين، تم حصر نحو ٣٤٠ مليون وحدة حفظ داخل صندوق الأرشيف الحكومى لاتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية[١].

وبعد انتهاء وجود الاتحاد السوفيتى، بقي تقريبًا نصف محتويات الأرشيف فى روسيا الفيدرالية. يتم حفظ أغلبية تلك الوثائق حتى الآن تحت الإشراف المباشر للإدارة الروسية للأرشيف الحكومى. إلى جانب وثائق الأرشيفات الحكومية يحفظ صندوق الأرشيف الحكومى لروسيا الفيدرالية باستمرار أيضًا أرشيفات بعض الوزارات والمصالح الحكومية الأخرى، وهو حق أعطته له الحكومة. المقصود هنا هو أرشيفات أكاديمية روسيا الفيدرالية للعلوم ووزارة الخارجية ومتاحف ومكتبات تابعة لمنظومة وزارة الثقافة لروسيا الفيدرالية، وأيضًا مجموعات وثائقية متخصصة فى فروع العلوم وتضم وثائق إحصاء، ودراسات جيولوجية للأراضى الروسية.. إلخ. تلك الأرشيفات التى لا تدخل فى المنظومة الإدارية لصندوق الأرشيف الحكومى لروسيا الفيدرالية، تخضع لإشرافه وأسلوبه فى الإدارة والحفظ؛ كما أن الوثائق المحفوظة فى تلك الأرشيفات تدخل فى حسابات الجرد الحكومى المركزى.

تتعرض الأرشيفات الروسية لمصر بشكلٍ مرضٍ. ويمكن لأى شخص أن يتأكد من ذلك إذا تعرف على تلك الأرشيفات مباشرةً، ولعل ذلك راجع إلى الصلات والعلاقات القديمة نسبيًا بين مصر وروسيا.

ترجع أول وثائق مكتوبة فى وجود الروس فى وادى النيل إلى بداية القرن الحادى عشر، عندما قام الراهب دانييل، من مدينة كييف، برحلته نحو الشرق، حيث مر بمصر خلال طريقه إلى فلسطين. وقد يكون مفهومًا ألا تُعد "رحلة الحج" هذه من الوقائع الأولى فى تاريخ العلاقات الروسية- المصرية، لأن هناك وثائق أخرى تدل على وجود تلك العلاقات قبل مجيء "دانييل" الى أرض مصر بوقت كبير. المهمة التى أمامنا اليوم؛ هى إظهار "الخريطة الروسية الأرشيفية" الحقيقية، بما فيها من إحداثيات وأماكن أو معالم واتجاهات، تشير إلى أحداث تلقى الضوء على تضاريس الدراسات المصرية. قامت تلك المصادر بتعريف الروس والأوساط

الاجتماعية والحكومة القيصرية بالواقع المصرى، كما أنها ساعدت بشكل مستمر فى تأسيس حوار أكثر رحابة مع مصر. وفى هذا الخصوص يجب أن نشير إلى أن السياسة الشرقية لقياصرة روسيا، خاصة إيفان الرهيب (١٥٣٣- ١٥٨٤)، بطرس الأول (١٦٨٢- ١٧٢٥)، كاتيرينا الثانية (١٧٢٦- ١٧٩٦) كانت فاعلة جدا. عندما أضافت الإمبراطورة كاترين الثانية شبه جزيرة القرم إلى الإمبراطورية الروسية، فإنها حولت روسيا فعليًا إلى دولة تطل على البحرين الأسود والمتوسط. وأدى وجود الأسطول البحرى التابع للإمبراطورية الروسية فى حوض البحر المتوسط إلى التقريب بين روسيا ومصر. بعد توقيع اتفاق كوتشوك- كاينارجا للسلام مع الإمبراطورية العثمانية فى عام ١٧٨٤، أنشأت الإمبراطورة كاترين الثانية بمرسوم صادر فى ١٩ أغسطس ١٧٨٤ فى الإسكندرية أول قنصلية روسية فى الشرق العربى، ترأس القنصلية "كوندراتى فون تونوس" المنحدر من أصول ألمانية بلطيقية، والذى وصل إلى الإسكندرية فى يوم ٣ يوليو ١٧٨٥ (حسب التقويم القديم)، ثم أرسل من هناك أول بلاغ قنصلى إلى سان بطرسبرج فى ٢٤ يوليو. ومن تلك اللحظة بالذات تبدأ التقارير المنتظمة والوثائق الخاصة بنشاطات السياسة الخارجية تجاه مصر لوزارة الخارجية الروسية. تلك الوثائق محفوظة حتى الآن فى الأرشيفات الروسية. ليست وثائق وزارة الخارجية الروسية المتعلقة بمصر، هى الوحيدة فى المؤسسات الأرشيفية الروسية؛ هناك ملفات تحوى معلومات عن مصر فى مختلف المجالات، تراكمت أثناء تطور عمل الأرشيفات فى روسيا القيصرية.

يُقسم تطور عمل الأرشيفات فى روسيا عادةً إلى ثلاث مراحل. المرحلة الأولى: تبدأ من القرن التاسع وتنتهى فى نهاية القرن الخامس عشر، حتى وقت ظهور الدولة الروسية القديمة وتفتت الإقطاع. الخاصية المهمة لتلك الفترة أن الوثائق يتم الاحتفاظ بها جنبًا إلى جنب مع المجوهرات الثمينة. المرحلة الثانية:

تستمر حتى بداية القرن الثامن عشر، وتتصف بحفظ الوثائق بشكل منفصل منذ نهاية القرن الخامس عشر. لكن المصادر المكتوبة فى تلك الفترة فقدت قيمتها العملية، ووجدت بشكل أساسى مع مسك الملفات والسجلات فى ذلك الوقت. تتطابق هذه المرحلة زمنيًا مع مرحلة إنشاء وتطور الحكومة الروسية المركزية، وذلك يؤكد العلاقة الوثيقة بين التطور التاريخى للعمل الأرشيفى وتطور المؤسسات الحكومية. أما المرحلة الثالثة: فتبدأ من أول القرن الثامن عشر، وتنتهى بثورة أكتوبر. تتميز بعملية تحويل الأرشيفات إلى هيئة مستقلة ضمن المصالح الحكومية.

على أن إصلاح العمل الأرشيفى يلقى دفعة قوية من عملية إعادة تنظيم الجهاز الحكومى، التى قام بها بطرس الأول والمعاونون له. فى عام ١٧٢٠، وطبقًا للائحة العمومية تم فصل الأرشيفات عن الإدارات ومكاتب المسئولين قانونيًا، وبعد أربعة أعوام ظهر أول أرشيف تاريخى(٢).

وهناك شبكة كاملة من المؤسسات الأرشيفية فى روسيا القيصرية وفى الاتحاد السوفيتى، لا تزال موجودة حتى الآن فى روسيا الفيدرالية. ولقد استطاع مؤلف هذا الكتاب أن يعمل فى أكبر تلك المؤسسات لأكثر من مرة فى سبعينيات القرن العشرين وما زال يعمل فى بعضها حتى اليوم.

هذا الكتاب يضم معلومات وثائقية عن مصر مستقاة مما يقرب من عشرين مؤسسة أرشيفية، موجودة كلها عدا واحدة، على أراضى روسيا الفيدرالية الحالية بصفتها وريثة الاتحاد السوفيتى. ويحتوى هذا الكتاب أيضا على وثائق الأرشيف الحكومى لمقاطعة أوديسا، وكان يطلق عليه فى عام ١٩٨٠، قبل تفكك الاتحاد السوفيتى بكثير. والآن وكما هو معروف، أصبحت أوديسا ضمن أراضى دولة أوكرانيا. توجد بذلك الأرشيف معلومات وثائقية عن بلد الأهرامات، وعندما كنت أبحث فى موضوع الدكتوراه، احتجت إلى استعمال مجموعات هذا الأرشيف

الوثائقية المتكاملة، ولعل ما يُفسر اهتمام أوديسًا بالوثائق عن مصر، أنها كانت أكبر ميناء بحرى وتقريبًا الميناء الوحيد سواء فى العهد القيصرى أو السوفيتى الذى يتم عبره نقل البضائع والركاب؛ لذا تراكم الجزء الأكبر من المعلومات الوثائقية عن مصر فى هذه المدينة.

بادئ ذى بدء، يجب أن نذكر أكبر أربعة أرشيفات فى موسكو وسان بطرسبرج (لينينجراد سابقًا). هى: أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية، أرشيف التاريخ العسكرى الحكومى المركزى العسكرى فى العاصمة. أما فى سان بطرسبرج، وهى العاصمة الشمالية أو الثانية لروسيا (مثل القاهرة والإسكندرية، حيث الإسكندرية تعد العاصمة الثانية، أو الشمالية لمصر)، فنجد الأرشيف التاريخى الحكومى المركزى التاريخى هو الأول من حيث القيمة والكم، ثم أرشيف الأسطول البحرى العسكرى الحكومى المركزى. أما الأرشيفات الأخرى فى موسكو وبطرسبرج، التى توجد بها معلومات عن مصر، سنتحدث عنها فيما بعد.

تحتوى هذه المؤسسات الأربع الأرشيفية الروسية الأكبر على معلومات مختلفة عن مصر، تلقى الضوء على النواحى المختلفة للحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية لتلك الدولة، وبشكل كبير بدءًا من الربع الأخير للقرن الثامن عشر حتى الحرب العالمية الأولى.

الدكتور جينادى جورياتشكين

موسكو، يناير ٢٠٠٨

الهوامش

(١) دليل الأرشيف الحكومي للاتحاد السوفيتي، موسكو، ١٩٨٩، صفحة ٥.

(٢) ف.ن. ساموشينكو. تاريخ العمل الأرشيفي في روسيا قبل الثورة. موسكو، ١٩٨٩، صفحتا ٨-٩.

مؤسسات الوثـائق
بمدينة موسكو

أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية

بما أننا ذكرنا فى أول سردنا السياسة الخارجية لروسيا تجاه مصر؛ فإننا سوف نتحدث أولاً عن المجموعات الوثائقية المتكاملة لأرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية.

وهذا الأرشيف يُعد أرشيفًا وزاريا تابعًا مباشرةً من الناحية التنظيمية لإدارة الوثائق بوزارة الخارجية فى روسيا الفيدرالية، للحاجة الدائمة إليه وضم وثائق بشكل دائم له. ويقوم هذا الأرشيف بحفظ واستعمال المصادر الوثائقية الخاصة، للنشاط السياسى الخارجى للإمبراطورية الروسية. ويقع الأرشيف فى مدينة موسكو، فى ١٥ شارع بولشايا سيربوخوفسكايا.

وفى البداية تجدر الإشارة إلى أن الأرشيف يضم نحو ٥٠٠ مجموعة وثائقية متكاملة، احتوت فى نهاية القرن الماضى على نحو ٦٠٠ ألف ملف، تتعلق بالفترة بين عامى ١٧٢٠ (زمن بطرس الأول) و١٩١٧. ويوجد عدد قليل من المصادر الذى يتعلق بفترة أكثر قِدمًا، ويختص بالمعاهدات بين روسيا ودول أخرى شريكة فيها فى الفترة ما بين عامى ١٥٣٧ و١٩١٧، فضلاً عن بعض المصادر الخاصة بفترة ما بعد أكتوبر١٩١٧ (أرشيفات الإدارات الروسية خارج حدود روسيا التابعة لوزارة الخارجية الروسية التى استمرت فى عملها بعد إسقاط الحكومة المؤقتة).

يُعد أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية أرشيفًا مفتوحًا بشكل عام؛ فمن الممكن أن يعمل به باحثون متخصصون روس ومؤرخون أجانب. وللحصول على حق استعمال صالة قراءة أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية

الروسية يجب على الباحث تقديم طلب من مؤسسة تعليمية أو علمية، يذكر فيه الموضوع الذى يريد الباحث العمل عليه فى الأرشيف.

يحفظ الأرشيف مجموعات وثائقية متكاملة لإدارات روسيا المركزية للسياسة الخارجية؛ وهى: مجموعات وثائقية متكاملة لمكتب وزارة الخارجية، القسم الآسيوى، قسم قوائم العاملين الدبلوماسيين، قسم الأعمال الحسابية والمالية، القسم الاقتصادى، قسم الشئون القنصلية القانونية، قسم المطبوعات، قسم أسرى الحرب، والإدارة القانونية وغيرها.

وهناك مجموعات وثائقية متكاملة مستقلة، تمثل وثائق المؤسسات المؤقتة مثل: المكاتب الدبلوماسية التابعة لقادة الجيوش الروسية العاملة أو المكاتب الدبلوماسية التابعة لبعض المحافظين أو لجان تعيين الحدود الدولية أو المؤسسات الخيرية.

تم ترتيب الجزء الأكبر من المجموعات الوثائقية حسب البلدان مثل: مجموعات "علاقات روسيا مع فرنسا"، "علاقات روسيا مع إنجلترا"، "علاقات روسيا مع تركيا".. إلخ. ويتكون الجزء الأساسى من تلك الوثائق من مراسلات العاملين الدبلوماسيين ووزارة الخارجية مع ممثلى روسيا الدبلوماسيين والقناصل فى الدول المختلفة، أو مع الممثلين الدبلوماسيين للدول الأخرى المعتمدين من قبل حكومة روسيا، أو مع رؤساء الدول والمؤسسات الخارجية لدول أخرى. كما تحتوى هذه المجموعات أيضًا على مراسلات الأشخاص الرسمية وغير الرسمية مع الدبلوماسيين الروسيين؛ وتم ترتيبها فى ملفات، كل منها يتعلق بموضوع مُعين، على سبيل المثال ملفات لجان تعيين الحدود.

يتكون بعض المجموعات من مصادر المؤسسات الدبلوماسية والقنصليات الروسية فى الخارج: مجموعة "بعثة فيينا"، "مفوضية بعثة لندن" أو "بعثة طهران"،

أو "سفارة واشنطن"، و"سفارة القسطنطينية"(*)، و"الوكالة الدبلوماسية والقنصلية العامة فى مصر"، و"قنصلية بلجراد"، و"قنصلية بورسعيد"..إلخ. تحتوى وثائق هذه المجموعات على مراسلات ممثلى روسيا فى الدول المختلفة مع وزارة الخارجية الروسية، والمراسلات مع الأشخاص الرسميين وغير الرسميين الروس والأجانب من الدول التى يوجد بها تمثيل دبلوماسى لروسيا، ومراسلات مع الدبلوماسيين الروس فى الدول الأخرى.. إلخ.

بعض المجموعات تحتوى أيضا على اتفاقات ومعاهدات ومحاضر اتفاقيات أخرى بين روسيا وبعض الدول، خرائط جغرافية وبحرية وحدودية، وثائق تتعلق بأعمال موظفى وزارة خارجية روسيا وبعض الشخصيات الاجتماعية والكُتّاب الروس.

تضم وثائق الأرشيف أصول نصوص الاتفاقيات والمعاهدات وشهادات التصديق عليها، وخرائط وخطط الحدود الروسية، وإعلانات رسمية وأوامر والوثائق الموقعة من ملوك روسيا، والتعليمات الموجهة مقدمة إلى الدبلوماسيين الروس وممثلى القنصليات فى الخارج وبلاغاتهم ومذكراتهم ومحاضر مباحثاتهم وتقاريرهم الموجهة إلى "سمو القيصر"، و"الرسائل المكتبية" (المراسلات مع رؤساء الدول والحكومات)، وأيضا مواد المؤتمرات الدولية التى شاركت بها روسيا،

(*) القسطنطينية هى عاصمة الإمبراطورية الرومانية الشرقية نسبة إلى الإمبراطور قسطنطين إمبراطور روما الذى اعتنق المسيحية فى عام ٣١٣م؛ فأجبره مجلس الشيوخ الرومانى (الناتو) على مغادرة روما فذهب إلى القسم الشرقى من الإمبراطورية (بيزنطة-آسيا الوسطى) وأسس العاصمة القسطنطينية. وفى عام ١٤٣٥ تمكن السلطان العثمانى محمد الفاتح من دخول القسطنطينية غازيا وأطلق عليها اسم اسطنبول وتكتب أيضا اسلامبول، واسطنبول، والآستانة. لكن الكتاب الغربيين خاصة المستشرقين لا يذكرون فى كتاباتهم اسم اسطنبول ويكتفون باسم القسطنطينية من باب عدم الاعتراف بما فعله العثمانيون.(المراجع)

والتقـــارير الدوريـــة لوزارة خارجية روسيا وإداراتها، وشهادات تاريخية مختلفة الأنواع.. إلخ.

تلقي وثائق النصف الأول من القرن الثامن عشر الضوء على إقامة تحالف مع النمسا (عام ١٧٢٦)، ومشاركة روسيا فى الحرب لاقتسام بولندا، وإقامة العلاقات ثم الاقتراب والتحالف مع إنجلترا، والحرب مع تركيا(*) أعوام ١٧٣٥-١٧٣٩، والحرب مع السويد أعوام ١٧٤١-١٧٤٣، ومشاركة روسيا فى حرب الوراثة النمساوية.

أما وثائق النصف الثانى من القرن الثامن عشر؛ فإنها تتعلق بوقائع الحربين ضد تركيا (أعوام ١٧٦٨-١٧٧٤ و١٧٨٧-١٧٩١)، وضم شبه جزيرة القرم إلى روسيا، والحرب ضد السويد (١٧٨٩-١٧٩٠)، واشتراك روسيا فى تقسيم بولندا، واتحاد شعوب روسيا وأوكرانيا وروسيا البيضاء، وحصول روسيا على منفذ على البحر الأسود.

وأما وثائق الفترة ما بين نهاية القرن الثامن عشر حتى منتصف القرن التاسع عشر؛ فإنها تصف توسع العلاقات السياسية الخارجية لروسيا مع دول العالم المختلفة. وتحتوى على معلومات عن الحملات الخارجية للجيش الروسى بعد الحرب الوطنية عام ١٨١٢، وأيضًا مشاركة روسيا فى حرب القرم أعوام

(*) منذ أن دخل السلطان العثمانى محمد الفاتح القسطنطينية عام ١٤٥٣م أصبحت دولتهم تُعرف بالدولة العثمانية أو الإمبراطورية العثمانية او السلطنة العثمانية منذ ذلك التاريخ. ولكن بعد هزيمة الدولة العثمانية فى الحرب العالمية الأولى (١٩١٤- ١٩١٨) وتخليها عن ولاياتها خارج آسيا الصغرى فى كل من البلقان والعالم العربى، أصبحت تعرف باسم "تركيا" اعتبارًا من عام ١٩٢٤ لكن المستشرقين يستخدمون "تركيا" بدلاً من الدولة العثمانية على مدى التاريخ. (المراجع)

١٨٥٣-١٨٥٦. وتضم أيضًا معلومات عن سياسة روسيا تجاه الشرق الأوسط فى النصف الأول من القرن التاسع عشر.

المجموعات الوثائقية المتكاملة للأرشيف الخاصة بفترة النصف الثانى للقرن التاسع عشر حتى بداية القرن العشرين، تلقى الضوء على دور روسيا على الساحة الدولية فى كل أنحاء الكرة الأرضية تقريبًا قبل الحرب العالمية الأولى، وأيضًا فى أثنائها، فضلاً عن وثائق تكشف السياسة الخارجية للحكومة المؤقتة.

من بين الوثائق نجد مخطوطات وسيرًا ذاتية لملوك روسيا، ولشخصيات حكومية وعامة، ولدبلوماسيين وقادة عسكريين، ولأدباء روس. سنجد مخطوطات وسيرًا ذاتية، تخص بطرس الأول، كاترين الثانية، ألكسندر الثانى، م.ي.كوتوزوف، م.ف.لومونوسوف، أ.س. بوشكن، أ.س. جريبويدوف، أ.م. جورتشاكوف وآخرين.

كما سجلت الوثائق الفوتوغرافية واجهات مبانى السفارات الروسية والبعثات الدبلوماسية، وشوارع مدن مختلفة، وبورتريهات لوجوه دبلوماسية...إلخ[١].

يحتوى أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية، الموجود فى وسط مدينة موسكو بالقرب من محطة مترو"دوبرينينسكايا"، على عدد لا يحصى من المصادر الأرشيفية المحفوظة فى حالة جيدة. ولعلها فرصة كى نقول إن الملفات المحفوظة فى المؤسسات الأرشيفية الروسية الأخرى هى أيضًا فى حالة جيدة إلى حد ما.

هنا وقبل أى شيء، سوف تجذب اهتمام الباحثين الروس والمصريين والآخرين، فى مجالات التاريخ والاقتصاد والفلسفة والأدب فى مصر، مجموعات وثائقية متكاملة مثل: "الإدارات المكتبية"، "سفارة القسطنطينية"، "الأرشيف

السياسي"، "تقارير وزارة الخارجية"، "الوكالة الدبلوماسية، "القنصلية العامة فى مصر"، "العلاقات السياسة بين روسيا وتركيا"، "قسم تركيا (الجديد)"، "قسم تركيا (القــديم)"، "سفــارة طهــران"، "أرشيف ســـان بطرسبرج الرئيسى" وغيرها من المجموعات.

نصف باختصار المجموعة الوثائقية المتكاملة ١٥١ المعنونة "الأرشيف السياسى".. تحتوى المجموعة الفرعية ٤٨٢ بها على نحو ٥٥٠٠ ملف خاص بمصر. تبدأ المجموعة الفرعية بملفات عامة تقوم بوصف عام لمصر. تحتوى الملفات ٢١٧-٨٧٦ على تقارير موجهة إلى القيصر، وعلى مراسلات سياسية بين القناصل الروس ووزارة الخارجية التى كانت توجد فى سان بطرسبرج حتى عام ١٩١٨ ثم انتقلت مـــع حكومة البلاشفة إلى موسكو بأمر من فلاديمير لينين بعد ثورة أكتوبر.

تلقى الوثائق الموجودة فى ذلك العدد من الملفات (٦٦٠ ملفًا) الضوء على أحداث الفترة ما بين ١٨٨١ و١٩١٧. وتتكون تلك الملفات من: أ- رسائل عادية وعاجلة. ب- برقيات. ج- مراسلات عامة. ونلاحظ أن الجزء الأكبر من وثائق المجموعة الوثائقية "الأرشيف السياسي"، وفى عدد من المجموعات الوثائقية الأخرى التابعة لأرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية مكتوب باللغة الفرنسية، حيث إنها اللغة الدولية للدبلوماسية على الأقل فى وثائق فترة القرن التاسع عشر، وفى نهايته ظهرت الوثائق مطبوعة، وقبل ذلك كانت مخطوطة باليد. هناك القليل من الوثائق الدبلوماسية فى الأرشيفات الروسية باللغة الإنجليزية. بدءًا من نهاية القرن التاسع عشر تظهر اللغة الروسية أكثر وأكثر فى المجموعة الوثائقية المتكاملة المعنونة "الأرشيف السياسى"

وقد حملت الأحداث، التى نقلها القناصل الروس من مصر واستلموا بشأنها إجابات وتعليقات من وزارة الخارجية؛ ملامح مختلفة، تبين أن الوكلاء الدبلوماسيين الروس اهتموا بكل شيء. وحتى لا نبدو كمن يثرثر؛ فإننا نقدم للقارئ أهم الموضوعات التى كان يرفعها ماكسيموف القنصل العام للإمبراطورية الروسية(*)، فى تقاريره إلى وزير الخارجية لامزدو(٣)، عن عام ١٩٠٤. بدا ذلك العام صعبًا للدبلوماسيين الروس بسبب الحرب الروسية اليابانية عام ١٩٠٤، التى انهزمت فيها روسيا القيصرية.

وتلك التقارير محفوظة بالملف رقم 850 فى المجموعة الفرعية 482 للمجموعة الوثائقية المتكاملة "السياسة الخارجية". يكتب القنصل الروسى، بعد تبادل المذكرات بين الوكالة الدبلوماسية الروسية فى القاهرة مع الحكومة الخديوية(*): "أدى الهجوم المفاجئ نسبيًا من قبل فرقة الألغام اليابانية على أسطولنا فى بور-أرتور إلى وجوب رد الحكومة القيصرية بقوة السلاح على هذا التحدى الوقح المُوجّه ضد روسيا، وبعد تبادل المذكرات مع الحكومة المصرية بهذا الشأن لم تقرر تلك الحكومة موقفها بالضبط وعلاقتها بالطرفين المتحاربين" (ورقة 2). ويرجع ماكسيموف من جديد فى الرسائل العاجلة رقمى 2 و3 بتاريخ 18 فبراير إلى هذه القضية التى كانت فى منتهى الأهمية للحكومة الروسية.

(*) كانت مصر زمن الحرب الروسية – اليابانية (١٩٠٤- ١٩٠٥) لا تزال ولاية عثمانية يتلقى حاكمها فرمان الولاية من السلطان العثمانى على الرغم من وقوع مصر تحت الاحتلال البريطانى فى سبتمبر ١٨٨٢. ومن ثم لم تكن فى مصر بعثات دبلوماسية للدول الأجنبية (سفارات) والسفارة تكون فى عاصمة الدولة العثمانية (اسطنبول). أما فى مصر وفى أى ولاية أخرى تابعة للدولة العثمانية يكون هناك قناصل لمباشرة مصالح رعايا الدول الأجنبية الذين يقيمون فى مختلف مدن مصر للعمل او التجارة. (المراجع)

وأصل هذا الموضوع أن مؤتمر باريس فى عام ١٨٨٥ واتفاقية القسطنطينية فى عام ١٨٨٨؛ قد وضعتا القواعد الخاصة بحركة السفن عبر قناة السويس التى تمنع الدول المتحاربة من استخدام القناة. كانت روسيا، التى أغرق اليابانيون أغلب أسطولها فى بور- أرتور، فى حاجة إلى إمدادات وتعزيزات جدية. لذلك أولت أهمية كبيرة لقضية حياد قناة السويس وإمداد سفن الدول المتحاربة بالفحم وتصنيف أى من السفن يمكن أن تُعد حربيّة. وتكررت تلك القضية عدة مرات فى تقارير القناصل الروس حول النقاشات الحادة التى جرت بينهم وبين ممثلى الحكومة المصرية وبينهم وبين المعتمد الإنجليزى فى مصر اللورد كرومر.

ويضم هذا الملف أيضًا موضوع الاتفاقية الإنجليزية - الفرنسية الموقعة عام ١٩٠٤(*) وتأثيرها فى مصر ورد فعل الخديو عباس حلمى الثانى عليها (ورقة ٣٨ على ظهر الورقة – ورقة ٦٢ على ظهر الورقة).

هنا أيضًا يعطى القنصل العام الروسى تقييمه بشأن عدم رغبة كرومر فى إعادة المعارضين الأتراك إلى السلطان العثمانى. كان هؤلاء المعارضون يعملون بنشاط فى مصر ضد السلطان. ويعطى القنصل الروسى أيضًا تقييمه بشأن التنافس الإنجليزى - الفرنسى على بناء كوبرى للسكك الحديد فى مصر، وبشأن رى الأراضى الصحراوية فى السودان ومصر، وبخصوص قائمة أولويات اللورد كرومر فى تنفيذ الأعمال العامة فى مصر (صفحة ٧٤- صفحة ١٤٩على ظهر

(*) فى الثامن من أبريل عام ١٩٠٤ توصلت بريطانيا وفرنسا إلى تسوية بشأن الخلافات القائمة بينهما، حيث كانت فرنسا تطالب بريطانيا بالجلاء عن مصر ومن ثم احتضنت مصطفى كامل وفتحت له أبوابها للتنديد بالاحتلال البريطانى. فلما قررت فرنسا الاستيلاء على مراكش (المغرب) بعد أن احتلت الجزائر فى١٨٣٠ وتونس فى ١٨٨١ وكانت تخشى معارضة بريطانيا، اتفق الطرفان على تسوية الخلافات بينهما فكان هذا الوفاق الودى "ENTENT CORDIAL" وليس "Agreement". (المراجع)

الورقة). ويذكر "ماكسيموف" مشكلة الاحتكاك والنزاع بين بطريرك الإسكندرية ومطران سيناء (ورقة ١٦٢-١٦٢ على ظهر الورقة)، كما أنه يثير القضية الملحة بتأسيس وكالة روسية للتلغراف فى مصر (ورقتا ١٦٣- ١٦٤ على ظهر الورقة).

فى هذا الملف نفسه يثير "ماكسيموف" اهتمام قيادة وزارة الخارجية الروسية بشأن خضوع عباس حلمى الثانى المستمر لضغوط اللورد كرومر عليه، ويشير إلى أن الخديو حلمى يحمل "مشاعر طيبة" تجاه روسيا على الرغم من كل ذلك (أوراق ١٧٦-١٧٩ على ظهر الورقة). ويلاحظ ماكسيموف تدهور صحة اللورد كــرومر. فى النهاية يذكر تقييمًا للتقرير السنوى الذى يقدمه اللورد كرومر عن حالة مصر.

وبالمناسبة يمكن العثور على كل تلك التقارير السنوية للورد كرومر، التى تُسمى "الكتب الزرقاء" وهى على شكل كتيبات، ولكل السنوات فى ملفات المجموعة الوثائقية المتكاملة "الأرشيف السياسي".

بالتأكيد لم نضمن هنا كل القضايا التى ذكرها الوكيل الدبلوماسى ماكسيموف فى رسائله العاجلة إلى الوزير لامزدورف؛ ولكن هذه المجموعة الوثائقية الفرعية تفصح عن العمل الجهيد الذى بذله القناصل الروس فى مصر، وعن غِنى الأرشيفات الدبلوماسية الروسية لفهم تاريخ مصر، ولتقييم العلاقات الروسية – المصرية، والعلاقات الدولية فى الشرق الأدنى ككُل.

نعثر على تقرير القنصل العام إيفان ليكس[٤]، السنوى، والوحيد من نوعه عن عام ١٨٨١ والمُوجه إلى جيرس وزير خارجية روسيا آنذاك[٥]، فى المجموعة الوثائقية المتكاملة "الأرشيف السياسي" (المجموعة الفرعية ذاتها رقم ٤٨)، فى الملف ٨٢٠، الذى يغطى الفترة الزمنية بين عامى ١٨٧٦ و١٨٨٢. ونجد على الهامش فى هذا التقرير عبارة "تقرير شيق جدًا" مكتوبة بيد الإمبراطور ألكسندر

الثالث، وبالقلم الرصاص. يتكون التقرير من ١٣ فقرة، كالتالى: ١- "إثنوغرافيا"، ٢- "الحالة الاقتصادية"، ٣- "التجارة"، ٤- "المالية"، ٥- "الإدارة"، ٦- "الإصلاحات"، ٧- "العمليات الحربية"، ٨- "تعليم الشعب"، ٩- "الديانة"، ١٠- "الجالية الروسية والوكلاء القنصليين"، ١١- "الوكلاء القنصليين الأجانب"، ١٢- "نشاط القنصل"، ١٣- فقرة مخصصة لخاتمة مختصرة، ويكتب فيها إ. ليكس: "كل ما ينقص هذا التقرير سوف أقدمه فى تقرير عن عام ١٨٨٢ الحالي"(٦).

للأسف لم يكن مكتوبا أن يستمر التقليد الجميل بكتابة التقارير السنوية عن مصر بواسطة القناصل، فلم تكن النوايا الحسنة والبداية المجيدة كفيلين بالاستمرار. بعد وقت قليل بدأ العدوان الإنجليزى الذى انتهى باستعمار مصر. واضطر ليكس إلى مغادرة مصر؛ ولم يعد إليها بعد ذلك أبدًا، إذ جاء بدلاً منه دبلوماسى روسى آخر. هذا هو التقرير الوحيد لصاحبه ل.ي. ليكس، الذى ضمنته فى كتابى، والذى نشر فى القاهرة فى عام ٢٠٠٢ باللغة العربية(٧).

وبجانب المراسلات الدبلوماسية الخاصة بالشئون السياسية المحضة، نجد فى المجموعة الوثائقية المتكاملة "الأرشيف السياسي" وثائق تتناول جوانب الواقع المصرى الأخرى: الحالة المالية المصرية وتصفية ديونها، القروض المالية والتحويلات المالية (ملفات ٢٣٤٩-٢٣٨٥ أ)، الإصلاح القضائى للمحاكم المختلطة (ملفات ٢٣٨٨-٢٣٩٧)، صندوق الدين المصرى (ملفات ٢٣٩٨-٢٤٠١)، أعمال الكنيسة (ملفات ٣٥١٩-٣٦١٠)، العمليات الحربية فى فلسطين وفى منطقة البحر المتوسط (ملفات ٤١٢٤-٤٦٣٣). كما يوجد كم من المعلومات الشيقة الأخرى، مثل مذكرة "باشكوف"، العضو الروسى للمحاكم المختلطة عن مصر فى عام ١٨٨٢ (ملف ٥٢٨٤) ... إلخ.

ينشر "الأرشيف السياسي" أيضا الكثير من المواد المهمة والجادة عن نشاط ممثلى التيارات المختلفة للحركة الثورية الروسية فى أعوام الثورة الروسية الأولي. ويبدو اتساع نشاط الثوار الروس ووجوده على ضفاف النيل متعلقا بوجود ظروف مناسبة لعملهم هناك.

قبل أى شيء، كان قُرب هذا البلد من السواحل الروسية؛ له مغزى حاسم لإقامة العناصر المعارضة من وجهة نظر الحكومة القيصرية. كما كان موقع مصر بين ثلاث قارات ذا أهمية كبيرة؛ فمن الممكن اللجوء إليها سريعًا، والهروب منها فى حالة الضرورة. كان موقع مصر ملائمًا جدًا؛ فهى تعد ولاية تابعة للإمبراطورية العثمانية ومن ناحية أخرى هى فعليًا مستعمرة إنجليزية بعد احتلالها فى عام ١٨٨٢.

لقد تغاضى الإنجليز عن جهود المعارضين الراديكاليين ضد الأنظمة الحاكمة لبلادهم. كان نظام الاحتلال يشاهد من خلال أصابع يديه نشاطات تلك الجمـــاعات الموجه ضد حكومات بلدانها، ولا يحرك ساكنًا ما دامت تلك الأنشطة لا تعيق الاستقرار ولا تهدد النظام الاستعمارى. على سبيل المثال قدمت السلطات العثمانية مذكرات وإنذارات إلى سلطة الاحتلال والسلطات المصرية، مطالبةً بإغلاق مطابع وفروع الأحزاب التركية المعارضة التى قامت فى مصر بدعاية مضادة للسلطان عبد الحميد فى بلد الأهرام، وطبعت المنشورات والبيانات، وأصدرت أدبيات معارضة ومحظورة. وكان نشاط هؤلاء يتمركز بالذات فى ميناء الإسكندرية، وظلت التحذيرات والاحتجاجات العثمانية بلا رد.

عاش كثير من الأجانب فى الإسكندرية – يونانيون وإيطاليون وإنجليز وفرنسيون وغيرهم – بلغ عددهم ما يقرب من ١٠٠ ألف شخص. كان ضمنهم عدد غير ضئيل من الاشتراكيين والفوضويين وممثلى التيارات الأوروبية الثورية

الأخرى. هرب بعضهم من المطاردة فى بلاده، وكان بعض آخر منفيًا بواسطة الأنظمة الحاكمة الأوروبية. لقد تشكلت فى بداية القرن العشرين، فى العاصمة الثانية لمصر، شريحة من نخبة مثقفة كوزموبوليتانية متحدة نوعًا ما. قامت تلك الشريحة بمحاولة ناجحة لتنظيم نفسها فى صورة جامعة شعبية حرة ، وتم إنشاء فرع لها فى القاهرة.

أنشأ تلك الجامعة، فى الإسكندرية، مهاجرون سياسيون أوروبيون فى عام ١٩٠١. تكونت اللجنة التنفيذية المؤقتة للجامعة الشعبية الحرة من إيطاليين، يونانيين، نمساويين، يهود، فرنسيين، عرب، وضمت تلك اليهودى الروسى يوسف روزينتال الذى لعب دورًا بارزًا فى الحركة الشيوعية المصرية، وشغل زوج ابنته "أفيجدور" وابنته "شارلوت" مواقع قيادية كبيرة فى الحزب الشيوعى المصرى كما سنرى فيما بعد.

أصبح ر. كانيفى رئيس الجامعة الشعبية الحرة، وكان فى الوقت نفسه رئيس تحرير الجريدة السكندرية "لا ريفورم"، المؤيدة للنزعات اليسارية المتطرفة. وكما قال "كانيفي" فى خطاب افتتاح الجامعة: إن الفكرة الأساسية فى إنشاء الجامعة هى "تثقيف وتعليم القسم الأهم من السكان، وهو الطبقة العاملة"(٨).

كانت قاعات الجامعة تمتلئ بنحو ١٥٠٠-٢٠٠٠ مستمع شهريًا، ولم يكن النجاح العظيم للفعاليات العامة للجامعة الشعبية الحرة وإرهاصات وحدة جهود ممثلى الجماعات السياسية والعمالية فى إطار نشاطها؛ بعيدًا عن اهتمام السلطات الاستعمارية والقنصلية. لقد نشرت الصحف بيانًا مُوَجهًا إلى ملك إيطاليا إيمانويل الثالث، قيل فيه: إن هدف إنشاء الجامعة الأهلية الحرة فى القاهرة، هو عقد اجتماعات ولقاءات لأعضاء مجموعة فوضوية خطيرة كانت معروفة فى أوروبا ومكونة أساسًا من إيطاليين. فيما بعد، ستتم محاكمة بعض مؤسسى الجامعة الشعبية الحرة أمام المحكمة القنصلية الإيطالية فى مصر فى عامى ١٨٩٨-١٨٩٩ فى

قضية تنظيم فوضوى، كان يدبر قتل الإمبراطور الألمانى فيلهيلم الثانى فى فلسطين. وقد اتهمت الصحف الجامعة الشعبية الحرة بأن محاضراتها فى الكيمياء والفيزياء وغيرهما كثيرًا ما تحولت إلى خطابات سياسية؛ تدعو إلى التخلص من الرق السياسى. شهدت قاعات الجامعة الشعبية الحرة اجتماعات لعمال المدينة، كانت تُناقش فيها قضايا مهمة خاصة بأوضاعهم الاقتصادية وإضراباتهم المقبلة.

وكان مؤثرًا، بشكل خاص، موقف الجامعة الشعبية الحرة من أحداث يناير عام ١٩٠٧ المتعلقة بالقبض على ثلاثة ثوار روس، وإبعادهم عن مصر. نشرت جريدة "لا ريفورم"، بأمر ر. كانيفى ، "نداءات ملتهبة" للدفاع عن المقبوض عليهم؛ وكانت تدعو سكان الإسكندرية إلى التدخل لمنع السلطات المحلية والقيصرية من طرد الثوار الروس من البلاد. تضم المجموعة الوثائقية المتكاملة "الأرشيف السياسي"، (ملف ٨٥٩، ورقتا ٤-٥) وقائع تخص هذه الأحداث المضطربة؛ وفيها يبلغ القنصل العام أليكسى سميرنوف وزارة الخارجية الروسية فى رسالته رقم ١ فى ١٦ يناير عام ١٩٠٧: "لاحظت قنصليتنا مرارًا، منذ بعض الوقت، مخالفة للنظام من قبل "شركة الملاحة البخارية والتجارة الروسية" وطبقًا لملاحظات ربابنة السفن؛ فإن البحّارة عندما يصلون إلى ميناء الإسكندرية، يقعون تحت تأثيرات ضارة. عدا ذلك كشف بعض الكلمات المتناثرة فى الأحاديث فيما بينهم؛ عن شائعات منتشرة حول انفجار متوقع لإحدى البواخر عن طريق وضع قنبلة فى ميناء الإسكندرية، مجهزة بآلة جهنمية.

يبدو أن غرض هذه الجريمة، هو السعى إلى إرهاب البحارة الذين لم يشاركوا فى الإضرابات[٩]. ونظرًا لوقوع انفجارين متشابهين فى أوديسّا، بدت محاولة القيام بالشىء نفسه فى الإسكندرية ممكنة جدًا، ومن ثم قام قنصلنا بلفت اهتمام مدير الشرطة إلى ذلك.

بعد مراقبة دقيقة، استطاعت الشرطة أن تقع على آثار المؤامرة التى كان غرضها تفجير الباخرة، وفى الوقت نفسه تلقى قائد السفينة رسالةً، تطالبه تحت التهديد بالموت بخمسة آلاف روبل لأغراض ثورية. وعند القبض على أحد المتآمرين؛ تم العثور على أملاح وأحماض لازمة لإنتاج المفرقعات.

كان عدد المعتقلين ثلاثة، أهمهم وأكثرهم نشاطًا "بوتسويف" الجيورجى الأصل، البحّار السابق فى شركة "الملاحة البخارية والتجارة الروسية". وجد لديه جوازا سفر روسيين. وفى أثناء اضطرابات أوديسّا تم تقديمه للمحاكمة وحصل على حكم بالنفى، لكنه هرب إلى الإسكندرية. كان بوتسويف موهوبًا ونشيطًا، وكان وراء المؤامرة كلها. أما الاثنان الآخران فكانا يهوديين "بلوتنيك" و"بونتمان".

فى الرسالة رقم ٢ يكتب القنصل العام (ورقتا ١٠-١١): نشرت الجريدة السكندرية "لا ريفورم" بشكل مشوه خبرًا عن اعتقال ثلاثة رعايا روس. وفق الجريدة كان المعتقلون من اللاجئين السياسيين الذين تلاحقهم الحكومة الروسية لمعتقداتهم السياسية والذين تهددهم عقوبة الإعدام فى وطنهم. واستخدمت الجريدة كل الكلمات عالية الصوت عن الحرية وحقوق الإنسان والإنسانية، وكيف يجب على كل الناس أن يتحدوا لانتزاع "التعساء" من أيدى السلطات الروسية لينقذوهم من مخالب الموت.

وفى البورصة أيد تلك الحركة اليهودى كامبوس، وهو أحد العاملين الأغنياء فى سوق الأوراق المالية. لقد جذب، بمساعدة بعض مواطنيه، حشدًا كبيرًا للتوجه إلى القنصلية الإنجليزية، حيث طالبوا بتوسط اللورد كرومر للإفراج عن المعتقلين. وفى المساء تلقى اللورد كرومر عددًا هائلاً من التلغرافات، بتوقيعات تحصى ولا تعد من يهود الإسكندرية من جميع الجنسيات. ضمن التوقيعات يمكننا

أن نجد أسماء أثرياء مثل البارون فيليكس منشه رئيس الجماعات الماسونية المصرية. كانت صياغة كل تلك البرقيات متماثلة تقريبًا: نداء إلى مشاعر لورد كرومر الإنسانية مع طلب حماية "التعساء" المعتقلين السياسيين وعدم إرجاعهم إلى روسيا.

في اليوم نفسه، السبت الموافق ٦ يناير، غادرت الإسكندرية باخرة روسية، ولكن إرسال المعتقلين على متنها كان غير ممكن بسبب حالة الإثارة السائدة في المدينة وبسبب الحشد الذي حاصر سجن الحدرة؛ حيث كانوا محتجزين.

وفي اليوم التالي، يوم الأحد، ونتيجة للحشد الكبير جزئيًا، ازداد الاهتياج أكثر وأكثر، وساد المدينة القلق إلى حد بعيد. وبعد منتصف النهار ابتدأ غضب الحشد؛ حيث اقتحموا باخرة شركة الملاحة البخارية الروسية والتجارة الراسية في الميناء، وكسروا الأبواب وقاموا بتفتيش كل الباخرة بحثًا عن المجرمين ثم هرعوا إلى القنصلية وحاولوا اقتحامها، ألقوا بالوحل وفضلات الطعام المختلفة على نوافذها، وأخيرًا قاموا بانتزاع وإلقاء شعار الدولة المُعلق فوق الباب. ولدينا معلومات بأن اليهودي كامبوس ذاته، قام بتزعم الحشود في مهاجمة الباخرة والقنصلية الروسية.

لحسن الحظ كان قنصلنا أباظة(*) غائبًا في ذلك اليوم: كان عندي بالقاهرة منذ الصباح الباكر؛ حيث أتى للتحدث معي عن تلك الحركة السكندرية وعن صعوبات ترحيل المجرمين إلى روسيا.

(*) درجت معظم الدول الأجنبية على اختيار قناصل من بين أهالي مصر لرعاية مصالح رعاياها الذين يعيشون في مصر للعمل أو للتجارة بدلاً من إيفاد قناصل من تلك الدول بشكل مباشر. وقد وقع اختيار روسيا على أحد افراد عائلة أباظة؛ لأن أصول هذه العائلة من بلاد الإبازة (أبخازيا حاليًا) التي كانت تحت هيمنة الإمبراطورية الروسية آنذاك. (المراجع)

ونتيجة للتهديدات المتكررة باغتيال "أباظة"، لجأتُ إلى اللورد كرومر بصفته ممثلاً للبلاد وبصفته المحتل بقواته العسكرية مصر، سائلاً إياه إذا كان فى مقدوره اتخاذ الإجراءات اللازمة لضمان سلامة قنصلنا والعاملين بالقنصلية. أجابنى اللورد كرومر بأنه لا يرغب فى توجيه قوات محلية ضد الحشد الأوروبى (ورقة ١٢)؛ لأن هذا قد يفجر التعصبَ، ولكنه وعدنى بالمساندة الإنجليزية العسكرية فى حالة تردى الأوضاع.

فى الرسالة رقم ٣ (ورقتا ١٦-١٧) يشير الوكيل الدبلوماسى ب. سميرنوف: "فى اليوم التالى بعد اندلاع الفوضى فى الإسكندرية، انتقلت أجواء القلق إلى القاهرة، ففى الاثنين الموافق ٦ يناير تم انعقاد اجتماع حاشد كبير، أُلقيت فيه خطابات حماسية عن قضية الحرية التى لا تتغير أبدًا، والإنسانية والتضامن لحماية المضطهدين.

أتى إلى أحد معارفى من اليهود حسنى النية، طالبًا استقبال اثنين أو ثلاثة نواب من ذلك الاجتماع وإخبارهم بحقيقة الأمر؛ لأن لديهم فكرة مشوهة عنه.. قال إنه يأمل فى تهدئة الحشد عن طريق ذلك.

أجبته بأننى لا أعارض أن استقبل النواب، إذا أرادوا معرفة حقيقة الأوضاع منى. نتيجة لذلك جاءنى وفد من اثنى عشر شخصًا من المحامين والصحفيين، لكن أغلبيتهم من اليهود. ومن حديثى معهم، اقتنعت فعلاً بأن لديهم فكرة مبالغة وخاطئة عن الأمر، وأنهم يتعاملون بعدم ثقة مسبقة مع إجراءات وتصريحات السلطات الروسية.

فى اليوم التالى، الثلاثاء الموافق ٩ يناير، تم عقد اجتماع لعمال الطباعة الإيطاليين المعروفين هنا بمعتقداتهم الفوضوية. انضم إليهم اليهود وعناصر متطرفة أخرى من الاجتماع السابق، وملأ حشد كبير بعد الظهر الشارع أمام

الوكالة الدبلوماسية للقيصرية؛ وقاموا بمظاهرة عدوانية مصحوبة بتهديدات وبصفير وصرخات وهتافات ممتلئة بكراهية روسيا. كان مبنى الوكالة تحت حراسة دوريات الشرطة من عشية اليوم السابق؛ لذلك فشل اقتحام سور الحديقة والمبنى. وعلى الرغم من غلق البوابات بسرعة ظل الحشد يتقدم نحو جنود الشرطة. وعند انتهاء المظاهرة، ظهرت كتيبة كاملة من الخيالة، وقائد شرطة القاهرة على رأسها. وتم استخدام خراطيم إطفاء الحريق ضد الحشد، وأغرقت المياه فقط بعض المتظاهرين في الصفوف الخلفية والمشاهدين الواقفين على الرصيف.

وأمام مبنى آخر تابع للقنصلية، اتجه إليه الحشد، تكررت المظاهرة نفسها؛ حيث قام الحشد بتقطيع أكمام مضخات الحريق المطاطية وإزاحة أحد رجال الشرطة الذى كان يحاول إخراج مسدسه.

والآن بعد مرور أسبوع، تمت استعادة الهدوء على الرغم من استمرار حراسة دوريات الشرطة المشددة للوكالة والمبنى القنصلى نهارًا وليلاً. ويبدو أن التهديدات باغتيالى قد وصلت إلى مسامع الشرطة التى وجدت من الضرورى ملازمتى بواسطة مخبرين سريين، وقام هؤلاء بتتبعى فى الشوارع أينما ذهبت. أمّا مستشار وزارة الداخلية "ميليت"؛ فقد طلب منى أن أكون حذرًا وأن أتجنب حيًا معينًا، يسكن الآن فيه الكثير من المهاجرين اليهود الروس.

لقد أعطت مصر حق اللجوء إلى مئات عديدة من اللاجئين ذوى الأصول اليهودية. وصل اليهود إلى بلد الأهرامات فى موجات متتابعة بعد المذابح التى قامت بها جماعة "المئات السود"(١٠) خاصة فى أوكرانيا. وفى كل يوم تقريبًا، كانت الجرائد المصرية تنشر أخبارًا عن وصول عشرات اللاجئين إلى الميناء(١١). جمعت الجماعات اليهودية الثرية فى القاهرة والإسكندرية الأموال للاجئين، وقامت

بمساعدتهم فى ترتيب إقاماتهم، وجمعت المال لترحيل بعضهم من مصر إلى دول أخرى. ومنذ عام ١٩٠٥، تم إنشاء جمعيات التضامن مع ضحايا الإرهاب فى روسيا مثل: "لجنة من أجل روسيا الحرة"، "لجنة الصندوق الروسى للتضامن"، "صندوق مساعدة المهاجرين الروسيين". فى يوم ٢٩ يوليو قامت المدعوة "صوفيا زفينيجورودسكايا" بتأسيس "اتحاد المهاجرين اليهود" فى الإسكندرية. نشرت جريدة "مورنينج بوست" السكندرية، أنه قد تم جمع مبلغ ١٦٠٠ جنيه إسترلينى، بعد واحدة فقط من الأمسيات الخيرية فى أغسطس عام ١٩٠٦، وأن ١٠٠٠ جنيه إسترلينى منها، قد أُرسلت إلى الصندوق المركزى فى لندن، بينما بقيت ٦٠٠ جنيه للمنفيين إلى مصر من روسيا(١٢).

انتهت قصة الثوار الثلاثة المذكورين سابقًا التى قابلتها مقاومة عنيفة من المجتمع الكوزموبوليتانى المتضامن فى مصر، لصالح السلطات الدبلوماسية الروسية. لقد استخدم مسئولو القنصلية الحيلة. قاموا بمساعدة الإدارة الاستعمارية بترحيل "بوتسويف" و"بونتمان" و"بلوتنيك" سرًا عبر السكة الحديد من السجن فى الإسكندرية إلى بورسعيد، حيث كانت تنتظرهم باخرة متجهة إلى أوديسا.

ولكن على الرغم من التدابير المضادة المختلفة، فلم تتمكن السلطات الدبلوماسية الروسية فى وادى النيل من السيطرة على الوضع. كانت مصر بمثابة أرض خصبة لنشاط الثوار الروس اليهود. قدمت الأرض المصرية المزيد والمزيد من وقائع جديدة لاستخدام الجو السياسى - الاجتماعى العام المناسب لممثلى التيارات المعارضة فى الإمبراطورية الروسية. كانت "مراقبة الثوار الروس المقيمين هنا مستحيلة تقريبًا"، كما أخبر قنصل الإسكندرية "بيتروف" وزارة الخارجية الروسية فى ٢٢ أغسطس عام ١٩١٣(١٣).

استمرت هجرة اليهود القوية، ابتداءً من نهاية القرن التاسع عشر وفى أعوام الثورة الروسية الأولى ١٩٠٥-١٩٠٧ وفيما بعد ذلك. وصل عدة آلاف من اليهود إلى شواطئ النيل أثناء الحرب العالمية الأولى. يصف ف.ف. بيليكوف الجالية الروسية فى نهاية القرن التاسع عشر، ويلاحظ أولاً: إنها كانت يهودية فى الغالب وبالأساس، وثانيًا: كانت إلى حدٍ كبير منحازة ضد نظام الحكم القيصرى. ويستمر بيليكوف قائلاً " ظلت هذه الخصائص حتى ثورة أكتوبر، ووصول موجة جديدة من المهاجرين الروس فى عام ١٩٢٠"(١٤).

نتعرض إلى مصدر ثمين آخر، هو تقارير الدبلوماسيين الروس السنوية عن مصر. وكما كتبنا من قبل، على الرغم من وجود تقرير سنوى واحد فقط فى المجموعة الوثائقية المتكاملة "الأرشيف السياسي" وهو تقرير "ليكس" عن عام ١٨٨١؛ فإننا نجد وثائق مكثفة عن مصر فى أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية، لكن فى شكل آخر وفى مجموعة وثائقية متكاملة أخرى. تم العثور عليها فى المجموعة الوثائقية المتكاملة المعنونة "تقارير وزارة الخارجية الروسية" التى تحمل رقمًا مسلسلاً ١٣٧، وتحفظ التقارير عن مصر فى المجموعة الفرعية رقم ٤٧٥. وتغطى تقارير مصر فترة أعوام ١٨٥٧-١٩٠٦، لا نجد تقارير قبل تلك الفترة أو بعدها، وأسباب غيابها فى الأعوام الأخرى غير معروفة.

كانت تلك التقارير السنوية لوزارة الخارجية الروسية تسمى "التقارير الخاشعة"، لكونها موجهة إلى القيصر شخصيًا، وبالطبع مع تقارير عن بلاد أخرى أيضًا. كان يتم عمل هذه التقارير على أساس رسائل القناصل الروس فى مصر العاجلة والمنتظمة، وكان يتم تكثيفها فى عدد من الصفحات يتراوح بين صفحة وصفحتين وحتى عشرة صفحات أو أكثر أحيانًا. تتحدث تلك التقارير عن الأحداث الأساسية التى جرت فى البلد، وعن حالة الاقتصاد والتجارة، والإصلاحات التى

قامت بها الحكومة المصرية مع الإدارة الاستعمارية، ونشاط الدول الأجنبية على أراضى مصر، والتحركات السياسية الخارجية للخديو، وسلوك السلطات الاستعمارية، وأيضًا الحركة الوطنية المصرية. تحتوى تلك التقارير أيضًا على الخطوات الأساسية التى يتخذها القناصل الروس وتعاونهم مع السلطات المصرية، كما تذكر أوصاف مثيرة للحكّام المصريين أو لمسئولى الحكومة البارزين والشخصيات الوطنية. وتصف التقارير بالتفصيل نشاط اللورد كرومر ومندوبين إنجليز آخرين وغيرهم.

نقدم كمثال تقرير "خاشع" لوزير الخارجية عن عام ١٨٦٨:

"سيدى الرحيم!

يشرفنى أن أقدم لعناية جلالة سموكم الإمبراطورية العليا:

تُمثل أعمال إنشاء قناة السويس مسألة ذات أهمية أولى لمصر. من المتوقع أن يتم افتتاح القناة فى خريف هذا العام، إذا لم يسبب نقص الإمكانات المالية لدى الشركة تباطؤا مفاجئًا.

نتيجةً للاتجاه المتسارع للتجارة فى قناة السويس مع الهند والصين، وبصفة عامة مع كل المسارات البحرية فى المحيط الهندى والهادئ، اقترحت شركة دى ليسّيبس، على شركات النقل البحرى الأساسية للدول المختلفة وحكومات الدول البحرية، امتلاك أماكن فى السويس وبورسعيد لإقامة مكاتب، ومخازن.. إلخ. لقد وافقت شركة الملاحة البخارية والتجارة الروسية على هذا الاقتراح، لكن وزارة البحرية لم تجد ضرورة لتحمل نفقات لامتلاك هذا المكان.

يعرب خديو مصر فى علاقته بوكلائنا، المتعلقة بالرعايا الروس، عن تمنياته المستمرة بالتوفيق للحكومة الإمبراطورية. ولقد كانت وزارة الخارجية

دائمًا، وبإذن من جلالتكم الإمبراطورية، تعبر عن استعدادها للتعاون وتقديم المساعدة للخديو. فقط وبسبب الانتفاضة الكانديانية ووجود القوات المصرية في كانديا، أعرب سفيرنا في القسطنطينية عن سخطه على إسماعيل باشا، الذى خضع لرغباتنا فيما بعد وسحب قواته من كانديا في عام ١٨٦٧. لقد دعمنا طموح إسماعيل باشا في الاعتراف بابنه كوريث له في الخديوية، وفي الأونة الأخيرة قمتم جلالتكم الإمبراطورية بتشريفه باهتمامكم الرحيم ومنحتموه وسام القديسة آنا من الطبقة الأولى.

كان اعتراف الباب العالى بمنح صلاحيات استقلالية إلى حد ما للخديو، من حيث منحه الحرية الكاملة في أعمال الإدارة الداخلية، وأيضًا حق عقد بعض الاتفاقيات الدولية مع الدول الأجنبية بجانب الباب العالى، هو الذى دفع وزارة الخارجية إلى طلب منح قنصلنا العام في مصر لقب الوكيل الدبلوماسى، والذى حصل من جلالتكم الإمبراطورية على موافقتكم الرحيمة".

وسنجد في المجموعة الوثائقية المتكاملة "تقارير وزارة الخارجية الروسية" تحليلاً تفصيليًا لشئون كنيسة الروم الأرثوذوكس، والكاثوليكية، والقبطية وغيرها. من الممكن القول بأن أعين الوكلاء الروس المنتبهة في مصر لم تترك أمرًا واحدًا جديرًا بالاهتمام إلا وذكروه، سواء كان متعلقًا بالوضع السياسى الداخلى أو بمجال السياسة الخارجية.

لا بد أن نلاحظ أن الشبكة القنصلية آنذاك، كانت أكثر اتساعًا بكثير من الآن. كان يدخل ضمن موظفيها بالأساس السكان المحليون من الرعايا من ذوى التابعية المصرية الذين يدينون في الغالب بالمسيحية. كمثال لذلك نقدم معطيات من التقرير السنوى لوزارة الخارجية الروسية عن عام ١٩٠٢على النحو التالى:

تقع كل من الوكالة الدبلوماسية والقنصلية العامة فى القاهرة فى العقار ١٦ شارع عماد الدين، ويترأس الوكالة والقنصلية المستشار السرى والفعلى "أ.ي. كوياندر(١٥)"، وشغــل منصب السكرتير المستشار "أ.ن. برونيفسكي"، بينما كان "ج. ف. أبيج" الدبلوماسى المنتسب إلى الوكالة الدبلوماسية يعمل سكرتيرا للهيئة.

يقع مبنى تابع آخر للقنصلية، فى القاهرة في٢ شارع المغربي، ويعمل به نائب القنصل مستشار الهيئة أ.ف. شيبونين، والمترجم (الترجمان) جوزيف كونستانتين.

وفى الإسكندرية تقع القنصلية فى ٦٨ شارع روزيتّا. يعمل مستشار الدولة أ.ف. إيفانوف نائبًا للقنصل، بينما السكرتير هو سكرتير الهيئة أ.أ. بازيليفسكى، أما المترجم (الترجمان) فهو زكى فرعون.

يشغل منصب القنصل فى بورسعيد هنرى برونّ ومنصب نائب القنصل فى السويس نيكولاس كوستا، أمّا نائب القنصل فى دمياط، فاسمه سلامة رزوق. يقوم بأعمال نائب القنصل فى المنصورة أزى جريس، وفى الإسماعيلية – ي. ماتكوفيتش ويدير الوكالات القنصلية: فى الزقازيق – بازانيللا، وفى المنيا – بشرى حنا، وفى بنى سويف – عازر روفائيل. والوكلاء القنصليين: فى طنطا – إسكندر عوض الله، وفى أسيوط – إيليا بيشاى، وفى جرجا– سرجيوس بطرس، وفى قنا – بقطر بشارة، وفى إسنا – أ. اسطفانوس، وفى الأقصر– السعيد عيّاد، وفى سوهاج – جرجس بيه بطرس(١٦). فيما بعد توسعت شبكة ممثلى القنصليات الروسية الممثلة للقيصرية الروسية. شغل منصب الوكيل القنصلى لروسيا فى الفيوم جورج بيه لطف الله، شقيق ميشيل لطف الله، عضو الجمعية التشريعية فى مصر ونجل حبيب باشا لطف الله الذى حضر جنازة القنصل العام والوكيل الدبلوماسى أ.أ.سميرنوف فى فبراير عام١٩٢٤ .

وليس صعبًا علينا ملاحظة تغطية ممثلى الدبلوماسيين والقناصل الروس لمحافظات مصر وامتلاكهم معلومات مكثفة عنها، وقيامهم بمد ممثل وزارة خارجية الإمبراطورية الروسية بها، الذى تركزت كل السلطات الدبلوماسية والقنصلية فى يديه، بوصفه وكيلاً دبلوماسيًا وقنصلاً عامًا فى الوقت ذاته. للمقارنة نذكر أن فى الوقت الحاضر، توجد فقط قنصلية عامة فى الإسكندرية وقنصلية أخرى فى القاهرة. من الواضح أن هذا الهيكل لوزارة الخارجية الروسية، ما قبل الثورة، كان يسمح بجمع كم كبير من المعلومات ذات النوعية الجيدة، تلك المصادر الثمينة مازالت محفوظة كاملة وفى أفضل حال فى أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية حتى وقتنا الحالى.

لم يكن بالطبع هناك تمثيل قنصلى لمصر فى روسيا القيصرية، ولكن للمقارنة نذكر المصالح الدبلوماسية التركية فى إمبراطورية روسيا. فقد كانت سفارة (تركيا) الفتاة(*)، التى ترأسها طرخان باشا، فى سان بطرسبرج، فى ٨ كورنيش دفورتسوفايا. وأيضًا قنصليات فى مدن: سان بطرسبرج، موسكو، أوديسا، وارسو، خيرسون، نيكولايف، إيفباتوريا، فيودوسيا، سيفاستوبول، كيرتش، تاجانروج، روستوف على نهر الدون، تيبليسى، قارس، باطوم، بوث، نوفوروسييسك وحتى فى فلاديفوستوك(١٧).

ولعل أحد أهم المجموعات الوثائقية المتكاملة فى أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية التى تحتوى على وثائق عن مصر، تلك المجموعة الوثائقية المتكاملة المعنونة "سفارة القسطنطينية"، وبها المجموعة الفرعية ٩٠. وتتشابه بنية هذه المجموعة الفرعية مع محتويات المجموعة الفرعية رقم ٤٨٢ للمجموعة

(*) يقصد حكومة "الاتحاد والترقى" التى استولت على السلطة فى الدولة العثمانية فى يوليو ١٩٠٨ وعزلت السلطان عبد الحميد الثانى. (المراجع)

الوثائقية المتكاملة "الأرشيف السياسي"؛ ولكنها أكثر تنوعًا وتفصيلاً. تحتوى المجموعة الوثائقية المتكاملة "القنصلية فى القسطنطينية" على عدة آلاف من الملفات المتعلقة بالاقتصاد والتجارة والوضع السياسى فى مصر وغيرها من موضوعات. وتبدو المراسلات الدبلوماسية للسفارة الروسية فى القسطنطينية مثيرة للاهتمام، خاصةً عندما ترأسها "عظماء" الدبلوماسية الروسية كالسفراء: الكونت ن.ب. إيجناتييف (فترة ١٨٦٤-١٨٧٧)، الأمير أ.ب. لوبانوف- روستوفسكى (فترة ١٨٧٩-١٨٨١)، أ.ي. نيليدوف (فترة ١٨٨٢-١٨٩٧)، ي.أ. زينوفييف (فترة ١٨٩٨-١٩٠٨) وغيرهم.

وقد شغل كثير من هؤلاء منصب السفير لمدة ١٠-١٥ سنة فى الإمبراطورية العثمانية. لم يكن هؤلاء الخبراء البارزون، العاملون على تنفيذ السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية، فقط مؤدين رائعين لإرادة القيصر ولإدارة وزارة خارجية القيصرية، بل وكانوا يبدعون فى تطوير باهر لاتجاهات سياسة حكومة روسيا الخارجية فى العلاقة مع الإمبراطورية العثمانية وولاياتها، وفى ربطها مع استراتيجية الحكومة الروسية على الساحة الدولية. يستطيع أى باحث التأكد من ذلك عبر تقاريرهم شيقة المحتوى، وملخصاتهم التحليلية الموجهة إلى سان بطرسبرج، وتعليماتهم المرسلة إلى مصر للقناصل الروس. تُعد مفيدةً أيضًا المجموعة الوثائقية المتكاملة المعنونة "الوكالة الدبلوماسية وقنصلية روسيا العامة فى مصر"، والمحفوظة فى أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية.

المجموعة الوثائقية المتكاملة ٣١٧ "الوكالة الدبلوماسية وقنصلية روسيا العامة فى مصر"، هى واحدة من أضخم مجموعات الوثائق التاريخية وأكثرها إثارةً فى أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية، وبها وثائق تتعلق بالسياسة

والتاريخ والاقتصاد والفلسفة والثقافة والأيديولوجية وغيرها من مجالات الوجود المـــادى والـــروحى لمصر. تحتوى هذه المجموعة على ثلاث مجموعات فرعية: ١ و٢ و٣. وتحمل رقمًا مسلسلاً واحدًا (٨٢٠)، وتغطى الفترة من عام ١٧٨٣ حتى عام ١٩٢٠. ويجب أن نأخذ فى الاعتبار المجموعة الفرعية رقم (٣) المُكونة مؤخرًا التى تمتد فترتها حتى عام ١٩٢٩، ومن ثم تتضمن جزءًا كبيرًا يخص الفترة السوفيتية فى تاريخ روسيا الفيدرالية.

تقع الوثائق الأرشيفية الأساسية فى المجموعة الفرعية رقم ١. وتحتوى هذه المجموعة على تقارير سياسية وبلاغات موجهة إلى القسم الآسيوى ورئيسه الكونت لامزدورف (انظر ملفات ١٥١-١٥٤). ويعثر الباحث فى ملفات (٢٦٥-٢٨٣) على المراسلات مع سفارة الإمبراطورية فى القسطنطينية. كما تتضمن الملفات المراسلات مع قنصليات الإسكندرية وبورسعيد والسويس، ومع الممثلين القنصليين فى المحافظات الأخرى ومدن مصر الكبرى.

لقد عثرنا على معلومات شيقة ومفيدة جدًا عن بورسعيد فى عام ١٨٩٤، تحتوى على دلائل تفصيلية عن إضرابات لعمال الفحم وعمال الكرّاكات فى قناة السويس غير معروفة حتى الآن بين المؤرخين العماليين. لقد شارك العمال المصريون والأجانب فى إضرابات عام ١٨٩٤ على حد سواء(١٨).

تضم ملفات (٣٩٠-٣٩٥) مراسلات الوكالة الدبلوماسية والقنصلية العامة مع وزارة الخارجية المصرية. تجذب اهتمام الباحثين فى العلاقات الروسية- المصرية، وحركة الحج إلى الأماكن المقدسة فى شبه جزيرة سيناء؛ ملفات (٥٦٧- ٥٧٦) بالمجموعة الفرعية رقم ١ من هذه المجموعة الوثائقية المتكاملة. يرجع تاريخ الحج الرسمى للروس إلى سيناء إلى عام ١٨٦٩، عندما طلب رهبان دير

سانت كاترين من روسيا أخذه ليصبح تحت رعايتها. تلقى الأرخيماندريت كيريل في يوم ٥ فبراير عام ١٨٦٩، شهادة ممنوحة بذلك من القياصرة يوحنا وبطرس أليكسييفيتش والملكة صوفيا أليكسييفنا، وتم السماح للمبعوثين من سيناء بالمجيء إلى روسيا لجمع الصدقات مرة واحدة كل عامين، وكان هذا أكثر من قبل[١٩].

بمرور الوقت، أصبحت كنيسة سيناء تحصل على دخل من الأراضي المهداة لها من إقطاعيي مولدافيا ورومانيا، وكوّن ذلك الدخل ثلثي الميزانية السنوية[٢٠].. وقد لاحظ المبعوث الروسي أ.أ. سميرنوف بعد زيارته لدير سانت كاترين في عام ١٩١٠ أن: "سبب الصلة المادية الوطيدة مع وطننا؛ هو أن الحفاظ على العلاقة الجيدة مع روسيا مسألة ذات أهمية حياتية لكنيسة سيناء المستقلة". لقد زادت روسيا في عام ١٨٨٣ حصة المدفوعات للدير من دخل من أراضي "بسارابيا" المولدوفية إلى ٥١٣، ثم إلى ٥١٤.

بالإضافة إلى ذلك، سنجد في المجموعة الفرعية (١) من المجموعة الوثائقية المتكاملة (٣١٧)؛ معلومات عن ميناء الإسكندرية (أنظر، مثلاً، ملف ٥٤١، ١٨٦٧-١٨٧٩)، والسجن المصري (ملف ٦٥٣)، واللاجئين الروس في مصر (ملفات ٦٥٧-٦٥٩). ولعل آخر هؤلاء اللاجئين قد هرب من فلسطين إلى مصر في الفترة ما بين ١٩١٤ و١٩١٧. في هذه المجموعة الفرعية، كما في المجموعة الفرعية (٢)، نجد وثائق عن التجارة وقناة السويس والمالية والسكك الحديد وصندوق الدين المصري وعن الحج والزيارات المتكررة لمصر من سلالة رومانوف القيصرية، والمدرسة الروسية في مصر، وقضايا المحاكم المختلطة. كما أننا نجد عددًا غير ضئيل من الوثائق الخاصة بنشاط الثوار الروسي على أراضي مصر في الفترة ما بين عامي ١٩٠٢ و١٩١٧.

نجد هنا أيضا معلومات تفصيلية عن الوضع السياسى الداخلى فى مصر، وعن مصطفى كامل ومحمد فريد والزعماء المصريين الآخرين والأحزاب التى تزعموها. وهكذا نحسب أنه لم تكن فى مصر مشكلة، إلا ونجد ضوءًا ملقيًا عليها فى صفحات بلاغات وتقارير الدبلوماسيين الروس المقيمين فى مصر. تلك الوثائق محفوظة فى المجموعة الوثائقية المتكاملة "الوكالة الدبلوماسية وقنصلية روسيا العامة فى مصر".

وكما ذكرنا سابقًا، تكونت المجموعة الفرعية رقم (٣) مؤخرًا نسبيًا، فى ستينيات القرن العشرين. وأصل الحكاية أن وثائق تلك المجموعة قد وقعت بين أيدى الدبلوماسيين السوفييت فى القاهرة، وهى عبارة عن وثائق سفارة روسيا، التى ظلت تعمل بضعة أعوام بعد عام ١٩١٧، أمّا الرابطة الروسية فظلت حتى الثمانينيات. ولما لم يعترف "أ.أ.سميرنوف"، المبعوث الطارئ والوزير المفوض الروسى لدى مصر منذ عام ١٩٠٥، بالحكومة السوفيتية بعد قيام الثورة الاشتراكية. تمت إزاحته من كل مناصبه بمرسوم من وزير خارجية الثورة "تشيتشيرين" بتاريخ ٩ ديسمبر عام ١٩١٧. وتوفى أ.أ سميرنوف ودُفن فى القاهرة فى فبراير عام ١٩٢٤. وبالمناسبة تم رفع الستار عن تمثال سميرنوف المُرمم فى ٢٩ سبتمبر عام ٢٠٠٢ فى مدفن تابع لدير سان جورج فى القاهرة القديمة. بعد وفاته، ناب عنه بعض الوقت القنصل السابق فى يافا س.ب. رازوموفسكى، الذى تم دفنه أيضًا فى المدفن التابع لكنيسة سان جورج. بعد العثور على تلك الوثائق تم ترتيبها وإرسالها من القاهرة فى الستينيات، وهى حاليا محفوظة فى أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية.

هذه المجموعة الفرعية (٣) تحتوى على أكثر من ٣٠٠ ملف، تؤرخ للفترة ما بين أعوام ١٩١٦ و١٩٢٩. وتحتوى على معلومات شيقة عن الأعوام الأخيرة

للقنصلية الروسية، وعن حرمان الروس المؤيدين للقيصرية من حقوق الامتيازات الأجنبية فى أكتوبر١٩٢٣، وعن البعثة الروسية. وأيضًا وصية أ.أ سميرنوف الروحانية التى كتبها فى عام ١٩١٦، ومراسلات بعثته مع الوزارة الروسية المركزية المهاجرة فى منفاها فى باريس، ومراسلاته مع حكومات البلاد المختلفة والجمعيات الدولية وممثلى الحكومات الأجنبية فى القاهرة والسلطات الإنجليزية- المصرية. كما تحتوى هذه المجموعة الفرعية أيضًا على معلومات شيقة عن نفقات تلك البعثة الدبلوماسية، وعن أفراد الجالية الروسية والصعوبات النفسية والأخلاقية والمادية التى مروا بها. بالإضافة إلى ذلك يمكننا أن نجد هنا معلومات مفيدة عن أوضاع السياسية الداخلية فى مصر، والحرب العالمية الأولى، ونشاط الجمعيات الدولية المختلفة فى مصر. ونجد أيضًا فى المجموعة الفرعية (٣) معلومات عن الأسرى والمصابين من العسكريين الروس المنقولين إلى مصر من ميادين القتال فى الحرب العالمية الأولى، كما نعثر على معلومات عن اللاجئين الروس الذين أبعدتهم السلطات التركية إلى مصر من فلسطين مع بداية القتال هناك.

ظلت مصر لوقت غير طويل تعمل كمؤخرة للقوات البريطانية، تزودها بالموارد المادية والبشرية، على الرغم من أن القوى العاملة قد تم تفريغها من البلاد حتى نهاية الحرب (فيلق العمال وغيره). فى ١٨ ديسمبر عام ١٩١٤ يتم إعلان الحماية البريطانية على مصر وخروجها من ولايات الإمبراطورية العثمانية. مع بداية العام التالى يبدأ الجيش التركى فى القتال على الأراضى المصرية. ولكنه لم يتمكن من اجتياز قناة السويس بسبب تحصيناتها القوية، وفى نهاية المطاف تجرع كأس الهزيمة فى سيناء وتم إجباره على الانسحاب.

قبل نهاية الحرب فى مصر بدأ وصول الروس إليها، الذين حررتهم القوات البريطانية فى مسار هجومها على القوات التركية. تشير المصادر الأرشيفية إلى

أنه فى بداية ديسمبر عام ١٩١٨ وصلت أول مجموعة من ٦٤ شخصًا روسيًا إلى بورسعيد، وفى منتصف الشهر نفسه وصل ٥٨٦ شخصًا آخر. كان ضمن العسكريين الروس المحررين الكثير ممن تم أسرهم فى يونيو عام ١٩١٧ فى "غاليسيا". كان الأتراك قد نقلوا هؤلاء الأسرى من هناك إلى الشرق الأدنى لأداء الأعمال المعاونة فى مؤخرة الجيش التركى. تم وضع البريطانيين الأسرى الروس المحررين فى معسكرين، أحدهما فى التل الكبير فى الدلتا والآخر فى الإسماعيلية على ضفاف قناة السويس؛ حيث تم توفير كل الظروف اللازمة لإعادة تأهيلهم من مستشفيات وغذاء جيد ومستوى نظافة مرتفع نسبيًا.. إلخ. فى ربيع عام ١٩١٩ ارتفع عدد أسرى الحلفاء السابقين فى التل الكبير إلى ١١٥٠ فردًا. لم يتم شفاء الجميع، وظهرت القبور الأولى للعسكريين الروس فى المدافن البريطانية فى التل الكبير والقنطرة[٢١].. تعجلت السلطات الاستعمارية البريطانية رجوع الأسرى المعالجين إلى بلادهم، كان وراء ذلك نقص الوسائل والإمكانات الضرورية لدى السلطات القنصلية الروسية. رحل بضعة أفراد فقط على حسابهم إلى فلاديفوستوك. ونتيجة لمراسلات السلطات السوفيتية الممتدة مع الإدارة البريطانية الاستعمارية، وبمساعدة مجلس المفوضين الشعبيين (مجلس الوزراء السوفيتى)، أصبح من الممكن ترحيل عدد كبير من الأسرى العسكريين الروس فى نهاية عام ١٩٢٠ إلى أوديسًا. وفى الفترة ما بين ١٣ أكتوبر عام ١٩١٤ حتى ترحيل الأسرى، كانت اللجنة الروسية لدعم ضحايا الحرب فى الإسكندرية التى ترأسها بنفسه أ.م. بيتروف القنصل الروسى فى العاصمة الشمالية؛ هى المسئولة عن الترتيبات الخاصة بالأسرى[٢٢].

تسبب اليهود المقيمون فى فلسطين، الحاصلون على جوازات سفر روسية، فى صداع قوى للقناصل الروس. كان هؤلاء قد أجبرهم الأتراك بعد الاستيلاء على الأماكن المقدسة على الخيار ما بين أخذ الجنسية التركية ومغادرة البلاد. وفى نهاية

عام ١٩١٤ – بداية عام ١٩١٥، هرب إلى وادى النيل من فلسطين عدد يصل إلى ٤٠٠٠ شخص، كانت من ضمنهم البعثة الدينية مع الحجاج المتخلفين فى فلسطين وعلى رأسهم الأرخيماندريت "ليونيد". وضعت السلطات المصرية اللاجئين فى البداية فى خيم وثكنات بصفة مؤقتة. بعد ذلك خففت عنهم ظروف الحياة "لجنة مساعدة اللاجئين الروس"، التى أنشئت بمبادرة القنصل أليكسندر ميخايلوفيتش فى الإسكندرية حيث قامت اللجنة بتأجير منازل منفردة لهم وتخصيص مبلغ ١٥ فرنكًا للغذاء شهريًا. أسهم فى هذا المبلغ أثرياء روس يهود من الإسكندرية، اشتركوا فى هذه اللجنة، لكن الجزء الأكبر قدمته حكومة روسيا. وقد ترأس اللجنة فى فترة ما ج.ج. مالك، ولكن بسبب تبذيره وسلوكه غير المتواضع قام بفصله من هذا المنصب المبعوث الطارئ ووزير روسيا المفوض فى مصر أ.أ.سميرنوف. ولم تبق السلطات البريطانية موقفًا سلبيًا، بل قدمت فرص عمل للاجئين[٢٢].. نستطيع أن نجد فى المجموعة الفرعية ٣١٨٢٠ قوائم ضخمة من اللاجئين اليهود، مذكور فيها وظائفهم وحرفهم وأيضًا عناوين إقاماتهم فى مصر. بمرور الوقت عاد جزء منهم إلى فلسطين كما فعلت أيضًا البعثة الدينية، وظل جزء منهم فى وادى النيل، بينما سافر آخرون إلى الغرب وأستراليا.

تضم المجموعات الوثائقية المتكاملة لأرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية؛ وثائق عن المهاجرين الروس البيض، وتحتوى على مواد فريدة مليئة بالتراجيديا والدراما الإنسانية حيث تتحدث عن حرمانهم من حقوق الاستسلام، مما وضعهم على حافة الموت. حدث هذا فى ٦ أكتوبر عام ١٩٢٣، حينما رفضت الحكومة المصرية الاعتراف بمؤسسات روسيا الدبلوماسية والقنصلية، كما رفضت دفع إعانات مالية فى شكل قروض للصرف عليهم. والحقيقة أن السلطة الاستعمارية البريطانية ومن بعدها الحكومة المصرية، قامتا بدءًا من عام ١٩٢١ بتمويل المؤسسات الروسية الدبلوماسية فى مصر بمبلغ ٤٠٠

جنيه مصرى. لكن هذا المبلغ لم يكف للقيام بوظائف تلك المصالح التى تمكنت من خلال الرسوم القنصلية تحصيل بضعة عشرات من الجنيهات المصرية. فى الوقت ذاته بلغت مصاريفها على سبيل المثال فى مايو عام ١٩٢٣؛ ٥٦٧٣ جنيهًا مصريًا، أمّا فى يونيو من العام نفسه انخفضت إلى ٣٤٦٣ جنيهًا مصريًا[٢٤].

لم يخف المندوب السامى البريطانى فى مصر "سكوت" الأسباب الحقيقية وراء إلغاء وضع المؤسسات الروسية الدبلوماسية والقنصلية فى مصر، وصرح بغير مواربة: "شئنا أم أبينا، نحن مضطرون إلى أن نعترف بحقيقة وجود سلطة البولشفيك على مدار ستة أعوام، ومن الناحية الأخرى لم تبد العناصر المعادية للبولشفيك أى مقاومة كافية، ولذلك لا بد من حسبان أنيم قطعة ميتة من الماضى"[٢٥].. وبالفعل بعد أربعة أشهر وفى فبراير عام ١٩٢٤، وافقت بريطانيا على إقامة علاقات دبلوماسية مع روسيا السوفيتية.

قابل قرار الإدارة الإنجليزية فى مصر بإلغاء الامتيازات الأجنبية لهم، استياءً حادًا وسلبيًا من المهاجرين الروس. لقد فقدوا، فى الحال، حقوقهم كرعايا أجانب لا يخضعون للدولة المصرية، وأصبحوا فى حالة التقاضى تحت سلطة المحاكم المصرية بدلاً من المحاكم القنصلية(*)، وصاروا تحت سيطرة شيوخ

(*) كان الأجانب فى مصر يتمتعون بـــ "الامتيازات" التى بدأت عام ١٥٣٥ بالاتفاقية بين الدولة العثمانية وفرنسا وتلتها الدول الأوروبية تباعًا. وبمقتضى هذه الامتيازات كان هناك خلاف بين أجنبى ومصرى ينظر أمام القنصلية التابع ليا الأجنبى وليس أمام المحكمة الشرعية فى مصر. وفى عام ١٨٧٥ تقرر إنشاء المحاكم المختلطة Mixed Courts لتفصل فى مثل تلك الخلافات والمنازعات بين الأجانب والمصريين حيث تتكون المحكمة من قضاة أجانب ومصريين وبدأ العمل بها فى ١٨٧٦. وظلت الامتيازات الأجنبية قائمة تحمى مصالح الأجانب حتى تقرر إلغاؤها فى عام ١٩٣٧ باتفاقية فى مونتريه بعد فترة انتقالية مدتها اثنى عشر عامًا انتهت فى ١٩٤٩ حيث تم إلغاء المحاكم المختلطة فى العام نفسه. (المراجع)

المنطقة المحليين وعمد الأرياف، إذا سكنوا فى القرى. تم عقد اجتماع موسع لجمعية "المواطن الروسي" فى القاهرة، في٤ نوفمبر عام ١٩٢٣. أقر رئيس مجلس الإدارة ك. فاجنر أمام ٢٠٠ فرد حاضر للاجتماع: "إن أى جاويش له الحق بدخول شققنا السكنية وإرهابنا مثلنا مثل الفلاحين المصريين، إننا نصبح، بجهلنا باللغة العربية، عاجزين عندما يقتادونا إلى القره قول (أقسام الشرطة). إذا ضفنا إلى ذلك الدور المعروف للبقشيش و"فوت علينا بكرة"، سنفهم بوضوح كل مفاتن النظام الذى ينتظرنا!"(٢٦).

ومن سخرية القدر أن أول جالية كبيرة عانت من إلغاء الامتيازات الأجنبية كانت الجالية الروسية، على الرغم من أن زعماءها أيدوا بقوة المواقف السياسية ضد البريطانيين من أجل استقلال مصر وحكومتها. كان فى مصر سبع عشرة جالية أجنبية كبيرة، تتمتع بالامتيازات التى طالبت بإلغائها الحركة الوطنية المصرية المتصاعدة بزعامة الوفد.

لأجل تغيير الأوضاع المتردية للجالية الروسية، لجأ الممثل الدبلوماسى الروسى إلى الإدارة الاستعمارية البريطانية، وحكومة الوفد، وسفراء الدول الأخرى، وسلطات الهجرة المركزية فى باريس، والمنظمات الدولية، وحكومة الولايات المتحدة الأمريكية. لكن جهوده ضاعت سدى. فى إطار ذلك الوضع، تقدم الوزير المفوض الروسى باقتراح مضمونه، أن يتم إنشاء قسم تابع للحكومة المصرية يقوم بتسيير الأمور الروسية، ويتم إشراك القناصل الروس فى تحقيق تلك الفكرة(٢٧).. احتاج الأمر إلى ثلاث سنوات من الزيارات والإلحاح والمباحثات المهينة لإخراج ذلك الاقتراح إلى الوجود. وفى تلك الفترة غادر الكثيرون من الروس مصر.

في ١١ مايو أعلنت الحكومة المصرية عن إنشاء "المكتب الروسي" في وزارة الداخلية، وتعيين رؤساء له من القناصل الروس السابقين: س.ب.رازوموفسكي في القاهرة (تم تغييره فيما بعد ب ن.إ.فينوجرادوف)، أ.م.بيتروف في الإسكندرية، أ.ي. نيسين في بورسعيد. ومن المثير أن "المكتب الروسي" قد أخذ مكان القنصليات السابقة، فأولاً: عملت إدارات المكتب من نفس مكاتب القنصليات السابقة، وثانيًا: إنه إلى حد كبير قام بالوظائف القديمة لها من تسجيل المهاجرين الروس وإعطاء بطاقات الهوية وتصاريح الإقامة وغيرها من المسئوليات الصغيرة.

يجب أن نشير إلى أن تلك المساعدة المهنية العالية اليومية، التي قدمتها فرقة متحابة من القناصل، قد استطاعت تسهيل الحياة للمهاجرين من الروس البيض الذين ظلوا في وادي النيل. فقد استطاع هؤلاء القناصل، بوجودهم على رأس "المكتب الروسي"، أن يستخدموا صلاتهم القديمة وأن يخففوا من مصاعب الحياة على مواطنيهم. ومن المحتمل أن يكون ذلك الوضع قد أثر في السلطات البريطانية- المصرية، فقامت بدورها بتسهيل ظروف الإقامة للروس في ذلك الوضع الجديد. من ذلك أنه في حالة مخالفة التسجيل السنوي في "المكتب الروسي" كانت الغرامة لا تتعدى جنيهًا مصريًا واحدًا. وربما ذلك ما دعا س.ب. رازوموفسكي لأن يرسل خطابًا إلى إ.ب. أوموف (أحد العاملين السابقين بالقنصلية الروسية في الإسكندرية) في عام ١٩٢٧، يقول فيه: "أعرف كثيرًا من الروس الذين لا يسجلون أنفسهم في المكتب إلا للضرورة، عندما يحتاجون إلى إنهاء بعض المعاملات الرسمية المختلفة كالسفر خارج البلاد، واستلام جوازات سفر والزواج"[٢٨]. تتيح لنا وثائق تلك المجموعة الفرعية التابعة للمجموعة المتكاملة ٣١٧ أن نتتبع التغييرات التي طرأت على رئاسة "المكتب الروسي" في مصر. بعد وفاة ن.إ. فينوجرادوف في عام ١٩٣٥ ودفنه في مقبرة كنيسة القديس جيورجي في

القاهرة القديمة، تولى المسئولية "بولكوفنيك"[*] ميخائيل فلاديميروفيتش سكارياتين، وبعد سفر الأخير إلى أوروبا فى الأربعينيات حل محله بلانتيمون فيكتوروفيتش أنطاكى. لقد ظل "المكتب الروسى" يعمل حتى عام ١٩٦٣.

لقد احتفظ س.ب.رازوموفسكى بوظيفة مسئول الأرشيف الدبلوماسى الروسى، ولقد ضاعفه أثناء فترة رئاسته للمكتب الروسى، وترك وراءه العديد من الوثائق الشيقة، ومنها إجابات عن نحو ٢٠ سؤالاً وجهها مكتب الاستعلامات الأمريكى عن المهاجرين الروس فى مصر. ذلك الخطاب مؤرخ فى أكتوبر عام ١٩٢٩[٢٩]، كما يلى:

"أوضاع الروس فى مصر. عام ١٩٢٩" القاهرة، أول أكتوبر ١٩٢٩. السيد رازوموفسكى. مدرسة آبيت. شارع فؤاد الأول.

السيد مدير مكتب الاستعلامات القومى الأمريكى فى نيويورك.

أتشرف بأن أضع تلك الأجوبة، بما يتعلق بها من ملحقات أمامكم. سأكون سعيدًا من قلبى إذا أسهمت تلك المعلومات فى تقديم المساعدة لأبناء وطنى.

لا توجد فى مصر منظمة مركزية واحدة تعنى بشئون اللاجئين، كما سترون من أجوبتى. وتوجد بعض المنظمات المنفصلة التى لا تعتمد على بعضها بعض، والتى تعمل حسب توجهاتها المنفردة، وقد تتقاطع نشاطات بعضها مع بعض. وكل منظمة تحسب نفسها الأهم. وحتى أضعكم فى صورة الأوضاع، قررت أن أرسل هذه الاستمارة كى يملأها السيد بيتروف رئيس جمعية "القرض الزهيد" فى الإسكندرية، وقد طلبت منه أن يعطى أجوبة مباشرة لسيادتكم.

(*) "بولكوفنيك"- رتبة عسكرية روسية تعادل عقيد. (المترجم)

الممثل السابق للوكالة الدبلوماسية الروسية، وحاليًا مسئول الأرشيفات الدبلوماسية الروسية فى مصر س.ب. رازوموفسكى.

ملحق:

١- عدد اللاجئين الروس وتوزيعهم على المراكز.

لا أستطيع إعطاء أرقام محددة؛ لأن هناك تأرجحًا مستمرًا فى أعدادهم. هم نحو ٥٠٠-٦٠٠ شخص، مراكز تورُعهم: القاهرة وضواحيها، الإسكندرية وضواحيها، بورسعيد، ومنطقة قناة السويس.

٢- ما الحاجات الرئيسية للاجئين؟

أ- نتيجة لعدم وجود مؤسسة موحدة ترعى اللاجئين، وعمل تلك المنظمات فى اتجاهات مختلفة، لا يوجد مكان معين يستطيع اللاجئ التوجه له للبحث عن راتب شهرى.

ب- أخذ اثنان من الأمريكيين على عاتقيهما مسئولية المساعدة الخيرية فى تعليم الأطفال: هما السيد كرين من شيكاغو والسيد وايتمور ولا أعرف من أى مدينة هو. لا توجد أى منظمة محلية تقوم بممارسة دور فى هذا المضمار. هناك طلاب من المدارس الروسية، لم يكملوا تعليمهم بسبب نقص المال وبسبب عدم قدرتهم على الحصول على مساعدة لإكمال تعليمهم.

ج- رعاية المرضى. لا توجد أموال للإنفاق على المرضى الذين يحتاجون تغيير المناخ ولو لمدة شهرين أو ثلاثة، ولا توجد أموال للحصول على حق العلاج بالمستشفيات للمصابين بأمراض حادة (التيفود وأمراض الحميات المحلية). ولدينا حالات تعانى من المضاعفات المزمنة لإصابات الحرب والجوع لمدة سنوات.

د- الحماية القضائية- تم حرمان الروس من حقوق الامتيازات الأجنبية، ولذلك:

١- موضوع "الوضع الخاص" معلق فى الهواء. لا توجد مؤسسة معينة، يتم اللجوء إليها حين تظهر صعوبات خاصة بالإرث أو حقوق الأسرة.

٢- الروس دون الأجانب المحليين جميعًا، يتم عقابهم فى السجون المحلية وليس فى السجون الأوروبية. ونحتاج هنا إلى حماية قانونية.

احتياجات أخرى:

من الضرورى اتحاد المنظمات المختلفة تحت مؤسسة واحدة. لا يوجد سكن جماعى، يمكن اقتصار الإسكان فيه على المرضى الخارجين من المستشفيات، والذين ليس لهم مورد رزق، والمحتاجين بشدة إلى مساعدة، والمضطرين إلى القدوم إلى مصر للحاجة الملحة.

٣- المنظمات المهتمة باللاجئين الروس:

أ- ثلاثة مكاتب خاصة بتسجيل المواطنين الروس، وهى إدارات حكومية مصرية تم افتتاحها فى عام ١٩٢٧. وتتبع قسم الأمن الاجتماعى بوزارة الداخلية.

مهام المكاتب الروسية: إعطاء تصاريح الإقامة داخل مصر، وأيضًا يدخل ضمن اختصاصاتها جزء من المسئوليات القانونية. ولكن ليس لدى تلك المكاتب الحق فى الاقتراب من "الوضع الخاص" والحماية القانونية للروس. يدير تلك المكاتب مواطنون روس، يعملون فى الإدارة المصرية. وتلك المكاتب الثلاثة فى القاهرة والإسكندرية وبورسعيد؛ كانت، ومازالت ذات فائدة غير مشكوك فيها لكل الروس، حيث إنها فى خدمة كل الروس، وليس فقط اللاجئين منهم.

ب. النادى الروسى بالقاهرة، ***cercle Russe***، ٩ شارع قنطرة الدكة. رئيسه- المحامى ك.أو.تيخيى. وهذا النادى موجود حتى قبل ظهور اللاجئين، يعطى قاعته بلا مقابل لإقامة الحفلات والمسرحيات الخيرية. وبه مكتبة للكتب الروسية والفرنسية وقاعة للمطالعة، باشتراك زهيد للمشتركين. ويقدم، كلما أمكن، وجبات غذاء رخيصة، ويقدم فى الحالات الطارئة أماكن للاجتماع بلا مقابل.

ج- ثلاث جمعيات روسية خيرية "***societe Russe de Bienfaisance***" بالقاهرة. تعمل منذ عام ١٩٢٧، وتتكون عضويتها أساسًا من اللاجئين الذين استخدموا جمعية النادى الروسى الموجود قبل وصولهم إلى مصر. لا يوجد عنوان محدد لتلك الجمعية حيث تتلقى الخطابات البريدية على عنوان عمل أمين صندوق الجمعية:

Cairo, Polyclinique Russe, rue Bedak, pour la societe de bienfaisance. Societe Russe de Bienfaisance, Alxandrie, 15 Boulevar de remleh.

Societe Russe de Bienfaisance. Portsaid, Mr.Staristky, Companie du Canal de Suez

وليس لدى جميع تلك الجمعيات الثلاث عدد كبير من الأعضاء لأسباب مختلفة. وهى تعطى منحًا مالية صغيرة لعلاج المرضى ولمساعدة المعاقين والعجائز على نفقات الحياة. وتحصل على مواردها المالية أساسًا من إقامة الحفلات والمسرحيات.

د- العيادة الطبية الروسية: تم تأسيسها قبل ثمانية أعوام بواسطة جمعية الأطباء- اللاجئين الروس بقرض من الوكالة الدبلوماسية الروسية وتقدم فى الوقت الحالى مساعدة طبية مجانية للفقراء فقط.

العنوان: القاهرة. العيادة الروسية شارع بيدق خلف الأوبرا،

Cairo, Polyclinique Russe, rue Bedak derriere de l'Opera

هـ - جمعية القرض الزهيد للاجئين الروس بالإسكندرية. وتعطى قروضًا. تأسست وأنشئت بفضل مساعدة أحد المواطنين الروس السابقين، ورئيسها: أ.م. بيتروف، وعنوان المراسلة: الإسكندرية ١٥طريق الرمل.

Alexandrie,Egypte, Mr. A.M. Petroff, 15, Bld. de ramleh

جمعية القرض الزهيد مؤسسة مفيدة للغاية، ولكن ليست لديها مبالغ مالية كافية، ولذلك يضطر المحتاجون إلى الوقوف فى صف الانتظار. وتقوم أساسًا تلك الجمعية بتقديم خدماتها للإسكندرية. ومن المأمول أن تمتد نشاطاتها وتنتشر فى دوائر أوسع، وفى القاهرة وبورسعيد.

٤- هل توجد قيود على البحث عن عمل؟

لا توجد قيود مباشرة. ولكن يوجد ميل عام لاتهام الجميع بلا استثناء، والحقيقة أن المذنبين فقط جزء وليس الكل، ذلك أن فرصة الحصول على عمل للروس مقيدة بطلب وساطات استثنائية وأحيانًا رشاوى ، وذلك لا يمكن تحقيقه فى الغالب. إن الجاليات الأخرى هنا غنية، بينما الجالية الروسية فقيرة، ومن ثم ظروفها هنا صعبة.

٥- ما الأعمال التى غالبًا ما يمارسها الروس هنا؟

قيادة السيارات، وبالأخص نقل البضائع بسيارات النقل الثقيل. ولعل أكثر المؤسسات جدية فى ذلك المجال شركة السيدين "توتورين" و"بوكوليفسكى" وعنوانها القاهرة- هليوبوليس. هناك سائقون يملكون سيارات تاكسى، ويعملون عليها، وهناك سائقون يعملون لدى الغير، وهناك موظفون يعملون لدى أشخاص آخرين.

هناك شريحة صغيرة نسبيًا من اللاجئين يعملون موظفين فى المحاكم المختلطة المصرية والبنوك والمنشآت التجارية وشركة قناة السويس وشركة إمداد مياه الشرب، ومفتشين بل ومحصلى تذاكر فى الترام. وبعض يعطى دروسًا فى المدارس، وأغلبهم يدرسون اللغات فى المدارس الخاصة، وأيضًا الرياضيات والموسيقى. وهناك عدد قليل منهم يعملون فى المصالح الحكومية.

من بين مواد أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية التى ستجذب اهتمام الباحثين فى المواضيع المصرية والعلاقات الروسية- المصرية؛ المجموعة الوثائقية المتكاملة ٨٩ المعنونة "علاقات روسيا مع تركيا"، المجموعة الفرعية ٨/٨٩ التى تضم عدة مئات من الملفات. وبين تلك الملفات توجد عشرات الملفات المتعلقة مباشرة بروسيا ومصر. وعلى سبيل المثال ملف ٩٦٤ المعنون " تعليمات موجهة إلى القنصل العام بالإسكندرية بمناسبة تعيينه فى منصبه ومرفق بها أوراق اعتماده" بتاريخ عام ١٧٨٤. وثائق ذلك الملف مكتوبة باللغات الروسية والإيطالية واليونانية والتركية. وعلى الرغم من الحجم الصغير للملف، إجمالى ٢٠ صفحة، فإنه ثمين للغاية. والملف ٩٦٨ ليس أقل من الملف السابق إثارةً، وهو باللغة الفرنسية ومؤرخ فى ٢٤ يوليو ١٧٨٥، ومعنون "رسائل عاجلة من القنصل العام فى الإسكندرية إلى نائب المستشار الأمير أوسترمان بخصوص وصوله إلى الإسكندرية وحفل اعتماده فى منصب القنصل ورفع العلم الروسى، واستقبال الباشا له، وزيارة القناصل الأجانب له". يعبر العنوان عن محتوى الملف ولا يحتاج إلى تعليق. من الضرورى هنا أن يعرف الباحثون أن اللغة الروسية المستخدمة فى المراسلات فى ملفات المجموعة الوثائقية المتكاملة "علاقات روسيا مع تركيا"، قد أصبحت مهجورة ولم تعد تستخدم، وأن قراءة النصوص تمثل صعوبة واضحة للباحثين.

وهناك أيضًا عدة مجموعات وثائقية متكاملة بأرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية تحتوى على معلومات عن مصر. من بين تلك المجموعات؛ المجموعة المتكاملة التركية (القديمة) ١٤٩ والمجموعة التركية (الجديدة). ولا شك أن أكثر تلك المجموعات غنى هى مجموعة "المكتب التركى" (القديمة). تحتوى المجموعة الفرعية ٥٠٢أ على أكثر من ٦٠٠٠ ملف، من ربعها إلى ثلثها تتحدث عن مصر. تغطى تلك المجموعة الفرعية الفترة ما بين عامى ١٨١٨ و١٩١٤. والملفات ٤٥٣-٥٢٠ تتعلق بالمراسلات بين قنصلية الإسكندرية والسفارة الروسية فى القسطنطينية ووزارة الخارجية فى سان بطرسبرج، وتتناول مواضيع مختلفة للغاية خاصة المواضيع السياسية. وعلى سبيل المثال، الملف ٤٦٥ عن تاريخ ١٨٩٢ والمعنون "مهمة عمل المستشار الحكومى تشاريكوف لإدارة الوكالة الدبلوماسية والقنصلية العامة فى مصر".

تحفل تلك المجموعة المتكاملة بملفات مثيرة عن التغييرات فى أوضاع القنصليات الروسية فى الشرق ومن ضمنها قنصليات مصر، وفق المهام والأهداف الجديدة للدبلوماسية الروسية فى المنطقة الأفرو- آسيوية. فى هذا الموضوع سنجد ملف ٨٥٩ (١٨٥٧- ١٨٦٨) المعنون "أعمال القنصلية فى الشرق.. اللائحة القنصلية"، والملف ٨٦٠ (١٨٦٣- ١٨٦٤) المعنون "بخصوص اللائحة القنصلية فى الشرق"، وأيضًا الملف ٤٥٦٣ (١٩١٤) المعنون "عن تأسيس بعض المؤسسات القنصلية فى الشرق الأدنى (١٩١٤)".

ويحتوى الملفان ٨٦٧ و٩٤٢ على معلومات عن ذوى الجنسية الروسية فى مصر.

ولا شك أن الملفات المتعلقة بالعلاقات التجارية بين روسيا ومصر مصدر اهتمام كبير للباحثين. تلك الملفات، لها أرقام متسلسلة من ٢٠١٦- ٢١٥٥، ومن

ضمنها الملف ٢٠٣٩ (عام ١٨٩١) المعنون "موضوع توقيع روسيا على اتفاق تجارى مع مصر"، والملف٢١٢٦ (عام ١٨٨٤) المعنون "نقل النفط القوقازى إلى مصر"، وملف ٢١٤٩(عام ١٨٦٣) المعنون "الجياد، ونقلها من روسيا إلى مصر"، والملفان٢١٥٤ و٢١٥٥ (عامى ١٨٦٦ و١٨٤٢) اللذان يحفلان بمعلومات عكسية عن شراء الجياد المصرية بواسطة مربّى الجياد الروس.

من وجهة نظرنا، نعتبر الملفين ٢١٨٩ و٢١٩٠، اللذين يغطيان عامى ١٨٥٦ و١٨٦٧، مهمين للباحثين حيث يدور الحديث فيهما عن تملك شركة الملاحة البخارية والتجارة الروسية قطع أراضٍ لوكالتها ولاستقبال بواخرها فى الإسكندرية، وأيضًا عن تعيين وكلاء للشركة فى الموانئ الشرقية وتعيين قباطن السفن فى الخطوط الملاحية بين تلك الموانئ وأوديسا. نشير إلى أن تلك الشركة تأسست فى عام ١٨٥٦، واستطاعت أن تحقق قفزة فى التجارة الروسية مع الشرق.

وتغطى الملفات ٣٨٠٥- ٣٨٤٢ الفترة ما بين عامى ١٨٥٠ و١٨٩٥، وتتنـــاول بطريركية الإسكندريـــة، وتحتوى ملفات ٣٩٠٤ (عام ١٨٧٦)، ٣٩٣٢ (عام١٨٨٤)، ٣٩٣٦ (عام١٨٩١) على معلومات عن المقيمين فى سيناء فى دير سانت كاترين.

تحتوى المجموعة الوثائقية المتكاملة على مواد كثيرة عن أسرى الحرب الروس، وأيضًا المجندين فى الجيش العثمانى(٣٠).

تضم المجموعة المتكاملة للوثائق التركية (القديمة) عددًا كبيرًا من الملفات الخاصة بالعلاقات الثقافية. وفيها يدور الحديث عن رحلات المهمات العلمية للعلماء الروس فى مصر، والاشتراك فى المؤتمرات الدولية التى جرت فى ذلك البلد، ووثائق عن إهداء السلطات المحلية التحف المصرية القديمة إلى الإمبراطورية

الروسية[٣١]...إلخ. كما تحتوى هذه المجموعة الوثائقية المتكاملة "المكتب التركى" (القديمة) أيضًا على كثير من المعلومات المتعلقة بالأحداث الثقافية التى وقعت فى مصر، والتى لها علاقة مباشرة بروسيا. لقد ضمنت تلك المواد فى كتابى "مصر وروسيا" الذى صدر عن الهيئة العامة للكتاب فى مصر فى عام ٢٠٠٢.

بهذا الصدد تعد المجموعة الوثائقية المتكاملة "الأرشيف الرئيسى لسان بطرسبرج" (١٦١) مهمة للغاية. يجب ألا تخدع كلمة "سان بطرسبرج" القارئ، لأن الحديث يدور هنا عن جزء من أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية محفوظ فى مدينة موسكو. فى المجموعة الفرعية ١٢ نجد تقارير سياسية خاصة بمصر، وفى المجموعة الفرعية ٢٨ سنعثر على نسخ مطبوعة من المعاهدات والاتفاقيات، وفى المجموعة الفرعية ٣٤ سنجد وثائق عن العلاقات التجارية بين روسيا ومصر، وفى المجموعة نفسها وثائق عن شركة البواخر الروسية، وفى المجموعتين الفرعيتين ٤٩، ٥٠ سنجد وثائق عن المهمات العلمية... إلخ.

وفى المجموعتين الأخيرتين سيجد القارئ ملفات ثمينة عن المهمة العلمية التى قام بها عالم الحيوان تسينكوفسكى فى مصر، وعن البعثة العلمية الطبية للطبيبين "كاربوتشكى" و"رافالوفيتش" من أجل دراسة الطاعون. لقد قام "كاربوتشكى" بتنفيذ مهمته الخطرة المتمثلة فى دراسة أمرض الطاعون فى وادى النيل حتى النهاية، فقضى نحبه فى مصر جراء هذا المرض الرهيب.

وأخيرًا سنجد فى تلك المجموعة الوثائقية المتكاملة، وتحديدًا فى المجموعتين الفرعيتين ١٠- ١١، ملف ٤٨ عن أعوام ١٨٣٨- ١٨٤٨ (أكثر من ثلاثين ورقة) وثائق عن تعاون الحكومتين الروسية والمصرية فى مجال استخراج الذهب من الرمال المحتوية على ذرات الذهب. وتتحدث تلك الوثيقة عن المراسلات بين محمد

على حاكم مصر فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ومساعد المستشار الأمير ك.ف.نيسللرود حول رحلة لاثنين من المهندسين المصريين إلى ما وراء جبال الأورال، وهما على محمد وإيليا دهشورى، ورحلة معلمهما إ.ب.كافاليفسكى إلى مصر والسودان وإثيوبيا من أجل الهدف نفسه؛ وهو إقامة معمل لاستخراج الذهب. ذلك الموضوع تطرقنا إليه فى كتاب "مصر والروس" المطبوع باللغة العربية ، كما أننا نشرنا بحثًا منفصلاً خاصًا به[٣٢].

نستطيع العثور على مواد خاصة بمختلف مجالات التطور الاقتصادى والسياسى والروحى فى مصر فى المجموعات الوثائقية لأرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية: "بعثة إلى طهران"، "المكتب الفارسى"، "مكتبة القسم الآسيوى"(المجموعة الوثائقية المتكاملة ١٥٢) وغيرها. ومن المجموعات الوثائقية التى ذكرناها سابقًا، يقتنع القارئ بمدى تنوع وضخامة الوثائق والمواد الفعلية التى يحتويها أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. ومن الضرورى أن نشير هنا إلى وجود دليل تفصيلى لذلك الأرشيف كى يستخدمه الباحث للاستفادة الداخلية منه.

الهوامش

(١) وثائق صندوق الأرشيف الحكومي للاتحاد السوفيتي في مكتبات، متاحف والأرشيفات العلمية الفرعية. موسكو، ١٩٩١، صفحات ٥١٩-٥٢٢.

(٢) المستشار الحقيقي ب.ف. ماكسيموف – القنصل العام والوكيل الدبلوماسي في مصرف أعوام ١٩٠٢-١٩٠٥.

(٣) كونت لامزدورف ف.ن. – وزير خارجية روسيا الملكية أعوام ١٩٠٠-١٩٠٦.

(٤) مستشار الهيئات إيفان أليكساندوفيتش ليكس، عمل في القاهرة قنصلاً عامًا ووكيلاً دبلوماسيًا في أعوام ١٨٦٢-١٨٨٢ وفي أعوام ١٨٨٢-١٨٩٥.

(٥) جيرس ن.ك. – وزير خارجية روسيا.

(٦) المجموعة الوثائقية المتكاملة "الأرشيف السياسي". المجموعة الفرعية ٤٨٢، ملف ٨٢٠، أعوام ١٨٧٦-١٨٨٢، أوراق ٢٣٠-٢٤٧ على ظهر الورقة.

(٧) د. جينادي جورياتشكين. روسيا ومصر في ضوء الأرشيفات الروسية. القاهرة، الهيئة المصرية للكتاب، ٢٠٠٢، ص ١٣٤- ١٤٠. "بالعربية"

(٨) *La Réorme. Alexandrie. 29.10.1902.*

(٩) المقصود هنا إضرابات بحّارة الأسطول التجاري في عام ١٩٠٦ في أوديسا- ملاحظة للمؤلف.

(١٠) جماعة "المئات السود"، هي منظمة اجتماعية رجعية ظهرت في أول القرن العشرين في روسيا، تدافع عن القيصرية. انخرطت في الصراع ضد الثورة تحت شعارات شوفينية قومية ومسيحية، وارتكبت أعمالاً إرهابية ومجازر ضد اليهود في روسيا- المترجم.

(١١) *Le Phare d'Alexandrie 26.07;29-30.07;1,7,14,15,21,30.08; .10.10.1906*

(١٢) *Le Phare d'Alexandrie16.01;29-30.08.1907* ، انظر أيضا جينادى جورياتشكين. مصر والصورة الروسية\\ المجلة السوفيتية. ١٩٨٧، عدد١ (باللغة العربية)

(١٣) أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية، المجموعة الوثائقية المتكاملة ١٤٩، المجموعة الفرعية ٥٠٢ ب، ملف ٥٣٤١، ورقة ١٣٨.

(١٤) ف.ف. بيليكوف "على شواطئ النيل المقدس... موسكو، ٢٠٠٣، صفحة ١٠٧.

(١٥) شغل هذا المنصب المستشار السرى والفعلى ي. كوياندر فى أعوام ١٨٨٧-١٩٠٢.

(١٦) ***Indicateur egyptien, administrative et commercial pour l'année 1902. Alexandrie, 1901; Annuaire diplomatique de l'Empire de Russie pour l'année 1901. Saint-Petrsbourg.***

(١٧) ***Annuaire diplomatique de l'Empire de Russie pour l'année 1911.***

(١٨) المجموعة الفرعية ٨٢٠ /١ ، ملفات ٣٢٣ و٣٢٤ و٣٢٧- أنظر أيضا جينادى جورياتشكين. "مصر فى عيون الروس"........................ .

(١٩) ف.ف.بيلياكوف، ن.ج.جولوفينا. شهادات القرن السابع عشر الملكية من أرشيف أديرة سيناء// تراث مصر الثقافى والشرق المسيحي. الطبعة الثانية. موسكو، ٢٠٠٤.

(٢٠) أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. المجموعة الوثائقية المتكاملة ٣١٧، المجموعة الفرعية ١\٨٢٠، ملف ٥٧١، ورقة ٦٨.

(٢١) المجموعة الوثائقية المتكاملة ٣١٧، المجموعة الفرعية ٣\٨٢٠، ملف ٧٠، أوراق ٥، ١٦-١٧. انظر أيضا المصدر السابق نفسه، المجموعة الفرعية ١\٨٢٠، ملف ١٠٧١، ورقة ١٢٢ ظهر الورقة.

(٢٢) أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية، المجموعة الوثائقية المتكاملة ٣١٧، المجموعة الفرعية ٣\٨٢٠، ملف ٧١، ورقة ١٠.

(٢٣) أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية، المجموعة الوثائقية المتكاملة ٣١٧، المجموعة الفرعية ١\٨٢٠، ملف ٦٥٧، أوراق ١١٩-١٣١. وملف ٦٥٩، أوراق ٢٢،٣٢. والمجموعة الفرعية ٣\٨٢٠، ملف ٥٣، ورقة ١٠.

(٢٤) أرشيف السياسة الخارجية الإمبراطورية روسيا، المجموعة الوثائقية المتكاملة ٣١٧، المجموعة المتفرعة ٣١٨٢٠، ملف ٣٦٩، أوراق ٧٣-٧٤، ١٠٣ ظهر الورقة- ١٠٤.

(٢٥) أرشيف السياسة الخارجية الإمبراطورية روسيا، المجموعة الوثائقية المتكاملة ٣١٧، المجموعة المتفرعة ٣١٨٢٠، ملف ٢٠٠، ورقة ٥.

(٢٦) أرشيف السياسة الخارجية الإمبراطورية روسيا، المجموعة الوثائقية المتكاملة ٣١٧، المجموعة المتفرعة ٣١٨٢٠، ملف ٢٠٠، ورقة ١٢.

(٢٧) أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. المجموعة الوثائقية المتكاملة ٣١٧، المجموعة الفرعية ٣/٨٢٠ ،ملف ٢٠١، ورقة٢٤.

(٢٨) أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. المجموعة الوثائقية المتكاملة ٣١٧، المجموعة الفرعية٢٤٢، ملف٢٤٢، أوراق ٣٠ وعلى ظهر ورقة ٣٠.

(٢٩) أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. المجموعة الوثائقية المتكاملة ٣١٧، مجموعة فرعية ٣، أوراق ٦- ٩.

(٣٠) أنظر على سبيل المثال الملفين ٤٥٩٢ (عامى١٨٧٨،١٨٧٧)، ٤٥٩٧ (أعوام ١٨٦٤-١٨٦٠).

(٣١) أنظر على سبيل المثال الملف ٣٧٧٣.

(٣٢) د.جينادى جورياتشكين."بحثاعن الذهب"، من تاريخ العلاقات الثقافية بين روسيا ومصر فى أواسط القرن التاسع عشر،٢٠٠٣، منشأة المعارف، الإسكندرية. "بالعربية"

أرشيف السياسة الخارجية للاتحاد الروسى

يجب أن نشير إلى أن الأرشيف الدبلوماسى لوزارة خارجية الفترة السوفيتية، الذى يسمى الآن "أرشيف السياسة الخارجية للاتحاد الروسى"، يقع فى حارة "بولوتنيكوف" بحى "أرابات"، ويتم الإفراج عن وثائق ذلك الأرشيف للاطلاع بعد مرور خمسين عامًا عليها. وقد تم تأسيس هذا الأرشيف المتخصص فى الفترة السوفيتية فى عام ١٩١٧ فى مكتب المفوض الشعبى للشئون الخارجية. وحتى تسعينيات القرن العشرين كان هذا الأرشيف يضم نحو مليون وثلاثمئة وثيقة. وفى عام ١٩٤٦ تم إنشاء إدارة الأرشيف لدى المفوضية الشعبية للشئون الخارجية (وزارة الخارجية)، وتمت إعادة تنظيمها فى عام ١٩٥٨ لتكون "الإدارة التاريخية الدبلوماسية" بوزارة الخارجية السوفيتية التى يقع فيها أرشيف السياسة الخارجية للاتحاد السوفيتى كقسم منها.

يحتفظ هذا الأرشيف بوثائق خاصة بتاريخ السياسة الخارجية للاتحاد السوفيتى وأيضًا بالعلاقات الدولية الموضوعة فى المجموعات الوثائقية المتكاملة للإدارة المركزية لوزارة الخارجية السوفيتية، وللبعثات الدبلوماسية السوفيتية ومجموعات وثائقية أخرى.

سنجد بين المجموعات الوثائقية المتكاملة للإدارة المركزية لوزارة الخارجية السوفيتية؛ مجموعات وثائق المفوضين الشعبيين ووزراء خارجية الاتحاد السوفيتى: ج.ف.تشيشرين، ف.م.مولوتوف، د.ت.شيبيلوف، أ.أ.جروميكو، وأيضًا نوابهم. كما نجد أيضًا مجموعات وثائق إدارات المناطق التابعة لوزارة الخارجية

السوفيتية، والمسئولة عن العلاقات مع دول منطقة جغرافية معينة: إدارة الدول الاشتراكية فى أوروبا، الأقسام الأوروبية الأول..الثاني..الثالث، إدارة الولايات المتحدة الأمريكية وكندا، إدارة البلدان الاشتراكية فى آسيا، إدارة بلدان الشرق الأدنى وشمال إفريقيا، إدارة بلدان المحيط الهادى وجنوب شرق آسيا، إدارة بلدان إفريقيا، إدارة بلدان أمريكا اللاتينية وغيرها من الأقسام. وهناك أيضًا المجموعات الوثائقية المتكاملة للأقسام الإدارية فى وزارة الخارجية السوفيتية التى تعمل فى مجالات خاصة فى حقل العلاقات الدولية مثل: إدارة مشاكل الحد من التسلح ونزع السلاح، إدارة التخطيط والمراجعة، إدارة المنظمات الدولية، إدارة العلاقات الثقافية، إدارة المعلومات، الإدارة القنصلية، الإدارة التاريخية الدبلوماسية، الإدارة القانونية الدولية، وقسم البروتوكولات.

تضم المجموعات الوثائقية المتكاملة لبعثات الاتحاد السوفيتى وثائق الممثلين الدائمين للاتحاد السوفيتى فى الخارج (السفارات، القنصليات العامة، القنصليات) وبعثات وزارة الخارجية السوفيتية داخل الأراضى السوفيتية (البعثات الواقعة فى أماكن وجود القنصليات الأجنبية أو فى أماكن الإقامة المؤقتة للأعداد الكبيرة من المواطنين الأجانب فى مدن سان بطرسبرج وناخودكا وسيكتيفكار).

ضمن وثائق مجموعات الوثائق المذكورة أنفًا نجد: مراسلات ومذكرات، خطابات سياسية، تقارير سياسية، تسجيلات لحوارات، كلمات بروتوكولية، برامج زيارات، شهادات عن دول ومناطق وبعض المشكلات، برقيات تلغرافية وغيرها.

إحدى هذه المجموعات تضم أصول الاتفاقيات والمعاهدات الموقعة بين الاتحاد السوفيتى والبلدان الأجنبية وغيرها من محاضر المعاهدات.

وتضم مجموعة منفصلة أخرى الوثائق المتعلقة بإقامة وتعيين وإعادة تعيين حدود الاتحاد السوفيتى، بما فيها من خرائط جغرافية.

سنجد أيضًا حفنة من مجموعات مكونة من الوثائق الخاصة بالمؤتمرات والاجتماعات والمنظمات الدولية، التى اشترك فيها الاتحاد السوفيتى، ومنها: مؤتمر بريست- ليتوفسك (١٩١٧- ١٩١٨)، مؤتمر جنوة (١٩٢٢)، عصبة الأمم، مؤتمرات الحلفاء إبان الحرب العالمية الثانية، الاجتماع الأوروبى العام الخاص بالأمن والتعاون فى أوروبا وغيرها .

عدا ذلك، يحفظ الأرشيف المجموعات الوثائقية الشخصية للدبلوماسيين السوفييت الأوائل: س.أ.فينوجرادوف، ى.أ.مالك، ونوابهما: ل.م.كاراخان، م.م.ليتفينوف، أ.ى.فيشنسكى، وغيرهم؛ حيث نجد ضمن تلك الوثائق مخطوطات ومراسلات ومذكرات شخصية ووثائق فوتوغرافية بشأن زيارات الوفود والإجراءات البروتوكولية وصورًا فردية وصورًا جماعية للدبلوماسيين.

يكشف هذا الأرشيف وثائق مثيرة جدًا عن مصر فى الحقبة السوفيتية. على سبيل المثال، حقيقة ترجمة كتاب ف.إ.لينين "الدولة والثورة" وصدوره فى طبعات متعددة واسعة الانتشار فى وادى النيل، ما يدل بوضوح على مدى انتشار الأفكار الاشتراكية فى مصر. لقد كان هذا الكتاب أول ما تمت ترجمته من أعمال لينين إلى اللغة العربية وأخذ عنوان "مذكرات لينين" حتى يخدع الرقابة اليقظة. لقد تم طبع خمسة آلاف نسخة من هذا الكتاب فى عام ١٩٢٢[١].

ستجذب اهتمام الباحث -للوهلة الأولى فى هذا الأرشيف- المجموعة الوثائقية المتكاملة ٨٧ المعنونة "مرجع عن مصر"، حيث سنجد المجموعة الفرعية ١، وضمنها المحفظة ٢ التى تحوى الملف ٢٠ المعنون "عرض لصحافة مصر" وملف ٢١ المعنون "يوميات الأحداث السياسية فى مصر ١٩٣١-١٩٤٢". سيثير الاهتمام ما حدث فى مصر وقت احتدام هجوم الفيلق الإفريقى بقيادة رومل نحو الشرق وبمحاذاة شاطئ البحر المتوسط لمصر، عندئذ انطلقت مظاهرات للوطنيين

المصريين تهتف: "إلى الأمام يا روميل"، وهى تأمل بسذاجة الحصول على الاستقلال بمساعدة الألمان(*).

لكن هزيمة قوات دول المحور فى معركة العلمين، وطردها خارج الحدود المصرية ومطاردتها إلى ما بعدها، والتى تواكبت فى الوقت نفسه مع دحر قوات الفاشية فى معركة ستالينجراد، غيرت بقوة الرأى العام فى مصر لصالح الحلفاء ومهدت الطريق لإقامة علاقات سياسية مع روسيا "الاتحاد السوفيتى". تتحدث المواد الوثائقية للمجموعة المتكاملة ٨٧ عن محاولات عديدة للسياسيين المصريين، مرة تلى أخرى، طرح ذلك الموضوع للنقاش الذى طرحوه منذ وقت مبكر فى ثلاثينيات القرن العشرين. فى عام ١٩٣٣ أعلن رئيس الوزراء يحيى باشا فى البرلمان أنه يبحث جديًا إقامة علاقات دبلوماسية مع الاتحاد السوفيتى من أجل تقليل خطر الدعاية الشيوعية.

لقد استمرت العلاقات التجارية المثمرة بين مصر وروسيا، ولكن على نطاق صغير عبر مدينة مانشستر الإنجليزية وأملت الضرورة توسيعها، ولكن غياب العلاقات السياسية الرسمية بين البلدين أعاق ذلك، على الرغم من وجود مشاورات بين الدبلوماسيين السوفييت والمصريين من وقت لآخر التى كانت تجرى فى عدد من العواصم الأوروبية. طبقًا للمعلومات التى قدمها وزير التجارة عبد السلام

(*) عندما اندلعت الحرب العالمية الثانية فى أول سبتمبر ١٩٣٩ بين بريطانيا وحلفائها ودول المحور (ألمانيا وإيطاليا واليابان) ثم انضمام الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة إلى الحلفاء تطلعت الحركة الوطنية المصرية لتحقيق الاستقلال عن بريطانيا بالاتصال بألمانيا على أساس قاعدة "عدو عدوى صديقى"، خاصة أن الألمان عن طريق إذاعة برلين باللغة العربية كانت تدعو لذلك. لكن هذه المحاولات قد فشلت، وكان الوطنيون فى العراق يفكرون التفكير نفسه وكذلك الحاج أمين الحسينى مفتى فلسطين. ولم يكن هؤلاء يدركون أن التحرر من الإنجليز قد يوقعهم تحت سيطرة الألمان. (المراجع)

فهمي، شغل الاتحاد السوفيتي الترتيب الرابع في استيراد القطن المصري في أواسط ثلاثينيات القرن العشرين. قام الاتحاد السوفيتي بدوره بتصدير المنتجات البترولية والمنسوجات إلى مصر. وفي نفس عام ١٩٣٣ تم إنشاء شركة مختصة باستيراد وتوزيع المنتجات النفطية السوفيتية في مصر[٢].

في المقابل كان الرعب من الخطر الشيوعي كبيرًا للغاية في قمة السلطة المصرية، في القصر الملكي، لدرجة أن موضوع إقامة علاقات دبلوماسية كان يتم تأجيله مرة بعد أخرى. ولم تكن بريطانيا العظمى بعيدة عن ذلك، تُحدثنا وثائق الملف المشار إليه، ببلاغة، عن عمق واتساع هذا الهلع. في عام ١٩٣٧ تقوم الدوائر الحاكمة "لصالح الأمن الاجتماعي" بمصادرة كتابي هنري باربيوس عن "ستالين"، وجان جاكوب عن "لينين"[٣].

وفي المجموعة الفرعية ٢ للمجموعة الوثائقية المتكاملة نفسها يمكننا أن نلتقي معلومة مثيرة للفضول عن تبادل المذكرات بين بعثة الاتحاد السوفيتي ووزارة الخارجية المصرية[٤]. وتوجد أيضًا مذكرات متبادلة بين البعثة المصرية ووزارة الخارجية السوفيتية[٥]. بهذا الصدد سيكون مفيدًا للباحث المجموعات الفرعية ٥ و٦ و٧ و٨ و٩؛ حيث سنجد عروض الصحف المصرية، وسيكون جاذبًا للاهتمام أيضًا المواد المحفوظة في المجموعة الوثائقية المتكاملة ٥٠ المعنونة "القسم القنصلي".

من المفهوم بالطبع أنه بمرور الزمن، سيصبح المزيد من ملفات الوثائق الجديدة مسموحًا بها لاطلاع القارئ، بحسب قواعد فتح مجموعات الوثائق المتكاملة بعد خمسين عامًا من تاريخها.

الهوامش

(١) أرشيف السياسة الخارجية للاتحاد الروسي. المجموعة الوثائقية المتكاملة ٤، المجموعة الفرعية ١٨٧، محفظة١٠٨، ملف ٢، ورقة ٥٦.

(٢) أرشيف السياسة الخارجية للاتحاد الروسي. المجموعة الوثائقية المتكاملة ٨٧، المجموعة الفرعية ١، محفظة٢، ملف ٢١، أوراق١١، ٦، ٤٠

(٣) المصدر السابق، ورقة ٣٥ .

(٤) أنظر على سبيل المثال: أرشيف السياسة الخارجية للاتحاد الروسي. المجموعة الوثائقية المتكاملة ٨٧، المجموعة الفرعية ١، محفظة ٣، ملفات ٣ و ٤ و٥. وأيضًا المجموعة الفرعية ٤، محفظة ٦، ملف ٣.

(٥) أرشيف السياسة الخارجية للاتحاد الروسي. المجموعة الوثائقية المتكاملة ٨٧، المجموعة الفرعية ٥، محفظة ٩، ملف ٢.

الأرشيف الحكومى الروسى للوثائق القديمة

تقع فى العاصمة الروسية أيضًا بعض الأرشيفات الأخرى، من بينها الأرشيف الحكومى الروسى للوثائق القديمة الذى يرجع تأسيسه إلى عام ١٧٢٤، حيث كان يطلق عليه أرشيف موسكو للعاملين بالخارجية[1]. يضم هذا الأرشيف ثلاثة ملايين ونصف مليون ملف تقريبًا. وكثير من مجموعاته المتكاملة يلقى الضوء على علاقات روسيا السياسية والاقتصادية والثقافية مع الدول الشرقية والأوروبية فى الفترة ما بين أواخر نهاية القرن الخامس عشر والقرن الثامن عشر، من بينها وثائق ومعاهدات واتفاقات دبلوماسية وتجارية بين روسيا والدول الأخرى، قوائم حكومية للسفراء، ملفات قدوم السفراء الأجانب إلى روسيا التى تعكس نمو نفوذها الدولى. نجد أيضًا وثائق تخص تاريخ الفكر الاجتماعى السياسى والعلوم والآداب والفنون والتعليم، التى تصف تطور الثقافة الروسية وثقافة بقية شعوب روسيا حتى القرن التاسع عشر. وسنجد المدونات التاريخية الروسية القديمة فى سجلات فترة ما بين القرنين ١٥ و١٩، والتى تعد بحق آثارًا ثقافية مرتبطة بدرجة أو بأخرى بالبلدان العربية. ولعل إحدى تلك المجموعات للحوليات المبكرة، هى حولية صوفيا الأولى (سجل القرن السادس عشر) ومعها وصف رحلة تاجر من مدينة "تفير" إلى الهند فيما بين ١٤٦٦ و١٤٧٢، اسمه أفاناسى نيكيتين، وحولية "نيكونوف" بسجل القرن السادس عشر التى تحتوى على يوميات تاريخية للأحداث وقصص.. إلخ.

تمثل حولية "نيكونوف" أقدم الوثائق المكتوبة عن التعاون الثقافى بين روسيا ومصر، وهى بالآلاف. لقد كان العامل الدينى دافعًا لإقامة الصلات بين روسيا

ومصر، خاصة وجود الأماكن المسيحية المقدسة على أرض شبه جزيرة سيناء حيث شجرة موسى فى دير سانت كاترين، جبل موسى بالقرب منها. عدا ذلك كان الوضع الخاص لكنيسة الإسكندرية فى الترتيب الهرمى لكنيسة الروم الأرثوذكس، وكونها الثانية بعد الكنيسة الأم فى القسطنطينية، بمثابة عامل إضافى لإقامة أول اتصالات بين روسيا ومصر.

بعد ثلاثة عشر عامًا من تعميد روسيا القديمة أى اعتناقها المسيحية، أرسل فلاديمير أمير كييف أول السفراء إلى وادى النيل: "فى صيف عام ١٠٠٢ أرسل فلاديمير رجاله ليكونوا فى ضيافة روما، وبعث بغيرهم إلى أورشليم، وإلى مصر وبابليون ليمهدوا الأراضى ويروضونها"، كما جاء فى حوليات "نيكونوف"، ومن الواضح أن كاتب الحوليات يقصد بابليون المصرية التى تعرف باسم مصر القديمة. لقد وجدت المعرفة المباشرة للأشخاص الروس بالشرق الأوسط انعكاسها فى الأثر القديم الرائع "قصص السنين المؤقتة" الذى يغطى الأحداث التى حدثت فى بلادنا حتى عام ١١١٠ . وتمثل هذه "قصص السنين المؤقتة" عنوانًا شرطيًا لمجموعة لحوليات فى بداية القرن الثانى عشر، التى تعد أساسًا لمعظم مجلدات الحوليات التى وصلتنا عن فترة القرن ١٤- القرن ١٦. وفى القرن التاسع عشر تم اعتبار تلك الحولية هى البداية، ولذلك سموها "حولية البداية". فيما بعد اتضح أن كتابة الحوليات قد بدأت فى مدينتى "كييف" و"نوفجورود" قبل ذلك بكثير. لقد تمت أول تجربة للإدراك التاريخى، من الحكم على محتواها، فى نهاية القرن العاشر بعد تعميد الأراضى الروسية بقليل(٢). يتضمن كتاب" قصص السنين المؤقتة" العديد من المعطيات ذات الطبيعة الجغرافية والإثنية، ولذا يُعد أول مجلد للمعلومات الجغرافية. لا يكتفى كاتب الحوليات الروسى بمعرفة جغرافية بلده فقط وذلك لأن قائمة البلدان التى ذكرها ضخمة جدًا، وتدل على أن مؤلف كتاب "قصص السنين المؤقتة" كان يعرف تقريبًا كل بلدان شبه جزيرة البلقان والشرق الأوسط وشاطئ

المحيط الأطلنطى من جهة أوروبا الغربية والبحر المتوسط ومجرى نهر النيل السفلى وآسيا الصغرى وبحر قزوين.

وفى الأرشيف الحكومى الروسى للوثائق القديمة، نجد وثائق مكتوبة باللغات الأجنبية، ومن بينها المخطوطات المكتوبة باللغة العربية المرتبطة بشكل مباشر بتاريخ روسيا، وعلى الرغم من أنها من أقدم وثائق البلاد، فإنها ظلت لوقت قريب لا تجذب اهتمام الباحثين بدرجة ملحوظة. يمكن تعليل هذا الوضع بالظروف الاجتماعية للحقب الزمنية المختلفة، وأنه مرتبط أيضا بتاريخ ظهور وتطور الاستشراق الروسى. وفى هذا الخصوص يكتب "د.أ.ماروزوف" مؤلف الدليل الخاص بالمصادر العربية: "تُعد مواد تلك المجموعة فى النهاية نتيجة جهود قلائل من المجتهدين المثابرين، وتحمل مجموعة تلك الوثائق، إلى حد كبير، صفة المصادفة ولا تمثل فى كل حالة منفصلة اختيارًا مقصودًا متصلاً بموضوع أو بآخر"(٣). من الطبيعى أن يكون حجمها وعددها أقل بكثير من المجموعات المتكاملة للمخطوطات العربية فى سان بطرسبرج، التى تتركز فى دارين للمحفوظات فى المدينة هما: (المتحف الآسيوى والمكتبة الروسية القومية العامة). لقد تم جمع مجموعة مخطوطات سان بطرسبرج بعناية ودقة خلال فترة طويلة من عمل أجيال متعاقبة من الباحثين. فى الوقت نفسه، وحسب رأى د.أ.ماروزوف، تُكمل المواد الوثائقية، المنسية فى الأرشيف الحكومى الروسى للوثائق القديمة فى موسكو، بعض جوانب التصورات المستقرة فى الدراسات العربية عن المخطوطات العربية الموجودة فى روسيا(٤).

تُصنف الوثائق والمخطوطات العربية فى الأرشيف الحكومى الروسى للوثائق القديمة إلى عدة مجموعات حسب الظروف والأزمان التى وردت فيها إلى الأرشيف. ولا شك أن أهم ثروة فى المخطوطات العربية فى الأرشيف الحكومى

الروسى للوثائق القديمة؛ هى "المجموعة التى ثبتت تحقيقها وصحتها، ووردت فى وقت مبكر جدًا". إنها أرشيف ومجموعة مخطوطات المستعرب ج.ى.كير (١٦٩٢-١٧٤٠)، التى انضمت إلى حوزة الأرشيف الحكومى الروسى للوثائق القديمة فى ١٧٤١. كان لدى أرملته ١٤ مخطوطًا باللغات العربية والفارسية والتركية. من بينها، أجزاء من القرآن وكتب صلوات وغيرها. من وجهة نظر د.أ. ماروزوف؛ أن تلك المخطوطات من مجموعة كير ذات أصل تركى، أو أنها موجهة إلى الأوساط التركية، ثم أصبحت غنيمة فى وقت الحرب النمساوية- العثمانية فى القرن السابع عشر. ومن المحتمل جدًا أن يكون بعض المخطوطات العربية المحفوظة فى الأرشيفات الروسية، قد تم الحصول عليه نتيجة الحروب الروسية- التركية.

فى الأرشيف الحكومى الروسى للوثائق القديمة، توجد أيضًا مجموعة إضافية من المخطوطات العربية، ولكنها متواضعة بالنسبة لمجموعة "كير". جمعها عالم اللغويات والرحالة السويدى "ياكوب يوأنس بيورنستول"(١٧٣١- ١٧٩٩)، الذى يبدو أنه كان يجيد اللغة العربية[٥]. سيجذب الاهتمام فى مجموعته نسخة من خطاب السلطان العثمانى باللغة العربية، والتى يعد فيها بالعفو عن الشيخ ضاهر. كان الشيخ ضاهر العمر حاكم عكا قد تحالف مع روسيا أثناء الحرب الروسية- التركية ١٧٦٨- ١٧٧٤، وساعد الأسطول الروسى فى عملياته فى شرق البحر المتوسط.

لقد كان أسرى الحروب من الأتراك ومعهم العرب بمثابة مصدر لتراكم الكتب المخطوطة باللغة العربية فى روسيا. فى عام ١٧٤٩، انضمت إلى مجموعات الأرشيف الحكومى الروسى للوثائق القديمة ٦٨ نسخة مخطوطة عربية فى دفعة جديدة دورية مثرية للأرشيف. وتجذب ثلاث مخطوطات[٦] من تلك

المجموعة اهتمامنا الخاص، حيث مكتوب على إحدى صفحات المخطوط[٧] بخط جميل أنها منسوخة ومكتوبة فى مدينة "فليكى أوستيوج" الروسية. ذلك يعنى أن فى أعماق روسيا فى أعالى الفولجا وفى أواسط القرن الثامن عشر، كان هناك من يعرف العرب والأحداث التى تجرى فى البلدان العربية.

وفقًا "للكتالوج المختصر"، فى أواسط القرن التاسع عشر امتلأت مجموعات الأرشيف الحكومى الروسى للوثائق القديمة بدفعة جديدة من المخطوطات العربيه أحضرها، أو توسط فى شرائها، أحد المنحدرين من أصل سورى- عبودة سبيريدون / إيسبير- (١٨؟؟ (*)-١٨٧٩). من بين المخطوطات التى لحقت بالأرشيف فى أواسط القرن التاسع عشر، أسهمت إحداها، من أكثر المخطوطات شهرةً، فى لعب دور مهم فى دراسة الثقافة الروسية فى القرن السابع عشر وحتى الآن. نقصد هنا أعمال "ج.إ. مرقص" ومن ضمنها ما ترجمه "بافل أليبسكى"

وفق ما كتبه الباحثون المستعربون، العاملون فى الأرشيف الحكومى الروسى للوثائق القديمة، فإن الوثائق المكتوبة باللغة العربية التى كانت لدى جورج إبراهيم مرقص، ذى الأصل السورى، الذى عاش فى روسيا أكثر من ثلاثين عامًا وظل محتفظًا بصلات مع وطنه الأم، هى آخر مجموعة وثائق باللغة العربية تنضم لهذا الأرشيف. ظل "مرقص" على صلة بالحياة الاجتماعية والسياسية فى سوريا والولايات العربية للإمبراطورية العثمانية، كل ذلك بفضل اتصالاته مع مدن دمشق وبيروت وحمص وزحلة واللاذقية ويافا والقاهرة والإسكندرية والقسطنطينية، والتى استقبل منها العديد من الخطابات المسهبة. فلقد تلقى من الإسكندرية خطابات من شخص اسمه إبراهيم الطوبجى[٨] ومن إبراهيم عواد أربيل[٩]، وتلقى من القاهرة خطابات أخرى من جورج يوسف عطية[١٠]. وتراسل مع عرب آخرين،

(*) تاريخ ميلاده غير معلوم. (المترجم)

يعيشون فى مدن سان بطرسبرج وموسكو وكييف. تتضمن المراسلات كثيرًا من المعلومات المهمة عن مجتمعات الروم الأرثوذكس فى سوريا ولبنان وفلسطين التى كان ينتمى إليها، والتى قدمها عبر كثير من الأعمال المنشورة. ناهيك عن المعلومات الكثيرة عن الأوضاع الداخلية للإمبراطورية العثمانية، التى يمكن أن نجدها فى تلك المراسلات الموجهة إلى مرقص(١١).

مازالت هناك وثائق فى الأرشيف الحكومى الروسى للوثائق القديمة، تجذب انتباه الباحثين، ومن ضمنها النسخة الثانية من مانيفستو بطرس الأول(١٧٢٢)، والتى تم اكتشافها فى وقت قريب نسبيًا، تلك الوثيقة تُعد أول نص مطبوع بالحروف العربية فى الأراضى الروسية (ملف ٩٣٢). حتى لحظة اكتشاف تلك الوثيقة، كانت نسخة سان بطرسبرج المحفوظة فى أرشيف أكاديمية العلوم الروسية النسخة الوحيدة المتفردة (١٢).

يحتوى الأرشيف الحكومى الروسى للوثائق القديمة على مجموعات وثائقية، عندما نقرأها من جديد نعيد تدقيق تصوراتنا القديمة عن تاريخ مصر، والسياسات الشرقية للحكام الروس، العلاقات التاريخية بين مصر وروسيا. من تلك المجموعات، المجموعة الوثائقية المتكاملة ١٠ المعنونة "مكتب الإمبراطورة كاترين الثانية"، المجموعة الفرعية١، ملف ٦٤٥. يدور الحديث هنا عن ظهور علاقات سياسية، وبالأحرى علاقات حربية- سياسية، فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر وأثناء الحرب الروسية- التركية الأولى (١٧٦٨- ١٧٧٤)، بفضل إرسال الإمبراطورة كاترين الثانية بعثة استكشاف بحرية حربية للجزر البحرية تحت قيادة الأمير أليكسى أرلوف. ساعد فى إقامة صلات مع روسيا والى مصر على بك الكبير، الذى كان طامحًا فى الانفصال عن الإمبراطورية العثمانية بالاعتماد على روسيا.

الهوامش

١- الأرشيفات الحكومية للاتحاد السوفيتي. موسكو.١٩٨٥. الجزء الأول.ص ٤٥.

٢- زلاتاسترووى. روسيا القديمة القرن ١٠-١٣. من سلسلة "طرق الفكر البشرى".موسكو. ١٩٩٠. ص ٣٦.

٣- د.أ.ماروزوف. كتالوج مختصر للمصادر العربية فى الأرشيف الحكومى الروسى للوثائق القديمة.

٤- نف المصدر نفسه السابق.

٥- اقتباس من نف المصدر نفسه السابق.

٦- ملفات ٢، ١٢، ١٣..أنظر أيضا شكل ٤ فى المصدر السابق.

٧- المجموعة الوثائقية المتكاملة١٨١، ملفات ١٢٣٨، ١٢٤٥، ١٢٥٨.

٨- مجموعة أرشيف مرقص ١٨٥، مجموعة فرعية ٤٣، ورقة ١١٩ بتاريخ ١٨٧٩/١٢/٢٦، أرشيف مرقص ١٨٦، مجموعة فرعية ٤٤، ورقة٥١ بتاريخ ١٨٨٠/٣/٢٦، أرشيف مرقص١٨٧، مجموعة فرعية ٤٤، ورقة٥٤ بتاريخ ١٨٨٣/٤/١٩.

٩- مجموعة أرشيف مرقص ١٨٨، مجموعة فرعية ٤٣، ورقة١٠٨ بتاريخ ١٨٧٧/٢/٥.

١٠- مجموعة أرشيف مرقص ٣٤٦، مجموعة فرعية ٤٣، ورقة ٩٥ بتاريخ ١٨٧٦/١١/٣٠، أرشيف مرقص ٣٤٧، مجموعة فرعية ٤٧، ورقة ٥٨- ٥٩، أرشيف مرقص ٣٤٨، مجموعة فرعية ٤٥، ورقة ٩٠ بتاريخ ١٨٧٧/١١/٢١، أرشيف مرقص ٣٤٩، مجموعة فرعية ٤٧، ورقة ٥٧ بتاريخ ١٨٨٠/٢/١٧.

١١- أنظر أيضا عن سوريا ولبنان: مجموعة وثائقية متكاملة ٥٢، مجموعة فرعية ١، مجموعة وثائقية متكاملة ٥٢، مجموعة فرعية ٤.

١٢- أنظر" الكتالوج المختصر"- مصدر سابق- ص.٩٠.

أرشيف التاريخ العسكرى الحكومى الروسى

لعل ثانى أرشيف فى موسكو من حيث الأهمية لدراسة مصر، هو أرشيف التاريخ العسكرى الحكومى الروسى الذى يقع فى حى ليفورتوفو، بالقرب من محطة مترو الأنفاق (باومانسكايا). تأسس هذا الأرشيف فى عام ١٧٩٧ تحت اسم "مستودع الخرائط المملوكة لجلالة الإمبراطور"، حيث كانت تُحفظ فيه الخرائط والخطط والرسوم الكروكية وغيرها من الوثائق المقبلة من إدارة هيئة الأركان العامة. وبدءًا من عام ١٩٤١ يحمل الأرشيف اسم "أرشيف التاريخ العسكرى الحكومى المركزى"، ولكن منذ بداية التسعينيات من القرن العشرين، ومع تفكك وانهيار الاتحاد السوفيتى أصبح اسمه "أرشيف التاريخ العسكرى الحكومى الروسى". ويضم ذلك الأرشيف ما يقرب من ثلاثة ملايين ونصف مليون ملف ترجع إلى الفترة ما بين أواسط القرن السادس عشر حتى عام ١٩١٨.

تعكس وثائق هذا الأرشيف تاريخ الجيش النظامى الروسى، من وقت إنشائه على يد بطرس الأول فى القرن السابع عشر حتى إعادة تشكيله بعد ثورة أكتوبر الاشتراكية. وهنا سنجد الكتلة الأساسية من الوثائق الخاصة بتاريخ حروب وحملات الجيش الروسى من القرن الثامن عشر حتى بداية القرن العشرين. إننا نجد في مجموعات أرشيف المراقبة الحربية، وأيضا فى المجموعات الوثائقية المتكاملة الخاصة بمقرات القيادات العامة والجيوش والفيالق وغيرها من التشكيلات والوحدات العسكرية، الكثير من وثائق العمليات التكتيكية عن الأحداث العسكرية لتلك الفترة، والتقارير السرية، البيانات، ودفاتر يوميات الأعمال العسكرية،

ونشرات عمليات الاستطلاع، والخرائط، والخطط، والرسوم الكروكيـة للأمـاكن ومسارات تحركات الجيوش وغيرها. وتلقى تلك المجموعات الضوء على حـرب القرم (١٨٥٣- ١٨٥٦)، بما فيها من دفاعات مدينـة سيفاسـتوبول، والحـروب الروسية- التركية (١٨٧٧- ١٨٧٨).

في مجموعات الأرشيف وثائق عن العلاقـات الدبلوماسـية والاقتـصادية والتجارية والتقنية- العسكرية والثقافية بين روسيا والدول الأجنبية؛ تلقى الـضوء أيضًا عن صلات روسيا بشعوب البلدان الأجنبية ومساعدة الشعب الروسى لهم فى نضالهم التحررى الوطنى.

فى الأرشيف مواد عن حياة ونشاط المؤلفين الموسـيقيين أ.ب.بـورودين، أ.ج. جلازونـوف، أ.س. دارجوميجـسكى، أ.لادوف، س.إ.تـأنييف. ويحـتفظ الأرشيف بمجموعات وثائقية مملوكة لأشخاص، منهم زعمـاء سياسـيون وقـادة عسكريون من فترة حكم الإمبراطورة كاترين الثانية والذين برزوا فى الحرب مـع تركيا، وعن تأييد الباشا على بك الكبير الـذى اسـتطاع أن يخـرج مـصر مـن الإمبراطورية العثمانية(*).

(*) كان على بك الكبير من بقايا المماليك قد أصبح "شيخ البلد" فى١٧٣٦ ومنع وصول الوالى العثمانى من اسطنبول وأخذ يسعى للاستقلال بمصر عن الدولة العثمانية. وفى مارس ١٧٧٣ كانت روسيا منهزمة أمام الدولة العثمانية. ولما تخابر مع قائد الأسطول الروسى فى البحر المتوسط ليمده بالأسلحة للمساعدة فى استقلال مصر عن الدولة العثمانية، لكن المحاولة قد فشلت حيث قامت الدولة العثمانية بتحريض محمد أبو الدهب نائب على بك الكبير لكى يتخلص منه فدخل فى معركة معه حتى مات على بك الكبير متأثرًا بجراحه فى أبريل ١٧٧٣ وبقيت مصر ولاية عثمانية، ولم تخرج من تحت حكم السلطان العثمانى. (المراجع)

تمثل المجموعات الوثائقية لأرشيف التاريخ العسكرى الحكومى الروسى مصدر اهتمام للمهتمين بمصر، لا سيما أن وثائقها تم تنظيمها بواسطة مختصين من الدرجة الأولى الذين غالبًا ما كانوا شهودًا مباشرين لأحداث جرت على الأراضى المصرية. وكما أشرنا سابقًا فى الحروب الروسية- التركية المتكررة، كانت السلطات العثمانية المركزية تطلب من ولاة مصر إرسال قوات عسكرية وسفن وذخيرة حربية وموارد بشرية. شاركت القوات الحربية المصرية دائمًا فى العمليات الحربية ضد الإمبراطورية الروسية. لذا احتاجت القيادة العامة العسكرية الروسية معلومات عن مكونات وحالة الجيش المصرى. يتحدث عن ذلك المنف ٢٠٤ التابع للمجموعة الوثائقية المتكاملة ٤٥٢ والمؤرخ فى عام ١٨٨٢، والمعنون "القوات المسلحة المصرية، وأعده أرتامانوف": "وحيث إن الثغور العثمانية فى الثلاثين سنة الماضية استفادت من خدمات القوات المسلحة المصرية التى لم ترفض مساعدتها فى الحرب الأخيرة ضد روسيا، فإنه من الحكمة ولو فى تقرير مختصر سرد القوات المسلحة وما تملكه من أسلحة لذلك البلد المعاون للأتراك" (ورقة١). تتكون تلك المذكرة من ١٦ صفحة.

يتحدث فيما بعد "بولكوفنيك" أرتامانوف عن هيكل الجيش المصرى وتجهيزاته، وتسليحه وعدد فرقه وأفواجه وكتائبه وبطاريات مدفعيته، وصفات تسليح مدفعيته ومشاته وفرسانه. وحسب معلوماته، بلغ عدد جنود الجيش المصرى ١٨٠ ألف جندى(*)، ثم يتعرض بعد ذلك للمدارس العسكرية والمؤسسات الطبية

(*) عندما فرضت تسوية لندن فى يوليو ١٨٤٠ لتحجيم قوة محمد على باشا، أصدر السلطان العثمانى فرمانًا فى ١٨٤١/١٢/١٣ بألا يزيد عدد أفراد الجيش المصرى على ١٨ ألف عسكرى (ثمانية عشر ألفًا). والحاصل أن عدد الجيش كان يتناقص حتى وصل زمن الخديو إسماعيل إلى ١٢ ألفًا (اثنا عشر)، وحاول إسماعيل زيادته لكن لم يوفق إلا قليلاً. ومما يدل على قلة عدد أفراد الجيش أن أحمد عرابى طالب باسم الضباط الخديو توفيق بزيادة عدد

العسكرية، ويسرد معلومات عن القوات البحرية الحربية وغيرها. يكتب أرتامانوف "بولكوفنيك" هيئة الأركان العامة: "سلك الضباط فى الجيش المصرى أعلى تعليميًا بالمقارنة مع سلك الضباط بالجيش التركى. فى مصر توجد أكاديمية حربية تتكون من خمس مدارس عسكرية عليا شبيهة بالكليات، وهى موجودة فى العباسية. وهى: ١. مدرسة القيادة العامة، ٢. مدرسة الهندسة والمدفعية، ٣. مدرسة المشاة، ٤. مدرسة الفرسان، ٥. مدرسة المحاسبة. توجد أيضًا مدرسة للطب البيطرى. فى تلك المدارس الست، فى عام ١٨٧٣، بلغ إجمالى عدد المدرسين ٤٠ معلمًا وعدد الطلاب ٤٩٣ طالبًا". يستمر قائلاً: "الالتحاق بالمدارس الحربية يتطلب من الطالب إنهاء منهج المدرسة الأولية، ويتطلب الالتحاق بمدرسة القيادة العامة إنهاء الدراسة فى إحدى المدارس العسكرية أو مدرسة الهندسة. وهكذا تعطى المؤسسات التعليمية المدنية الشباب الإعداد الكافى للالتحاق بالمؤسسسات التعليمية الحربية المتخصصة، وبهذا تُقدم خدمة كبيرة للجيش" (ورقتا ١٢، ١٣). يعطينا الكاتب معلومات مثيرة عن الأسطول البحرى الحربى وأسطول النقل التجارى لمصر، قائلاً: إنه فى ميناءى الإسكندرية والسويس، تم إحصاء ٥٣ من السفن البخارية والشراعية من أحجام مختلفة، و٢٠ صندلاً تعليميًا، و٣٥ شختورة وقاربًا، و١٣ سفينة شراعية من الطراز العتيق وغيرها. يقدر عدد أفراد أطقم السفن المذكورة بنحو ٥٣٦٠ شخصًا. ومن أجل بناء السفن بالإسكندرية توجد ترسانة وأيضًا حوضان لبناء السفن، واحد منهما حديدى فى الإسكندرية والثانى حجرى فى السويس (ورقتا ١٥- ١٦).

الجيش إلى ١٨ ألفا طبقًا للتسوية الدولية وذلك فى مايو ١٨٨١، حيث كان قد بلغ ثلاثة عشر ألفا منهم الجنود المرابطون فى السودان. (المراجع)

تعد التقارير والكشوف، التى يقدمها العسكريون الروس فى الخارج، من أهم مصادر المعرفة التاريخية، ليس فقط فى أرشيف التاريخ العسكرى الحكومى الروسى، ولكن أيضا فى منظومة الأرشيفات الروسية بأجمعها. وعلى الرغم من أن روسيا لم يكن لها ممثل عسكرى فى وادى النيل، فإن الأحداث السياسية المهمة الجارية فى مصر أثارت انتباه المراقبين العسكريين الروس فى البلدان الأوروبية، خاصة فى حوض البحر المتوسط. نستطيع أن نجد المعلومات التى جمعوها تحت عنوان "بخصوص المعلومات الواردة"، والتى تم الحصول عليها بطرق رسمية وسرية من خلال الجواسيس وغيرهم.

فى هذا الصدد سيجذب اهتمام الباحثين المجموعة الوثائقية المتكاملة ٤٠١، المجموعة الفرعية ٤ والمؤرخة فى عام ١٨٨٢. فى تلك المجموعة الوثائقية سنعثر على العديد من المعلومات الخاصة بالجيش المصرى من التقارير السرية للعملاء العسكريين الروس فى اليونان (ملف٧)، إنجلترا (ملف ٩٢٨)، إيطاليا (ملف ٨)، وتركيا (ملف ١٠). لم يغض المراقبون العسكريون فى هيئة الأركان العامة الروسية أنظارهم عن التغييرات التى طرأت على الجيش المصرى كجيش معاون للثغور المهمة، وكمشارك فى الحرب الروسية- التركية الحديثة (١٨٧٧-١٨٧٨). فقد شدت انتباه الممثلين العسكريين الروس حركة الشعب المصرى المعادية للأجانب، التى رفعت شعار "مصر للمصريين". لقد اهتموا خاصة بالعمليات العسكرية للقوات المسلحة التابعة للدول الاستعمارية وتحركاتها فى المنطقة وتسليحات الجنود وخططها التكتيكية. وظلت تلك الوثائق حتى الآن تقدم غذاءً وفيراً للباحثين المهتمين بمشكلات تطور مصر فى ظل الاستعمار فى القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.

ها هو "مقتطف من رسالة بتاريخ ٣٠ ديسمبر ١٨٨١ من وكيل هيئة الأركان العامة فى أثينا بودبولكوفنيك(*) "بروتوبوبوف": " منذ عدة أيام جاءت إلى ميناء بيرية من مالطا السفينة الشراعية المتطورة "زابياكا" (العربيد)، وعلى قيادتها كابيتانت ليتنانت(**) "لومان"، الذى أخبرنى بالمعلومات التالية: فى مالطة الآن فرقة إنجليزية مكونة من ثمانى سفن، على رأسها السفينة المشهورة" إينفليكسيبل" التى تم بناؤها حديثا، والتى تبحر للمرة الأولى فى البحر المتوسط. يصل عدد طاقم تلك السفينة إلى ٢٥٠٠ شخص، يقود هذا الأسطول البحرى نائب-الأدميرال سيمور. فى وقت وجود السفينة الشراعية المتطورة "زابياكا" (العربيد) فى مالطا، تكرر وصول سفن من مالطا وإنجلترا محملة بقوات عسكرية. تجرى حركة القوات تلك بسبب تغيير قوات الحاميات فى الهند"[١]. كما اتضح فيما بعد، كانت إعادة توزيع الفرق الحربية البريطانية، ليست بريئة لهدا الحد. كانت، فى الحقيقة، عملية تجميع للقوات الإنجليزية قبل الهجوم على مصر واحتلالها فيما بعد لمدة طويلة.

سنجد وقائع وحقائق مثيرة تكمل تصوراتنا عن الوضع المحيط بمصر، والعلاقات الدولية فى فترة السبعينيات والثمانينيات من القرن التاسع عشر. فى مراسلات الممثل العسكرى الروسى فى إيطاليا، يكتب قائلاً: "تشترى القنصلية الإنجليزية فى باليرمو كميات كبيرة من المتاريس الحربية لإرسالها إلى مصر"[٢]. وهنا أيضا، يعلمنا ممثل هيئة الأركان العامة فى شبه جزيرة أبينيا: "رغم الآمال الكبيرة باستعادة النفوذ المفقود فى مصر، لا تستطيع الحكومة الايطالية، إلا إدراك ضعفها فى البحر والبر بالمقارنة بالقوات المسلحة للدول العظمى فى أوروبا، وتلك الدول التى تكبدت نفقات ضخمة لتنظيم حملات استكشافية للتوجه إلى مصر. على

(*) "بودبولكوفنيك" رتبة عسكرية روسية تعادل العميد.(المترجم)

(**) "كابيتانت- ليتنانت" رتبة عسكرية تعادل ملازم بحرى.(المترجم)

أقصى تقدير، لا يقع الجنرالات الإيطاليون أسرى التوهمات، ويدركون بصدق عدم تناسب قواتهم، والاستحالة الكاملة للاشتراك الجدى فى عمليات عسكرية فى أى منطقة بعيدة" (٣).

تحت العنوان نفسه "بخصوص المعلومات الواردة"، تضيف ملاحظات الممثل الحربى الروسى فى المملكة المتحدة الكثير عن مصر أثناء الثورة العرابية: "كما تخبرنا جريدة "التايمز"، منذ أيام وفى حفل غداء وداعى فى مدينة "الله أباد" على شرف الجنرال ماكفيرسون قائد القوات الهندية، أعلن المسلم سيد محمود فى خطاب عاطفى، أن أعداء إنجلترا هم أعداء الهند، وأن الهند لن تقف مكتوفة الأيدى على ما يدبر لإعاقة خطوط المواصلات المفتوحة مع إنجلترا، وأنه إذا كانت الدول الأخرى تفتخر بوجود عشرات الملايين فقط من مواطنيها، فإن بريطانيا لديها مئات الملايين القادرين على إمدادها بمئات الآلاف من الجنود(٤).

في ـ قت نفسه يشير الممثل العسكرى إلى التضامن الواسع لجماهير مسلمى الهند مع نضال الشعب المصرى ضد المعتدين البريطانيين، فيذكر قائلاً: من ناحية أخرى، هذا ما حدث منذ أيام فى لندن، فى أحواض رسو السفن، بضع سفن مؤجرة بواسطة الحكومة لنقل القوات الحربية تابعة لشركة ***"Peninsular and Oriental Company"*** .

أغلب طواقم تلك السفن من الهنود المسلمين، وهم بحارة ممتازون، ولكنهم يمثلون مشكلة من نوع خاص للبريطانيين، ففى أحد الأيام ظهر بعض الوعاظ الأصوليين المسلمين، وأقنعوا هؤلاء البحارة تحت التهديد بالعذاب المريع فى الآخرة بعدم خدمة الإنجليز برفع أيديهم فى وجه بنى دينهم، وهكذا خلت البواخر من طواقميا فى لحظة الحاجة إليهم. وعلى الرغم من أن البحارة المسلمين رجعوا إلى أعمالهم فى النهاية، إلا أن القيادة الإنجليزية فضلت استخدام فقط البحارة ذوى الجنسية الإنجليزية على سفن نقل الجنود.

ملحوظة مهمة: "قوات الحكومة الهندية فى طريقها إلى مصر، ولنقلهم تم استئجار ٣٣ باخرة بحمولة شاملة أكثر من ٥٤ ألف طن......"(٥).

بعد ذلك يكتب الممثل الروسى من لندن: "اشترت الحكومة هنا خمسة قطارات للسكك الحديد، كل قطار منها مكون من ١٢ عربة مهيئة بهدف نقل الخيول فى وقت وجود طليعة الاستكشاف الإنجليزية فى مصر... يتكون الجيش المرسل إلى مصر من: ١٤ جنرالاً، و٧٣ بولكوفنيك، و١٧٦ ميجور، و٢٣٥ كابتن، و٦٠١ ضابطا، و٨٨ موظفا، و٢٢٨٠٢ من الرتب الدنيا. وتضم الجياد النوعيات التالية: ٧٦٨ مخصصة للضباط، ٢٣٠٣ للقتال، ٢٥٦٣ جيادا مُدربة، ٥٠٣ أحصنة لنقل الأمتعة، أما المركبات فمنها: ١١١ عربة لنقل المياه، ٧٧٦ عربة بعجلتين، ٢٣ عربة بأربع عجلات، ٤٧ عربة لنقل رصاص الذخيرة، ٣٨ عربة حدادة، ٥٨ عربة مدفعية، ٥٥ صندوقا للمتفجرات، ٢٥ عربة للجر، عدا ذلك لدى تلك القوات ٥٥١٢ خيمة.

وهكذا يبلغ عدد تلك القوات ٢٣٩٨٧ من الضباط والرتب الدنيا، ٦٢٢٢ حصانا..الجيش الهندى: ٨٥ ضابطا، و٤٢٢٧٣ جنديًا.

تمتلك القوات الهندية المسافرة ٣٥٠٠ عامل حربى، و١٧٠٠ حصان، و٨٤٠ حصان سيسى، و٤٠٠٠-٤٥٠٠ بغل(٦).

الجزء الخامس من هذا التقرير مخصص للجيشين الإنجليزى والهندى، والجزء السادس يتحدث بالكامل عن قصف السفن الحربية البريطانية للإسكندرية. لتفصيل أكثر عن القصف المدفعى البربرى للعاصمة الشمالية لمصر والتدمير الكبير الذى حدث بها، أنظر بالتفصيل "مصر فى عيون الروس" – صفحة ١٣٨ وما بعدها.

فى الجزء السادس المؤرخ فى ٢١ أكتوبر ١٨٨٢ يتحدث ممثل القيادة العامة الروسية فى إنجلترا عن إعادة تنظيم الجيش المصرى: "أرسل لكم محتوى التلغرافات القادمة من القاهرة فى ٢٠ أكتوبر، والتى نشرتها جريدة التايمز اليومية عن خطة إعادة تنظيم الجيش المصرى المقدمة من بيكر باشا.

تقابل عملية إعادة تنظيم الجيش المصرى صعوبات نتيجة لقلة الكوادر الموثوق بها من الضباط وضباط الصف. لذا يقترح بيكر باشا اختيار ضباط الصف من البوسنيين والألبان والبلغار، على أن ينضم لهم عدد قليل من ضباط الصف ذوى الأصول المصرية من الجيش السابق، الذين عرّضوا أنفسهم للشبهات أثناء الأحداث الماضية. أما بالنسبة للضباط فإن حل تلك المشكلة دون مساعدة إنجليزية خارجية سيكون صعبًا للغاية. فى تلك الحالة سيكون مأمولاً، أن يكون كل الضباط من الإنجليز، ولكن سيكون ذلك مرهقًا للميزانية المصرية. لذا يريد بيكر باشا إدخال النظام المستخدم فى القوات الإنجليزية- الهندية فى عملية إعادة تنظيم الجيش المصرى. ولذلك يُقترح أن يكون فى كل كتيبة وكل فوج للفرسان ضباط إنجليز: بولكوفنيك واحد، وبودبولكوفنيك واحد، وواحد أديوتانت(*)، واثنان من الضباط الصغار، أما بطارية المدفعية فسيصبح بها ثلاثة من الضباط الإنجليز. فى باقى الوحدات سيخدم الباقون من الضباط، بدءًا من رتبة كابتن وما دونها، الذين حاليًا فى خدمة الخديو من الضباط أهالى البلاد والألبان"(٧).

تتردد معلومات دقيقة فى تقرير عن إعادة تنظيم هيكل القوات المسلحة المصرية بواسطة الإنجليز. لقد أعطاها كاتب المذكرة حيزًا كبيرًا ضمن القسم السابع نفسه، فيذكر: "إن تركيب الجيش المصرى يجب أن يكون كالآتى: ١٢ كتيبة للمشاة تضم كل واحدة منها ٥٠٠ فرد، وكتيبة فرسان واحدة تضم ٥٠٠ فرد،

(*) "أديوتانت" رتبة عسكرية روسية تعادل رائد.(المترجم)

وكتيبتين من مشاة الخيالة تضم كل منها ٥٠٠ فرد، و٦ بطاريات مدفعية رباعية تجرها الخيول، وراجلة تضم كل منها ١٠٠ فرد، وبطاريتين مدفعية محصنة تضم ٥٠٠ فرد، وسرية مهندسين من ١٠٠ فرد، وفرقتين من الدرك تضم كل منها ٧٠٠ فرد، وأخيرًا ٣٠٠ من الأفراد الإداريين وآخرين. وسيكون العدد العام للجيش ١٠٩٠٠ شخص(٨).

كما نرى، فإن عدد أفراد الجيش المقترح من الإنجليز أقل بثلاثين ضعفًا من العدد الذى كان فى أيام الخديو إسماعيل، بل وهو أقل بكثير من عدد أفراد الجيش الذى أُجبر محمد على على الموافقة عليه، بعد السلام المخزى الذى وقعه(*) بعد الحملة السورية الثانية. من الواضح هنا تمامًا، أن الإنجليز يحتاطون من تكرار أحداث عامى ١٨٨١ و١٨٨٢؛ عندما قام الجيش بدور القوة السياسية لثورة الشعب المصرى. ويؤكد ذلك واقع تركيبة القيادة الجديدة للجيش المصرى، الذى يجب أن يكون نصف قيادته العامة من الإنجليز والنصف الثانى من أهل البلاد، حسب خطط الإنجليز(٩).

أما التنظيمات العسكرية الأخرى، كما يقترح الإنجليز، ستكون على قاعدة "المناصفة" الشبيهة. ويستمر الوكيل العسكرى الروسى فى لندن قائلاً: "سيكون على رأس الدرك مفتشان من الإنجليز، ولكن الضباط سيكونون من السكان الأصليين. من المفترض توزيع فرقتى الدرك كالتالى: فرقة للوجه البحرى، وأخرى للوجه

(*) يشير الكاتب إلى معاهدة لندن فى ١٥ يوليو ١٨٤٠ بين روسيا والنمسا وإنجلترا وبروسيا والدولة العثمانية بشأن تحجيم قوة محمد على. وقد أعلن محمد على رفضها ولم يوقعها. ولما قام الحلفاء بتحريض السوريين على محمد على وساعدوهم بالسلاح وافق محمد على على مغادرة الجيش المصرى لسوريا وأن يرد الأسطول التركى إلى الباب العالى مقابل تخويله ملك مصر الوراثى بضمانة الدول. وقد وقع هذا الاتفاق فى ٢٧ نوفمبر ١٨٤٠ بوغوص "وزير" خارجية محمد على والكومودور شارل تابييه قائد الأسطول البريطانى. (المراجع)

القبلى. وتتكون كل فرقة من سبع سرايا، وكل سرية مقسمة إلى فصائل، وتخضع الفرقتان لوزارة الحربية إداريًا، وحسب مقتضيات التفتيش عليهما(١٠).

لا يرقى الشك لدينا فى أن وظيفة وهدف تشكيلات الدرك منع انتفاض الجماهير الشعبية وأيضًا أقسام الجيش نفسه. تتحدث عن ذلك تفصيلة مهمة فى الخطة البريطانية لإعادة تنظيم الجيش المصرى: "لن يتم استخدام فرقتى الدرك فى أغراض البوليس الصغيرة، ولكنهما ستكونان حراسات مضمونة فى أيدى المحافظين (المقصود هنا حراسة النظام الاستعمارى البريطانى- ملاحظة للمؤلف)(١١). ولذا تتحدث خطة إعادة التنظيم عن ملاحظة مهمة: قوات الدرك سيتم اختيارها من الأجانب، ولكن فيما بعد سيتم تجنيدهم من الجنود المتقاعدين من أهل البلاد(١٢).

استهدف برنامج إعادة تنظيم الجيش المصرى، المذكور أنفا، تهدئة الشعب المصرى وجيشه الوطنى الذى أقامه أحمد عرابى ورفاقه. والحقيقة الآتية تدل على ذلك: "كل ما هو فائض من سلاح وموجود فى مصر سيتم بيعه"(١٣). وبالفعل أخذ الإنجليز من مصر أكثر من ٤٠٠ ألف بندقية "ريمنجتون" التى تعد طرازًا حديثًا للرماية نسبيًا فى تلك الفترة.

آخر ما يشير إليه الممثل العسكرى الروسى فى بريطانيا العظمى هو الرواتب فى الجيش المصرى: قائد فرقة- ٢٠٠٠ جنيه إسترلينى، قائد كتيبة ورئيس أركانها - ١٢٠٠ جنيه، بولكوفنيك- ٧٥٠ جنيهًا، بودبولكوفنيك- ٧٥٠ جنيهًا، أديوتانت- ٤٥٠ جنيهًا، ضباط صغار- ٤٠٠ جنيه(١٤).

يحتوى الجزء السابع من تقرير المسئول الروسى على الكتاب الذى أصدرته دار نشر التايمز عن العمليات الحربية فى مصر عام ١٨٨٢.

ولا شك أن أكثر المعلومات القيمة، تلك التى بعثها الوكيل الحربى الروسى فى تركيا. لقد أرسل تقريرًا تفصيليًا بعنوان "معلومات عن الجيش المصرى"، الذى تمت إعادة هيكلته بقانون صادر فى ديسمبر عام ١٨٨١. المذكرة أعدها أحد الفرنسيين العاملين فى الخدمة بالجيش المصرى برتبة جنرال- بريجادير"[١٥]. الوثيقة عبارة عن مذكرة مكونة من الأقسام التالية: القيادة العامة، وزارة الحربية، المشاة، الفرسان، المدفعية، المدفعية الساحلية، التحصينات الساحلية والقلاع، قوات المهندسين، المؤسسات الاقتصادية العسكرية، معلومات عن السفن الحربية وسفن نقل الجنود بالأسطول المصرى، قائمة بسفن النقل الحكومية العاملة على خطوط المواصلات بين البحرين الأبيض والأحمر، والإدارات البحرية العسكرية.

بالطبع، من المفهوم أن تلك المعلومات المقدمة من جنرال فرنسى يعمل مستشارًا فى الجيش المصرى عن أعداد أفراده، ومكونات القوات الحربية للبلاد، وعدد السفن وحمولتها، وعدد المدافع وغيرها، يمكن الوثوق بها بدرجة كبيرة ويمكن أن يستند إليها الباحثون.

على أن أحد الملفات الأكثر إثارة فى أرشيف التاريخ العسكرى الحكومى الروسى، هو الملف المعنون "حول مأمورية بولكوفنيك سولوجوب من هيئة الأركان العامة فى القسطنطينية"[١٦]. كان هذا الضابط عائدًا لتوه من القسطنطينية بعد عملية استطلاع، ولكن تم إرساله من جديد إلى العاصمة العثمانية بموافقة القيصر الروسى وهيئة الأركان العامة فى ١٧ فبراير ١٨٨٢ من أجل "جمع معلومات عن الجيش التركى وتنفيذ الأعمال الطوبوغرافية الضرورية"(ورقة ٢). نمضى قدمًا فى الملف ونجد فى صفحة ٨: "فى حالة ما قامت إنجلترا وبريطانيا بعمل فى مصر، فسيكون من المفيد جدا أن يكون أحد ضباطنا ضمن حملة استطلاعهما الحربية هناك. ولعل من المريح تكليف بولكوفنيك هيئة الأركان سولوجوب الذى يعمل تحت إمرة سفيرنا فى القسطنطينية".

فى نهاية شهر أغسطس يغادر "سولوجوب" القسطنطينية متوجهًا إلى الإسكندرية، حيث يشاهد ويتابع آثار القصف الإنجليزى للمدينة. بعد ذلك يصعد على ظهر السفينة "إيريكليك"، وهى إحدى سفينتين روسيتين تتبعان تحركات الأسطول الإنجليزى، ويتوجه إلى الإسماعيلية، حيث يقتفى أثر الجيش البريطانى فى التل الكبير وبعد ذلك فى القاهرة. ويراقب هذا المسئول بإمعان الأحداث ويبعث برسائله إلى القيادة العامة الروسية. لقد أرسل عشرة خطابات. تلك الخطابات تقارير ميدانية رائعة من شاهد عيان معاصر للمعارك الحربية، ولعمليات الإنجليز وقوات أحمد عرابى باشا، وللزعماء السياسيين وأخلاق المصريين والسياسة الاستعمارية للإنجليز وغيرها.

ولعل ما يثير الدهشة هو ملاحظات الكاتب عن المزاج النفسى للبسطاء من المصريين من أعماق الريف المصرى ونظرتهم تجاه روسيا. يكتب قائلاً: "بدأت التقى السكان العرب بأعداد ملحوظة وراء التل الكبير، وكانت مدينة بلبيس أولى النقاط التى لم يغادرها السكان، وفيها توقفت لالتقاط الأنفاس. وبعد دقائق من إقامتى بأحد البيوت بالقرب من السوق، وجدت نفسى محاطًا بحشد من الناس، وبدأت أسمع بلا انقطاع منهم كلمتى "روس" و"موسكوف". عقب ذلك ظهر أمامى وفد يدعوننى للذهاب إلى أحد البيوت، فرفضت الدعوة. إثر ذلك جاء رجال شرطة فى ملابس رسمية وأنحنوا تحيةً لى، وأخيرًا حضر اثنان من العرب المترجمين ليشرحوا أن السكان مسرورون للغاية لرؤية أحد الروس عندهم، ويريدون طرح العديد من الأسئلة، كان أهمها الآتى: هل حقًا يريد الروس الاستيلاء على لندن؟ وهل لدىَّ خطابات الحكومة الروسية التى ترفض احتلال الإنجليز لمصر وتطالبهم بالجلاء فورًا عنها؟ لقد أوضح لى هؤلاء العرب أنفسهم، أن عرابى باشا قبل الاستسلام رفع العلم الروسى، وأُشيع فيما بعد تأكيدات عن حبه للروس وكراهيته للإنجليز.

فى قرية مشتول، التى توقفت فيها بعد ذلك للمبيت، تكررت تلك الأقاويل من حيث الجوهر. فى البداية شكَّ العرب فى شخصى، وفى أن أكون إنجليزيًا مدعيًا أنى روسى، ولكن بعد تأكيدات مترجمى، الذى استدعوه جانبا، بدءوا فى إبداء تعاطفهم مع الروس وكراهيتهم للإنجليز. لقد قدموا لى ضيافة من بلح القرية، وأطباق أخرى من الطعام، وقام عشرة منهم بالحراسة الليلية حول خيمتى على الرغم من عدم وجود حاجة لذلك. وفى الصباح بدأ من جديد التعارف، وجاء شيخ لتوديعى، ومن جديد أرسلوا لى مختلف صنوف الضيافة، أما الحراس الليليون فقد رفضوا أن يتقبلوا البقشيش منى قائلين إنهم وجدوا راحتهم فى تقديم خدمة من أجل "موسكوفى".

تحتوى مواد أرشيف التاريخ العسكرى الحكومى الروسى على معلومات مهمة للغاية عن الحروب الروسية- التركية، التى اشترك فيها المصريون كرعايا للإمبراطورية العثمانية. يستطيع الباحثون استخدام تلك الأرشيفات من أجل دراسة قضايا العلاقات الدولية، والحوار الثقافى- الحضارى الروسى المصرى. كم يبدو ذلك غريبًا! أن تكون الحروب أحد أشكال التفاعل الحضارى بين الشعوب. إنها تؤدى إلى نتائج مؤثرة، تقوم بدورها مع مرور الزمن، وتؤدى إلى التفكير العميق والتأمل فى عمليات الوجود الإنسانى. على سبيل المثال، الاتصالات الروسية- المصرية التى بدأتها فى الحقيقة العمليات الحربية، والتى صاحبها أحيانا سقوط ضحايا كثيرين من الجانبين، فى الحروب الروسية- العثمانية، قد أعطت الفرصة للتعارف الواسع بين الروس والمصريين.

وعلى الرغم من القائمة الطويلة للصدامات الدموية فى تلك الحروب، فإن الأرشيفات الروسية توفر لنا معلومات جلية فقط عن حروب القرن التاسع عشر، ولعل هذه هى الخدمة الكبيرة التى تقدمها تلك الأرشيفات. بهذا الصدد سنجد

معلومات أكثر تفصيلاً عن الحرب الشرقية أو حرب القرم، التى تتعلق بالنصف الأول للقرن التاسع عشر، وسنجد معلومات دقيقة عن الحرب الروسية- التركية ١٨٢٨- ١٨٢٩ والمواجهة التى حدثت فى مضيق البوسفور فى عام ١٨٣٣. قبل ذلك كانت موقعة نافارين فى ٢٠ أكتوبر ١٨٢٧، عندما قام الأسطول الفرنسى- الإنجليزى- الروسى المشترك بإحراق سفن الأسطول التركى- المصرى.. "بقى عائمًا ٢٩ سفينة فقط من ٧٨٢ سفينة إجمالى قوة الأسطول"، هكذا كتب مؤلفو "تاريخ العرب". ومن المعلوم أن ثلاث فرقاطات مصرية قد غرقت، هى "الجهادية"، و"السرايا"، "والإحسانية"[١٧]. عندئذ ومرة أخرى، يخرج محمد على باشا (فى تحدٍ واضح) عن طاعة السلطان، ويوقع دون علمه اتفاقًا مع الدول العظمى، يقضى بنقل جنوده على السفن التجارية (المصرية والأجنبية) من المورة للرجوع إلى مصر.

أوضحت تلك الخطوة أن الباشا المصرى خرج عن طوع السلطان وأصبح حاكمًا مستقلاً لمصر. وفى ١١ أكتوبر١٨٢٨ عندما نشبت الحرب الروسية- التركية، رفض محمد على باشا طلب الباب العالى بإرسال قوات حربية لمساعدة السلطان، حتى "لا يعانى الجنود مما حدث لهم من قبل فى المورة". هذا أدى - حسب رأى الباحث المصرى الدكتور يحيى محمد محمود - إلى خسارة الإمبراطورية العثمانية والعالم الشرقى، مما أعطى روسيا الحق فى المرور من البحر الأسود إلى البحر المتوسط، وأهدى اليونان الاستقلال[١٨].

فى تلك الفترة كان الباشا مهتمًا بتأسيس إمبراطورية واسعة تحت السيادة المصرية، مما أدى إلى النزاع مع الباب العالى. بدأت الأعمال الحربية فى عام ١٨٣١ حين اجتاحت القوات المصرية بخيولها جيش السلطان فى ديسمبر١٨٣٢، واتجهت إلى إسطنبول. نتيجة لإعادة تنظيم جيش السلطان محمود الثانى وعدم

وجود قوات كافية تحت إمرته، طلب السلطان من حكومات فرنسا وإنجلترا والنمسا المساعدة، لكنه تلقى رفضا منها. لم يؤيد السلطان سوى القيصر نيقولاى الثانى. فى فبراير عام ١٨٣٣، تمت عملية إنزال حملة الاستطلاع الروسية المكونة من عشرة آلاف جندى على الشاطئ الآسيوى لمضيق البسفور. لكن لم يحدث الصدام، فقد انسحب قائد الجيش المصرى، إبراهيم باشا ابن الحاكم، بقواته من العاصمة التركية. من وجهة نظرنا، تعلم محمد على الدرس القاسى من أزمة البوسفور، ولم يحدث فى عهد حكمه بعد ذلك أى مواجهة مسلحة كبيرة بين روسيا ومصر. بعد ذلك، بدأت تتوطد العلاقات الثقافية بين البلدين.

أخذ خلفاؤه الضعفاء نسبيًا، عباس باشا وسعيد باشا والخديو إسماعيل باشا موقفًا مغايرًا نسبيًا تجاه روسيا، فأرسلوا قواتهم، بناءً على طلب الباب العالى، إلى مسارح المعارك فى الحرب الشرقية وحرب البلقان حيث اشتركت تلك القوات إلى جانب الأتراك، وفى مواجهة مباشرة مع الجيش الروسى.

وجدت تلك الحروب انعكاساتها فى الأرشيفات الروسية، خاصة فى أرشيف التاريخ العسكرى الحكومى الروسى. ولعل وثائق حرب القرم هى الأكثر تمثيلاً هنا. ليس ذلك مصادفة، حيث اشترك فى أحداث ١٨٥١- ١٨٥٦ أكثر من ٥٥٠ ألف جندى من الجانب التركى. من بينهم جيش نظامى يقدرعدد جنوده بـ ١٤٠ ألفًا، وعدد الاحتياط (الرديف) ١٤٠ ألفًا، وقوات غير نظامية عددها سبعين ألفًا، وقوات نجدة عددها ١١٩ ألفًا ضمت عشرة آلاف من الألبان، و٣٠ ألفًا من البوسنة والهرسك، و٦ آلاف من الفالاخيين والمولداف(*)، و٢٠ ألفًا من صربيا، و١٩ ألفًا من تونس وطرابلس الغرب، و٤٠ ألفًا من مصر(١٩). يكتب المؤلف نفسه أن العدد الإجمالى للجيش المصرى فى الحرب الشرقية بلغ ٥٠ ألفًا و٧٠٠ جندى. وللمرة

(*) أهالى ولاشيا ومولدافيا / دولة رومانيا فيما بعد. (المراجع).

الأولى تظهر فى المجموعات الوثائقية الروسية مواد عن القوات المصرية منفصلة عن الكتلة العامة للجيش العثمانى، لكنها قد تكون بسبب أن المعارك الحربية كانت تجرى على الأراضى الروسية.

فى أول نجدة تم جمعها من الاحتياط إلى الجبهة الروسية- التركية، كانت هناك ست كتائب مشاة (١٥٧٠٠ جندى)، وكتيبة فرسان (١٣٠٠ جندى)، وكتيبة مدفعية (٢٧٠٠ جندى) تتكون من ١٢ بطارية بها ٧٢ مدفعًا. يقدر عدد هذا التعزيز الأول بنحو ١٩٧٠٠ شخص[٢٠]. قدم الوالى فى مصر أيضًا للحملة ١٢ سفينة عليها ٦٤٢ مدفعًا، وبلغ عدد طواقمها ٦٩٠٠ بحار. قاد الأسطول حسن باشا الإسكندرانى، الذى تلقى علوم البحار فى فرنسا.

وصل الأسطول إلى إسطنبول فى ١٤ أغسطس١٨٥٣. ومن سخرية القدر أن الجيش المصرى قد رابط فى المكان نفسه الذى اندحر فيه من قبل عشرين عامًا من قبل الجيش الروسى، الذى حضر بطلب من السلطان محمود للحيلولة دون استيلاء القوات المصرية على إسطنبول.

بدأت أول الصدامات العسكرية بين أقسام الجيشين المصرى والروسى فى ٢٣ أكتوبر عام ١٨٥٣ فى "روملية"، وفى ٤ نوفمبر حدث اشتباك عنيف بالقرب من مدينة "أولتنيتسا" استمر لمدة ثلاثة أيام. حسب ما قاله عمر طوسون: "أبدى الجنود المصريون فيه شجاعة نادرة"، هذا ما تؤكده المصادر الروسية "أن تلك القوات كانت الأحسن بين الجيش التركى". تجاوزت الخسائر من الجانبين عدة مئات من القتلى والجرحى. وحسب المصادر الفرنسية كانت الخسائر أكبر فى الجانب الروسى.

فى تلك الأثناء تلقى عباس باشا أمرًا بإرسال جيش النجدة الثانى إلى السلطان العثمانى. وتم إرسال ذلك الجيش بالكامل إلى اليونان تحت ضغط الثورة المشتعلة هناك. وبالفعل تم إخماد الثورة بواسطة قوات الجيش التركى- المصرى.

في الوقت نفسه مع معارك جبهة الدانوب، يبدأ أسطول البحر الأسود الحربي الروسي في العمل. في أثناء طواف الباخرة "فلاديمير" بقيادة الأدميرال- أديوتانت "كورنيلوف" بمحاذاة الشاطئ الغربي للبحر بهدف أسر السفن التركية، تحدث معركة بينها وبين السفينة المصرية "برواز- بحري" في ٥ نوفمبر، ويتم إجبار السفينة المصرية على تنزيل علمها ويتم أسر ٩٣ بحارًا.

كانت موقعة سينوب على الشاطئ الغربي للبحر الأسود أبرز الصدامات البحرية بين الأسطولين الحربيين الروسي والتركي- المصري. هناك اكتشف الأسطول الروسي موقع الجزء الأكبر من الأسطول التركي. كان أسطول الأعداء بقيادة التركي نائب الأدميرال عثمان باشا، الذي وجد نفسه محاصرًا في الميناء. وكان الأسطول التركي مكونًا من ١٦ سفينة بها ٤٧٦ مدفعًا. كانت السفن تقل ٤ آلاف جنديًا، من المفترض إنزالهم في ميناء باتومي لتعزيز جيش الأناضول.

قبل الاشتباك، اقترح الأدميرال "ناخيموف" على عثمان باشا الاستسلام، لكن الأدميرال التركي رفض اقتراحه. كانت السفن التركية محاصرة في مكان مكشوف ومحرومة من ميزة المناورة. وكانت نيران مدافعها أقل قوة من السفن الروسية؛ لذا كانت خسارة الجانب التركي كبيرة، حيث بدأت السفن التركية تغرق واحدة تلو الأخرى. كانت الفرقاطة المصرية "دمياط" ضمن سفن الأسطول التركي التي هوجمت، وكان على ظهرها ٥٦ مدفعًا وفرقة من ٥٠٠ شخص بقيادة أحمد إبراهيم بك. بعد معركة قصيرة استسلمت الفرقاطة، ووقع في أيدي الروس أكثر من مئة من المصريين. عند التحقيق معهم اتضح أن "القائد والضباط غادروا الفرقاطة طلبًا للنجاة بشكل مشين، وركضوا على الشاطئ". في معركة سينوب فقد الأسطول العثماني ٢٠% من سفنه و١٢% من قوة نيرانه(٢١).

كانت أضخم خسارة للأسطول المصرى، هى التى حدثت أثناء حملة القـــرم، وفيها تحطمت سفينتان حربيتان مصريتان فى نهاية أكتـــوبر عـــام ١٨٥٤ أثنـــاء إبحارهما إلى إسطنبول للإصلاح، عندما هبت عاصفة هوجاء وسط ضباب كثيف مما أعاق دخول السفينتين إلى مضيق البوسفور بسهولة. وعند مـــدخل المـــضيق ازداد الإعصار قوةً فاصطدمت السفينتان "مفتاح الجهـــاد" و"البحيـــرة" ببعـــضهما بعض، وحدث تلف خطير بهما، فغرقتا بما على ظهريهما من بحارة وقُتِـــل ١٩٢٠ شخصًا، ومن بينهم قائد الأسطول المصرى حسن باشا الإسكندرانى وأحـــد أحـــسن قادة الأسطول محمد شنان بك، وتم إنقاذ ١٣٠ شخصًا فقط.

فى تلك الأثناء تواصلت المعركة على جبهة الدانوب. كان الهدف الأساســـى للقيادة الروسية فى المرحلة الأولى للهجوم، هو الاستيلاء على قلعـــة "سيليـــسترا" التركية التى تقع على الضفة اليمنى لنهر الدانوب. وهنا بالتحديد، وقع قتال قـــاسٍ بين الروس والقوات المصرية. كانت "سيليسترا" تمثل أهمية اســـتراتيجية للجـــيش الروسى، حيث إنها مفتاح الطريق إلى "ولاشيا".

كانت أهم طوابى "سيليسترا" طابية العرب، وبدون الاستيلاء عليها يـــصبح مستحيلاً أخذ القلعة بأكملها. لقد سموها باسم العرب، لأنهـــم كـــانوا يحرســـونها ويدافعون عنها، وكان منهم من أرسله عباس باشا لمساعدة السلطان التركى. دافـــع عن تلك الطابية أربع كتائب مصرية. عدا تلك الكتائب، كان بالقلعة بعض الأتراك وخمسمئة من الألبان تحت قيادة حسين بك، بينما كان قائد القلعة الجنرال- ميجور حسين باشا. وكانت بقية المفارز المصرية فى القلعة مباشرة.

وطبقًا للوثائق الموجودة فى أرشيف التاريخ العسكرى الحكومى الروســـى، جرت الأحداث كالتالى: استولى الروس على بضع جزر فى مجرى نهر الـــدانوب مقابل قلعة سيليسترا، وفى ١٠ مايو نصبت بطاريات المدافع بمحاذاة النهر. فى ١١

و١٢ مايو، بدأ قصف عاصف للقلعة، لكنه لم يفض إلى أى نتيجة. فى ذلك الوقت وصلت تعزيزات روسية جديدة، وأصبح عدد القوات المحاصرة للقلعة، يُقدر بنحو ٤٠ ألف شخص بقيادة الأمير باسكفيتش.

فى ١٩ مايو تمت أول عملية استطلاع ضد الطابية العربية؛ حيث تركزت القوات الضخمة الروسية وراء خط مدى المدفعية، وبدأت قوات المشاة فى التحرك إلى الأمام. وبعد قصف مدفعي لفترة وجيزة، أرسل قائد المفارز المصرية فى القلعة إلى الهضبة فصيلة من المصريين، فقسَّمت المشاة الروس إلى قسمين، فاضطروا إلى الرجوع إلى الخلف.

و فى ٢٠ مايو تعرضت الطابية العربية إلى القصف من اثنتى عشرة بطارية تحمل ٧٢ مدفعًا، وفى اليوم التالى انطلقت الهجمة الأولى عليها. ولكن تم صد تلك الهجمة، وتكبد المهاجمون الروس خسائر كبيرة. وفقط فى ٢٧ مايو، بعد إعادة توزيع للقوات والإمداد بالقوى البشرية والسلاح، قام الجيش الروسى بهجوم قوى على الطابية. وتجددت موجات الهجوم ثلاث مرات، وأظهرت الحامية المصرية من خلالها بسالتها وصدت المهاجمين. لكن الروس تمكنوا من تجاوز الخندق الذى يحيط بالقلعة، وحاولوا تسلق سور القلعة شديد الانحدار باستعمال الحراب، ولكن المدافعين عن الطابية لم يعطوا الروس الفرصة ودفعوهم إلى الخلف فى الخندق.

أكثر من ذلك، قام الفرسان المصريون بهجوم مفاجئ فى الليلة التالية مباشرةً حيث أغاروا على مواقع الكتائب الروسية وأجبروها على التزحزح إلى الوراء. وبلغت خسائر الروس، وفق تقارير القتال، ١٥٠٠- ١٨٠٠ قتيل.

بدءًا من٣١ مايو، قامت المدفعية الثقيلة لقوات الحصار ومدافع أسطول الدانوب بقصف مكثف للقلعة وطوابيها. وتم توجيه الضربة الأساسية لطابية

العرب. فى الوقت نفسه، وتحت السور الأساسى للطابية، حدثت محاولة لرشوة من فيهـا بهدف تلغيمها. لكن المصريين عرفوا بموضوع الرشـوة، ومنعـوا نـسف جدران القلعة.

كان من المقرر شن الهجوم النهائى فى فجر ٢١ يونيـو، وأخـذت القـوات مواقع الهجوم بالفعل. لكن فى منتصف الليل، قام الفيلد مارشال باسـكفيتش برفـع الحصار وبدأ بسحب قواته من تحت القلعة[٢٢].

دون الانتقاص من بسالة وبطولة الضباط والجنود المصريين فى المقاومـة العنيدة فى أثناء حصار "سيليسترا"، فإننا نذكر أن انسحاب القوات الروسية من حول القلعة لم يكن أساسًا لأسباب حربية، ولكن نتيجة لأخطاء فى الحـسابات الـسياسية للقيصر نيقولا الثانى فى تقدير سياسات النمسا وبروسيا. دفعت التغييرات الـسريعة الحادثة فى تطور العلاقات النمساوية- البروسية، والنمساوية- التركية إلى الإسراع بفك الحصار عن سيليسترا وسحب القوات الروسية من إمارات الدانوب، وذلك مـا حدث فعلاً.

توفى عباس باشا فى ١٤ يوليو ١٨٥٤، وأخذ مكانه الوالى الجديـد سـعيد باشا، الذى أرسل نجدة ثالثة من القوات المصرية إلى القرم بناء على أمر من الباب العالى. ضمت، حسب إرادة السلطان، ست كتائب مشاة (١٢٦٠٠ جندى) وفرقـة فرسان (١٢٠٠ جندى) وست بطاريات مدفعية بها ٣٦ مدفعًا.

فى ١٤ سبتمبر ١٨٥٤، قامت أكثر من ٣٠٠ سفينة نقل بإبرار قوات إنـزال "أنجلو- فرنسية- تركية" تحت غطاء عديد مـن الـسفن الحربيـة فـى منطقـة "إيفباتوريا". وفى ٤ أبريل ١٨٥٥، تم إرسال القوات المصرية للنجدة الثالثة بقيـادة القائد العسكرى البارز "منيقلى باشا" من إسطنبول إلـى مـسرح العمليـات فـى "إيفباتوريا"، المحتلة من قوات الحلفاء. وكانت مهمة تلك القـوات الطليعيـة مـع

الأتراك، الاحتفاظ بتلك المدينة كرأس جسر لهجوم قوات الحلفاء إلى عمق شبه جزيرة القرم. وكانت حامية مدينة" إيفباتوريا" تتكون من ٤٠ ألف جندى، من ضمنهم خمس كتائب مشاة مصرية (١٥ ألف جندى)، تحت قيادة "منيكلى باشا"، الذى حاز بعد ذلك على النيشان "المجيدى" التركى بفضل دفاعه عن "إيفباتوريا"[٢٣].

وكما يقول المؤرخ المصرى البارز عبد الرحمن الرافعى: كانت معركة "إيفباتوريا" حامية الوطيس، إذ حدثت الصدامات الأولى بين القوات المصرية والجيش الروسى فى ١١- ١٨ فبراير ١٨٥٥. على الرغم من الهجوم القوى للقوات الروسية بقيادة الجنرال خروليف، أحدثت المدفعية المصرية- التركية ومشاتها خسائر كبيرة فى الجانب الروسى المهاجم، وأجبرته على الانسحاب. خسر الروس فى ذلك القتال خمسمئة قتيل، وفقد الأتراك والمصريون ١٠٠ قتيل و٣٠٠ مصاب [٢٤].

وفى هذه المعركة لقى حتفه القائد العام للقوات البرية المصرية سليم باشا فتحى، وذلك أثناء هجوم ليلى فى٢٩ فبراير قامت به كتائب روسية. كان مركز قيادة سليم باشا فى مقدمة قواته مباشرة، فتلقى جروحًا مميتة. وكان مقتله خسارة كبيرة للجيش المصرى، تركت آثارًا قاسية على الضباط والجنود. كتب الرافعى عنها: "تلقت مصر خبر وفاته بالألم، فلقد خسرت بموته قائدًا فريدًا للجيش بكل مواهبه وقدراته، وإنسانا نزيهًا. لقد حاز احترام جنوده وحب أصدقائه بفضل الشجاعة والجرأة التى كان يتحلى بهما"[٢٥]. فى"إيفباتوريا" أيضًا مات قائدا كتيبتين للمشاة المصريين. لقد تم دفن سليم باشا فى "إيفباتوريا"، وعلى قبره تم وضع نصب برونزى. نتيجة لوفاة سليم باشا، كلف والى مصر سعيد باشا، أحمد باشا بتولى القيادة العامة، وعين بولكوفنيك على بك مبارك قائدًا لأركان الجيش.

فى أواسط يونيو ١٨٥٥، تم نقل جيش مصرى- تركى من عشرة آلاف فرد بقيادة عمر باشا، إلى القرب من مدينة سيفاستبول، وانضم إلى الفرقة الثانية الإنجليزية فى منطقة مرتفعات "إينكرمان"، حيث تمت الاستعدادات للهجوم على سيفاستوبول، التى وقعت فى سبتمبر ١٨٥٥ بعد عام من الدفاع المجيد.

بعد استسلام سيفاستوبول، قرر القائد العام لقوات الحلفاء "بيليسييه" القيام بعمليات استطلاع بهدف مواصلة الهجوم. لتحقيق تلك المهمة، فأرسل ثلاث فرق فرسان فرنسية تحت قيادة الجنرال "دولونفيل"، وثلاث كتائب مشاة تحت قيادة الفيلد مارشال التركى أحمد باشا: اثنتان منهما من الأتراك، وكتيبة واحدة من المصريين.

وقعت اشتباكات صغيرة بين القوات الروسية وقوات الحلفاء فيما بعد. كانت قيمة تلك المعارك تكتيكية فقط، حيث إن القيمة الاستراتيجية الكبيرة اكتسبتها العمليات العسكرية فى "طرابزون"، وبالقرب من "قارص"، حيث انتقل إلى هناك جيش مصرى مؤلف من ثلاثة آلاف جندى حيث عانى المصريون من خسائر كبيرة هناك، أسهم فى زيادتها صقيع الشتاء القارس فى عامى ١٨٨٥ و١٨٨٦، ونقص إمدادات الغذاء. كما أن مرض الكوليرا كان يحصد أرواحًا كثيرة، بلغت ثمانين شخصًا فى اليوم[٢٦] .

انتهت مغامرة العملية العسكرية التى قام بها الجيش التركى بقيادة عمر باشا فى مينغريليا، وتحت إلحاح من قائد القوات الإنجليزية فى القرم، بهزيمة فادحة. بعد تلك الهزيمة القاضية التى أحدثتها القوات الروسية بالتعاون مع المتطوعين من أهالى مينغريليا، ركب بقايا جيش عمر باشا السفن وانسحبوا جميعًا، وكانت من بينهم وحدات مصرية.

لم تمانع الحكومة الإنجليزية ذلك الانسحاب، فتوقفت الأعمال القتالية في نهاية عام ١٨٥٨، وتم توقيع هدنة في ١٣ فبراير عام ١٨٥٦، وتم توقيع معاهدة سلام في الاجتماع الأخير لمؤتمر باريس في ٣٠ مارس.

بعد توقيع اتفاق السلام، أرسل السلطان عبد المجيد فرمانًا إلى والى مصر سعيد باشا في أول مايو ١٨٥٦، يشكره فيه على المساعدة التي قدمتها مصر للسلطنة، إذ لم تقدم مصر للباب العالي فقط جيشها وأسطولها، بل وأسلحة ومساعدات مالية. في عهد عباس باشا قدمت مصر ٨٥ ألف جنيه مصري، وفي ديسمبر ١٨٥٣ أرسلت إلى إسطنبول ٢٥ ألف قطعة سلاح، وفي أكتوبر ١٨٥٤ قدمت ٣٦ مدفعًا و ١٠٨٠ قذيفة وغيرها.

إذا قمنا بتحليل مصادر أرشيف التاريخ العسكري الحكومي الروسي وأيضًا الأدبيات الروسية والمصرية في الموضوع نفسه؛ فسنصل إلى نتيجة مفادها أن اشتراك القوات المسلحة المصرية في حرب القرم، بغض النظر عن خسائرها الكبيرة فيها خاصة في الأسطول الحربي (نحو ١٠ آلاف قتيل)، قد ساعدت في استعادة القدرات الدفاعية، وأكدت الخصائص القتالية للضباط والجنود المصريين التي أنتجتها إصلاحات محمد على الحربية. بفضل اشتراك الجنود والضباط المصريين في حرب القرم، استطاع سعيد باشا إلغاء القيود والشروط المفروضة على مصر في عام١٨٤١ (*)، وتلقى من الباب العالي في عام ١٨٥٦ موافقة على

(*) بناء على قرار السلطان العثماني في ١٣ فبراير١٨٤٢ (فرمان) تقرر ألا يزيد عدد الجيش المصري في زمن السلم على ١٨ ألف جندي وللباب العالي أن يرفعه إلى ما شاء في زمن الحرب، وليس لمصر أن تبني سفنًا حربية إلا بإذن صريح من الباب العالي. ولكن لما أخلت الدولة العثمانية في حرب ضد روسيا (حرب القرم) احتاج السلطان مساعدة حربية من مصر فسمح لسعيد باشا بزيادة عدد الجيش وبناء سفن حربية للمجهود الحربي. (المراجع)

زيادة أعداد الجيش النظامى من ١٨ ألفًا إلى ٣٠ ألف شخص. وفى عهـد سـعيد باشا، كما فى عهد محمد على اكتسب الجيش بشكل ملحوظ صفة الوطنية، وامتلأت صفوفه بأبناء الفلاحين، وخرج الضباط من صفوف المصريين الذين تلقى الأكفـاء منهم تعليمًا عسكريًا، أهّلهم لتبوء المناصب القيادية.

ويستمر الحوار الثقافى- الحضارى بين مصر وروسيا، ذلك الحوار الـذى بدأ منذ المواجهة بين الجيشين المصرى والروسى فى ضواحى إسطنبول فى عـام ١٨٣٣، ويا له من تناقض ظاهرى يجمع بين المواجهة والحوار! لقـد اسـتمرت زيارات الشخصيات السياسية والاجتماعيـة، والكتـاب، والأطبـاء، والمـوظفين الحكوميين، والمتدربين وغيرهم إلى مصر طوال ثلاثينيـات وأربعينيـات القـرن التاسع عشر. وهنا يجب أن نذكر الاتصالات الهادفة لمحمد على وابنـه إبـراهيم ومراسلاتهم الشخصية مع المستشار ك.ف.نيسيلرود، بغرض ترتيب التنقيب عـن الذهب فى مصر، وإخفاء ذلك الأمر الخاص بملء الخزانة المصرية بعيـدًا عـن أعين الباب العالى. عندما وجد محمد على، حاكم وادى النيل البارز، نفسه وجهًـا لوجه مع الدول الأوروبية الكبرى، أمعن التفكير فى علاقات تلك الـدول المعقـدة والمتشابكة مع الإمبراطورية الروسية، وأخذ خطوة جدية نحو التقارب مع روسيا.

كانت وفاة محمد على وابنه الموهوب إبراهيم باشا فى وقت واحد تقريبًـا(*)، وأيضًا حرب القرم سببًا فى قطع الطريق على حركة العلاقات الثقافية الروسـية- المصرية وهى فى مهدها. ولكن البحر الأسود والدانوب وآسيا الصغرى والقوقـاز

(*) لما شعر محمد على بضعف واعتلال صحته عهد إلى ابنه إبراهيم باشا بمهمة الحكم فى أبريل ١٨٤٨ ووافق السلطان العثمانى على ذلك لكنه مات فى ١٠ نوفمبر١٨٤٨، أى لم يمض فى الحكم إلا نحو ثمانية أشهر وعاد محمد على للحكم مرة أخرى إلى أن توفى فى ٢ أغسطس ١٨٤٩. (المراجع)

وشبه جزيرة القرم، حيث وقعت العمليات الحربية بين الروس والمصريين، مثلت ساحة للتعارف الواسع بين الشعبين ولتعميق الحوار الحضارى الثقافى بينهما.

وفى ذلك السياق، يمكننا رصد إحدى النتائج الإيجابية للحرب الشرقية على العلاقات الروسية- المصرية السياسية والعسكرية، ألا وهى دعوة الجنرال ر.أ.فادييف (١٨٢٤- ١٨٨٣) للقيام بتحديث الجيش المصرى التى وجهها الخديو إسماعيل فى عام ١٨٧٠، ذلك الخديو الذى يعد أكثر خلفاء محمد على الثلاثة المذكورين سابقًا استقلالية. وقد لبى الدعوة الجنرال فادييف فى عام ١٨٧٤.

وقد قضى ر.أ.فادييف فى مصر فترة عامين، وتركها فى عام ١٨٧٦ قبيل الحرب الروسية- التركية، وبقى على علاقة حسنة بالحكومة المصرية وبالأخص مع الخديو إسماعيل، الذى عرض عليه حتى قيادة الجيش المصرى. كان هدف مهمة الجنرال من الجانب الروسى فى القاهرة إقناع إسماعيل بمحاربة تركيا، وارتبط ذلك بشهرة الجنرال ر.أ. فادييف فى أنحاء مصر، حيث اعتبروه بمثابة "وزير الحربية المصرية". وفى خلال العامين، كان المستشار المقرب للخديو، دافعًا إياه إلى سياسة أكثر استقلالية، وهو يدرك كم هو مفيد أن يفصل بين مصر وتركيا. لقد رفع من دور مصر، وساعدها فى التحرر من سلطة السلطان العثمانى(٢٧). وبالمناسبة فقد تحدث بعض ممثلى الدوائر الدبلوماسية (ن.ب.إيجناتييف، إ.أ.نيليدوف) عن التقديرات بشأن تأييد مصرى لروسيا فى حالة وقوع حرب روسية- تركية جديدة. ولعل الوحيد الذى عارض ذلك التقدير، هو القنصل العام الروسى فى القاهرة إ.أ.ليكس الذى أكد "أن هذا أمر غير واقعى، لأن هذه الخطوة من الخديو لا يمكن أخذها دون موافقة إنجلترا".

لم يتأخر تحقيق توقعات القنصل. فى سياق الحرب الروسية- التركية ١٨٧٧- ١٨٧٨، وقفت مصر إلى جانب الباب العالى، وقدمت له مساعدة عسكرية

كبيرة جدًا. وتحت ضغط تركيا وإنجلترا منع الخديو مرور السفن الروسية فى قناة السويس، على الرغم من التأكيدات الروسية أنها لا تنوى تهديد مصر أو أمن وحرية الملاحة فى قناة السويس. وكما تظهر رسالة المستشار الحكومى الأمير "أ.م. جورتشاكوف" إلى الأمير "شوفالوف" فى لندن: "لا تأمل الحكومة القيصرية فى حصار، ولا قطع الملاحة فى قناة السويس ولا تهددها بأى طريقة من الطرق، لأنها تعتبر القناة منشأة دولية مهمة لكل تجارة العالم ويجب أن تظل بعيدة عن أى هجوم. مصر جزء من الإمبراطورية العثمانية، وقواتها موجودة ضمن الجيش التركى. لذا من الممكن أن تعتبر روسيا نفسها فى حرب مع مصر، ولكن فى الوقت نفسه تأخذ الوزارة القيصرية فى حسبانها المصالح الأوروبية فى ذلك البلد، خاصةً مصالح إنجلترا. ولذا لا تدخل روسيا مصر فى نطاق عملياتها العسكرية(٢٨).

طلب الخديو إسماعيل رحيل القنصل العام الروسى من مصر استرضاءً لبريطانيا العظمى والسلطنة العثمانية، وبرر ذلك بأن وجود القنصل فى القاهرة يعطى السلطان ذريعةً للشك فى وجود علاقات بين الخديو وأعداء السلطنة، وأنه فى حالة رحيل القنصل "ليكس" عن القاهرة، سيصبح سهلاً عليه وبأعذار مختلفة أن يتجنب ادعاءات الباب العالى.

وهنا تجب الإشارة إلى أنهم فى بطرسبرج تفهموا أيضًا الضرورة وراء قرار الخديو بتقديم المساعدة العسكرية للسلطان. ولذلك تحديدًا، لم تضع مشاركة القوات المصرية فى الحرب الروسية- التركية بصمات سلبية على العلاقات المتبادلة بين روسيا ومصر. والأكثر من ذلك أن روسيا سرعان ما جددت واستعادت علاقاتها الدبلوماسية مع مصر، محاولةً أن تضعف من مواقع إنجلترا فى مصر.

يمكننا اعتبار حرب البلقان كسابقتها حرب القرم، قد وسعت من آفاق العلاقات الحضارية الثقافية بين مصر وروسيا. وتعطي للقارئ الأرشيفات الروسية، خاصةً أرشيف التاريخ العسكرى، معلومات إضافية تؤكد - بالدليل الملموس- تصوراتنا عن ذلك الموضوع. والمعلومات المتعلقة بالحرب الروسية- التركية ١٨٧٧- ١٨٧٨ توجد فى أرشيف التاريخ العسكرى الحكومى بالأساس فى المجموعات الوثائقية المتكاملة ٤٠١، ٤٥١، ٤٥٢، ٤٨١.

فى تقرير مؤرخ فى عام ١٨٧٦ نقرأ: "على الرغم من وضع الخديو المالى الصعب للغاية، فإنه اتخذ قرارًا بالمشاركة الفعالة فى الحرب الجارية فى شبه جزيرة البلقان. وبناءً على طلب السلطان أرسل، بأريحية مبالغ فيها، قوات نجدة إلى القسطنطينية مكونة من ستة آلاف جندى مشاة بمصاحبة مدفعية ضخمة مع تسليح الجنود وإمدادهم بوفرة من الذخيرة الحربية. وتمت زيادة تلك القوات فيما بعد بتعزيزات إضافية"(٢٩). يتفق مع تلك المعلومات، ما ضمنه عبد الرحمن الرافعى فى كتابه "عصر إسماعيل"(٣٠)، حيث يذكر أن روسيا قد حرضت الإمارات(*) فى البلقان على الثورة وأعدت نفسها للتدخل فى أحداث شبه جزيرة البلقان، بعد أن تلقى تركيا بقوتها لإخماد تلك الاضطرابات المحلية التى كانت ذروتها ثورة الهرسك فى عام ١٨٧٥ والتى امتدت إلى البوسنة. ساعدت صربيا

(*) كانت الدولة العثمانية تسيطر على إمارات البلقان ابتداءً من ١٤٥٣، ولما كانت شعوب البلقان هذه مسيحية العقيدة فقد استاعت دول أوروبا من خضوع هذه الشعوب لحكم إسلامى بالمعنى الاصطلاحى. ولهذا عملت هذه الدول على إثارة شعوب البلقان على الحكم العثمانى لكى تحصل على استقلالها. كانت "الصرب" أول من حصل على الحكم الذاتى بناء على الثورة فى ١٨٠٤. وخلال سبتمبر وأكتوبر١٨٧٥ امتدت الثورة إلى البلغار وإلى شعب الهرسك والبوسنة فاستنجدت الدولة العثمانية بجيش مصر زمن الخديو إسماعيل لمواجهة حركة الانفصال التى كانت روسيا وراءها.(المراجع)

الثوار بقوة، فطلبت تركيا من الخديو إسماعيل نجدات من القوات، فأرسل سبعة آلاف جندى وضابط بقيادة الأميرلاى رشيد باشا حسنى، اشتركوا مع الجيش التركى فى إخماد السلافيين. فى ٣١ أغسطس ١٨٧٦ تولى السلطان عبد الحميد العرش. ويذكر الرافعى بعد ذلك أن القوات المصرية اتجهت إلى إسطنبول. ليس معروفًا على وجه الدقة، هل رجع المصريون إلى ديارهم أم بقوا؟ فى الغالب أنهم رجعوا إلى مصر.

دارت الأحداث السابقة لمشاركة مصر فى هذه الحرب كالتالى، فى أبريل ١٨٧٧ دخلت تركيا فى حرب مع روسيا فى البلقان. طلب السلطان المساعدة العسكرية من الخديو إسماعيل؛ لكنه تباطأ فى إرسالها لسوء الأحوال المالية فى البلاد، ومواقف الدائنين والمفتشين المترتبة على ذلك، مما أدى إلى غضب السلطان وحنقه. ارتعب الخديو من رد فعل تركيا، وخاف من أن يبقى وحيدًا فى وجه الدول الأوروبية فى تلك الظروف الصعبة، فقرر أن ينفذ أمر السلطان. ولكى يحل الخديو مشكلة تمويل الحملة العسكرية، قدم إلى مجلس شورى النواب مشروعًا لتحصيل "ضريبة حربية"، تمثل ١٠% من الموارد العامة للميزانية لتمويل إعداد جيش الاستكشاف المكون من اثنى عشر ألف جندى بقيادة ابن الخديو حسن باشا[٣١]. تؤكد معلومات المجموعات الوثائقية لأرشيف التاريخ العسكرى هذا الرقم المذكور عند الرافعى. كان لدى تركيا فى ميدان القتال ٣٧٧ ألف جندى، من بينهم ١٢ ألف مصرى، حسب المعلومات المتوافرة لدى القيادة الميدانية للجيش الروسى فى البلقان[٣٢].

وتتعرض وثائق "المنتخب البحرى" لذلك الموضوع فتذكر: "وهكذا تكرر الموقف، ومثلما حدث فى السنين الماضية، يحدث الآن. تعجلت تركيا فى صراعها مع روسيا طلب القوات العسكرية المساعدة من مصر". وهنا يخبرنا المصدر بأن

الخديو يجب عليه تقديم عشرة آلاف جندى بطلب من الباب العالى، ستمثل قوات المقدمة للجيش ستة آلاف من المشاة و ١١٠ من الفرسان و ٥٠٠ من قوات المدفعية ببطاريتين من المدافع. عدا ذلك أهدى الخديو السلطان ٥٠٠ بندقية من طراز "ريمينجتون"، ومليون رصاصة وبطارية ميدان وثلاثة زوارق بخارية للعمل فى نهر الدانوب. تم تحميل القوات على أحسن سفن الأسطول التجارى المصرى التى تم بناؤها فى ترسانات نهر كلايد وميناء طولون، وهى: "المحلة"، "الفيوم"، "البحيرة"، "الشرقية"، "الغربية"، "مصر"، "الرحمانية"، "طنطا". تكونت القافلة البحرية المصرية أيضا من الفرقاطة "محمد على"، والسفينتين الشراعيتين الحربيتين السريعتين "سنار" و"دنقلة". تعطلت طلائع حملة القوات البحرية الحربية عن الإقلاع لمدة أسبوعين، وبحسب كلمات المصريين، بحجة أن "الأسطول الروسى خرج من روسيا إلى البحر فى اتجاه غير معروف، وأن حملة الإنزال المصرية قد تلتقى معه، وأننا لا نستطيع المخاطرة بسفننا والبشر، ولو حتى من أجل تركيا". ليس من الصعب علينا فهم ما تعنيه المخاطرة، إذا تذكرنا تاريخ العلاقات البحرية- العسكرية المتبادلة بين روسيا ومصر. وأخيرا خرجت من الإسكندرية حملة الإنزال العسكرى المصرية، فقط بعد وصول قافلة تركية مكونة من أربع سفن فى ١١ مايو ١٨٧٧. وبعد خمسة أيام تم إرسال ناقلات بحرية محملة بثلاثة آلاف جندى(٣٣).

على النقيض من الحرب الشرقية عامى ١٨٥٣- ١٨٥٦، لم يبد الجنود والضباط المصريون الروح القتالية العالية فى حرب البلقان عامى ١٨٧٧-١٨٧٨، ولعل ذلك بسبب أنهم قد ملوا من القتال لأجل مصالح الآخرين، ولم يكن ذلك بعيدا عن انتباه الحكومة الروسية. كان من الممكن أن تكون مشاركة المصريين فى الحروب ضد روسيا سببا فى تدهور العلاقات مع مصر، ولكن ذلك لم يحدث. أولا لأن العزلة السياسية التى عانت منها روسيا فى ذلك الوقت، بالإضافة إلى

مصالحها فى الشرق، تطلبت من الدبلوماسيين الروس اتخاذ سياسة مرنة تجاه مصر. ولذا لم يحدث اشتراك القوات المصرية، فى الحروب الروسية- التركية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، تغييرًا فى العلاقات الودية بين البلدين. بل أكثر من ذلك، وجهت وزارة الخارجية الروسية انتباه قنصلها العام فى القاهرة "إيفان ليكس" بعد انتهاء حرب ١٨٧٧- ١٨٧٨ إلى: "أن يحاول بقدر استطاعته تضليل انتباه إنجلترا التى تملك تفوقًا فى مصر، وأن يتجنب التدخل المباشر فى شئون الحكم فى مصر، ولكن ليبذل جهوده للاستحواذ على نفوذ شخصى على الخديو ووزرائه، وأن يفهمهم من طرف خفى أنه على الرغم من تصرفاتهم المعادية تجاه روسيا فى الحرب الماضية، فإن الحكومة القيصرية ستظل كعهدها السابق تنظر بود إلى المصالح المصرية"[٣٤].

أثناء حرب البلقان، أقام الجنود المصريون فى مدن وقرى: أندريانوبول، دوبرودجيه، بازاردجيك، شيبكا، سالونيكى، صوفيا، القسطنطينية. وعند نهاية الحرب، فى يناير ١٨٧٨، انتقل جيش الحملة المصرية، وكان يضم وقتها خمسة آلاف جندى مصرى، إلى فارنا[٣٥]. ومن المعروف أن المصريين قاتلوا ضد الروس فى أندريانوبول، وهناك وقعت مؤخرة جيشهم فى الأسر لدى الروس. وكما جاء فى مذكرات نميروفيتش- دانشنكو، تم الاستيلاء على "أرتال كبيرة من العربات، ومئة جمل"[٣٦]. يجب أن نضيف أن فى واحدة فقط من عمليات التمويه، وقع فى أيدى الروس عدة مئات من الحمارين والعربجية وغيرهم من ممثلى فئات المجندين المصريين فى مؤخرة الجيش. وقد حملت الحرب معها نتائج كارثية على الجيش العثمانى. انطلاقًا من معلومات أرشيف التاريخ العسكرى الحكومى الروسى، بلغ عدد أسرى الجيش التركى ١٤٠ ألف شخص، تم توزيعهم على مجموعات كبيرة ضمت عشرات الأشخاص، ثم نقلهم إلى ١٦٠- ١٧٠ مدينة فى الجزء الأوروبى من روسيا[٣٧]. وطبقًا لتقديرات ف.ف.بلياكوف؛ كان عدد

الأسرى المصريين يقترب من ثمانية آلاف شخص[٣٨]. تم استئجار شقق من السكان لإيواء الباشوات والضباط الذين تلقوا بدورهم مصروف جيب قدره الآتي: الباشوات- ١٠١٧ روبل في السنة، الضباط وفق الرتبة - من ٢٧٦ حتى ٤٤١ روبل. أما الجنود والشاويشية فتم إيواؤهم في ثكنات، لم تكن من الناحية الصحية أقل من ثكنات الرتب الدنيا في الجيش الروسي، وتم تقديم الأطعمة لهم مضافًا إليها البهارات مثل ما هو في العادات التركية، وقدموا لهم الخبز الأبيض بدلاً من الخبز الأسود الروسي، وبدلاً من حساء الكرنب تم تحضير الحساء من الحبوب والشعير. وبالطبع استلم أسرى الحرب ملابس شتوية وأحذية شتاء، وتمتعوا بخدمة طبية.

لخدمة هذا العدد الضخم من الأسرى من رعايا الإمبراطورية العثمانية، تم تكوين لجنة خاصة للإشراف على أسرى الحرب الأتراك تحت رئاسة الجنرال- أديوتانت الأمير "جولتسين". ضمت بشكل رئيسي العاملين في مجال الطب، وكان من ضمن اختصاصاتها المرور وتفقد أحوال الأسرى، والتفتيش على ظروف معيشتهم، وعلاجهم، والسماع إلى شكاواهم ورغباتهم. وكانت اللجنة ترسل بتقاريرها إلى العاصمة[٣٩].

ولقد اختلط الأسرى بالسكان الروس المحليين، واستطاعوا الحصول على عمل. وفي هذه الحالة كانوا يعطون نصف رواتبهم للسلطات مقابل نفقات معيشتهم، ويحتفظون بالنصف الآخر لإنفاقه لو أرادوا، أو ادخاره ليأخذوه معهم إلى أوطانهم. ناهيك عن أنهم كانوا يستطيعون الحركة بحرية في حدود النقطة السكنية التي يعيشون فيها.

طبقًا لمقررات مؤتمر برلين في بداية ديسمبر، تم إرسال الأسرى إلى أوطانهم عبر مسار أوديسا أو سيفاستوبول - القسطنطينية- الإسكندرية. نتيجة لذلك، أعلنت القيادة العامة الروسية في نهاية سبتمبر عام ١٨٨٠، أنه لم يعد هناك

أسرى حرب فى روسيا بعد أن بدأت فى ترحيلهم فى ديسمبر عام ١٨٧٨[٤٠]. كان السبب فى تمديد فترة الترحيل، هو أن الأسرى مبعثرون على مساحة جغرافية واسعة فى روسيا. وبالمناسبة كان عدد الأسرى الأتراك ومن بينهم العرب فى "الحرب الشرقية"، والذين تم أسر أغلبهم بالقرب من "قارص" قليلاً؛ لذا تم إطلاق سراحهم بسرعة فى ديسمبر ١٨٥٦. تذكَّر العرب جيدًا حرب القرم، حتى فى المناطق النائية فى الإمبراطورية العثمانية. وبعد نهاية حرب القرم بأكثر من عقد ونيف، تجول الرحالة الروس فى الجزائر، وسمعوا هناك كلمات المديح والإطراء عن أحداث أواسط خمسينيات القرن التاسع عشر، وعن الموسكوف: "قابيل وموسكوف- أصدقاء!"[٤١].

أدت إقامة الأسرى المصريين فى عدة مناطق فى روسيا ولفترة طويلة نسبيًا إلى عدة حقائق مثيرة. فقد بقى بعض الأسرى المصريين فى روسيا لظروف خاصة، وحصلوا - برغبتهم - على الجنسية الروسية. بل إن مجموعة منهم اعتنقت المسيحية وتم تعميدها مسيحيًا، واتخذت أسماء روسية[٤٢].

من بين هؤلاء إبراهيم أفندى شكرى، وهو ضابط مصرى برتبة صاغ، الذى لم يرجع إلى وطنه مع بقية الأسرى المصريين الذين تناقلوا خبر إقامته فى روسيا. بعد مراسلات اشتركت فيها وزارة الخارجية المصرية والقنصلية العامة الروسية فى القاهرة والإدارة الآسيوية بوزارة الخارجية الروسية والقيادة العامة فى سان بطرسبرج، اتضح أن" الضابط المذكور قد أخذ الجنسية الروسية وفق رغبته، ويعيش فى مدينة سان بطرسبرج"[٤٣].

لم تكن مدينة سان بطرسبرج وحدها التى جذبت إليها المصريين ليربطوا مصيرهم بالأراضى الروسية، إذ يعطينا أرشيف التاريخ العسكرى الحكومى الروسى مثالاً آخر عن ضابط مصرى بقى فى روسيا من أجل الارتباط بامرأة

روسية؛ حيث انتقل الأسير المصرى، الملازم مصطفى كامل، للعيش فى مقاطعة "كوستروما" الروسية، وفى ٢٥ مايو عام ١٨٨٠ تم تعميده واتخذ لنفسه اسم "ألكسندر زوتوف"، وتزوج بتاريخ ٥ أكتوبر من أرملة روسية، هى "فارفارا فيدوروفا"(٤٤).

من المحتمل، أن كثيرًا من الخمسة وأربعين أسير حرب مصريًا الذين أخذوا الجنسية الروسية برغبتهم، قد قرروا ذلك بدافع الظروف الاقتصادية. أدركوا أنه فى روسيا تنتظرهم ظروف أفضل مما ينتظرهم لو رجعوا إلى مصر. وبالفعل أتاحت لهم الحكومة الروسية ظروف معيشة تفوق تلك التى كانت فى مصر، ولا تختلف عن ظروف حياة المجندين الروس. بعد عامين او ثلاثة من إقامة المصريين فى ذلك "الأسر"، أصبحوا لا يشعرون بالعداء تجاه الروس، واحتفظوا بذكريات دافئة عن أماكن روسية عجيبة ومجهولة، وعن الشتاء الروسى. لقد أظهرت أيام الأسر فيهم حب الاستطلاع والفضول. لا سيما أن الأغلبية العظمى منهم قد خرجوا للمرة الأولى خارج حدود بلادهم(٤٥). وفى هذا الخصوص يكتب المستعرب ف.ف.بلياكوف: "رجع المصريون إلى بلادهم أصحاءً وشبعانين ومهندمين، بل إن بعضهم رجع بمدخرات مالية. ترك ذلك بالطبع انطباعًا حسنًا للغاية بين مواطنيهم. لو أخذنا فى الاعتبار أن الأسرة المسلمة تتكون من عدد كبير من الأفراد وأن علاقات القرابة بينهم قوية، لأدركنا أن الصورة الإيجابية عن الناس الروس قد انتشرت بشكل واسع، ومن الممكن أن تكون قد أصبحت سائدة بين سكان الإمبراطورية العثمانية"(٤٦).

وفى عام ١٨٨١، زار المستشرق الروسى الشهير أ.ف.إيليسييف مصر مباشرةً بعد عودة المصريين من الأسر. تحدث مع أحدهم، وكان برتبة يوزباشى، ولاحظ: "أن الحرب ووجود مئات الأسرى فى ضيافة موسكو، قد أثرت بشكل مفيد

ومثمر فى كل طبقات سكان الإمبراطورية العثمانية. حتى على ضفاف النيل، من الممكن أن تقابل مصريا أصيلاً يرطن بالروسية"، ويضيف المستشرق: "عندما كان العامة من المصريين يضربون الأوروبيين أثناء قصف الإسكندرية، كانت كلمة "أنا موسكوف" تنقذ الروس القاطنين فى مصر من ذلك المصير"(٤٧).

تثير فضولنا المعلومات التى يسوقها العقيد ف.أ سولوجوب عن لقاءاته مع سكان مدينة بلبيس وغيرها من قرى دلتا النيل بعد هزيمة جيش أحمد عرابى مباشرةً فى التل الكبير فى عام ١٨٨٢(٤٨)، حيث يذكر أن المصريين فى أحاديثهم مع "سولوجوب" يكررون كلمات "موسكوف" و"روسى"، وهم سعداء للغاية لرؤية روسى والتكلم معه. هم يتعاملون مع الروس كأعداء للإنجليز، ويسألون: "متى سيأخذ الروس لندن؟"، و"أليس مع سولوجوب رسائل الحكومة الروسية التى تمنع الإنجليز من احتلال مصر، والتى تم إرسالها بشكل مباشر- كما سمعوا". يذكر سولوجوب بعد ذلك: "إن هؤلاء العرب شرحوا له كيف أن عرابى باشا قبل استسلامه رفع العلم الروسى، وأشيع - فيما بعد - عن حبه وإخلاصه تجاه الروس وكراهيته للإنجليز". بعد ذلك، ولكى يدلل المحيطون بالروسى سولوجوب على حبهم واحترامهم للروس، يقومون برفض البقشيش مقابل خدمتهم لعقيد أركان الحرب "سولوجوب"(٤٩).

تلك المواقف من المصريين تكررت فى أحاديثهم مع رحالة روس آخرين، زاروا وادى النيل فى القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. يشرح أحد المرشدين والمترجمين المصريين لعالم المصريات والطبيب الروسى أ.ف. زيفاجو فى عام ١٩١٠: "فى الإسكندرية يحبون الروس، لأن الأتراك، الراجعون من الأسر بعد الحرب منذ زمن بعيد، يمدحون مواطنيك"(٥٠). وحتى بعد خمسين عامًا كان ممكنًا أن نسمع كلمات طيبة فى حق الروس من ابناء وأحفاد الذين حاربوا ضد

روسيا ووقعوا فى الأسر الروسى. ذلك ما نقله لنا المهاجر الروسى فى عام ١٩٢٦ فاسيلى نيميروفيتش- دانتشنكو: "علاقة العرب الحسنة بنا يفسرها الذكرى الطيبة التى تركها لهم آباؤهم وأجدادهم عن فترة وجودهم فى الأسر فى روسيا عامى ١٨٧٧-١٨٧٨. لقد حكوا لأطفالهم عن الطيبة والروح العظيمة "للمسكوف"[٥١].

من المفهوم أن المجموعات الوثائقية لأرشيف التاريخ العسكرى الحكومى الروسى، هى قليلة مما يمتلكه ذلك الأرشيف عن مصر. وعلى الرغم من أن هناك بعض المجموعات التى ما زالت محجوبة بسبب ترميمها وتصويرها بالميكروفيلم وإدخالها على الحاسب الآلى، فإن الباحث يجد هنا مواد ضخمة للملحقين العسكريين والجواسيس عن الحروب الروسية- التركية المتعددة، وعن المصريين الذين اشتركوا فيها إلى جانب الأتراك، وعن الحرب العالمية الأولى والعمليات الحربية فى الشرق الأدنى، خاصةً فى سيناء ومنطقة قناة السويس.

الهوامش

١- المجموعة الوثائقية المتكاملة ٤٠١، المجموعة الفرعيـــة ٤، ملـــف ٧، ١٨٨٢، أوراق ١٣-١٦.

٢- المصدر نفسه. ملف ٨، جزء ٥، ورقة ١٤٤.

٣- المصدر نفسه، ورقة ١٦٩، وعلى ظهر الورقة نفسها.

٤- المجموعة الوثائقية ٤٠١، المجموعة الفرعية ٤، ملف ٩٢٨، الجزء الرابــع، ورقتــا ١٣٥-١٣٥ على ظهر الورقة.

٥- المصدر السابق نفسه. ورقة ١٣٥.

٦- المصدر السابق نفسه. ورقة ١٤٣، وورقة ١٤٣ على ظهر الورقة.

٧- المصدر السابق نفسه ، الجزء السابع، ورقتا ٢٠٢، ٢٠٢ على ظهر الورقة.

٨- المصدر السابق نفسه ، ورقة ٢٠٢ على ظهر الورقة، ورقة ٢٠٣.

٩- المصدر السابق نفسه. ورقة ٢٠٣.

١٠- المصدر السابق نفسه. ورقة ٢٠٣، ورقة ٢٠٣ على ظهر الورقة.

١١- المصدر السابق نفسه. ورقة ٢٠٣ على ظهر الورقة

١٢- المصدر السابق نفسه.

١٣- المصدر السابق نفسه.

١٤- المصدر السابق نفسه. ورقة ٢٠٣ على ظهر الورقة.

١٥- أوراق ٣٥ أ، ب،ج، د،هـــ، و، ز، ن، ى، ٣٦.

١٦- المجموعة الوثائقية المتكاملة ٤٠١، المجموعة الفرعية ٤، ملف ٤١، عـــام ١٨٨٢، أوراق ١- ٩٩.

١٧- الجيش المصرى البرى والبحرى للأمير عمر طوسون، مكتبة مـــدبولى، القـــاهرة، ١٩٩٦، ص ٢٠٤، د. فيليب حتي، د. إدوارد جرجي، د. جبرائيل جبور، تاريخ العرب. طبعـــة ثامنة، عام ١٩٩٠، ص ٨٣٢."بالعربية"

١٨- د.يحيى محمد محمود. إدارة الأزمات فى عصر محمد على، حرب المورة نموذجا// إصلاح أم تحديث؟ مصر فى عصر محمد على. تحريــر أ.د.رؤوف عبــاس، القــاهرة، ٢٠٠، ص٢٠٤." بالعربية"
١٩- الجيش المصرى فى الحرب الروسية المعروفة بحرب القرم ١٨٣٥-١٨٥٥. الأمير عمــر طوسون، مكتبة مدبولى، القاهرة ١٩٩٣، ص٢٤٥. "بالعربية"
٢٠- المرجع نفسه. ص٤٧، ٩٣- ٩٧. "بالعربية"
٢١- ب.إ. زفيروف. انتصار سينوب.سيمفيروبل، عام ١٩٥٤، ص ٩٦- ١٣٠.
٢٢- أرشيف التاريخ العسكرى الحكومى الروسى. المجموعة الوثائقية المتكاملة ٤٠١، المجموعة الفرعية ٤، ملف ١٠، أوراق ٨- ١٠. أيــضا المجموعــة الوثائقيــة المتكاملــة ٤٠١، المجموعة الفرعية الإضافية، ملف ٤٩٩، ورقتا ٦- ٧.
٢٣- أرشيف التاريخ العسكرى الحكــومى المركــزى. المجموعــة الوثائقيــة المتكاملــة ٤٥٢، المجموعة الفرعية ٤، ملف ٢٠٤، ورقة ٩.
٢٤- عبد الرحمن الرافعى. عصر إسماعيل، القاهرة، الطبعــة الرابعــة، ١٩٨٧، ص٤١- ٤٢. "بالعربية"
٢٥- المصدر السابق نفسه. ص ٤١- ٤٢.
٢٦- أرشيف التاريخ العسكرى الحكــومى المركــزى. المجموعــة الوثائقيــة المتكاملــة ٤٨١، المجموعة الفرعية الإضافية، ملف ٦٨٧، ورقة ٣١.
٢٧- ر.أ. فادييف. منتخب لمؤلفاته. سان بطرسبرج.١٨٨٦، الطبعة الثانية، ص ١١٩- ١٢٠.
٢٨- اقتباس مــن:ج.ف.ســيديلنكوف. الحــرب الروســية- التركيــة ١٨٧٧-١٨٧٨. ســان بطرسبرج،١٨٩٧، ص٣٤٩.
٢٩- أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية " تقارير وزارة الخارجية"- اقتباس مــن "كتاب مصر فى عيون الروس" ص ٤٦.
٣٠- عبدالرحمن الرافعى. "عصر إسماعيل"، الجزء الأول، الطبعة الرابعــة، القــاهرة، ١٩٨٧، ص١٩٩-٢٠٠."بالعربية"
٣١- المصدر السابق نفسه، ص ٢٠٠.
٣٢- أرشيف التاريخ العسكرى الحكــومى الروســى. المجموعــة الوثائقيــة المتكاملــة ٤٨٥، المجموعة الفرعية ١، ملف ٧٥٣، ورقة ٥٧.

٣٣- "المنتخب البحرى"، سان بطرسبرج، ١٨٧٧ ومجلة "الأخبار البحرية" عدد ٧، ص٦٩-٧٣. ومجلة "الأخبار البحرية" عدد ٨، ص ٨٤- ٩٢.

٣٤- تقرير وزارة الخارجية الروسية، اقتباس من كتاب " مصر فى عيون الروس" ص ٤٨.

٣٥- مجلد مواد الحرب الروسية- التركية ١٨٧٧ و١٨٧٨. الطبعة الثانية عشر، سان بطرسبرج. ١٩٠٣، صفحات ٩٠، ١٤٥.

٣٦- نميروفيتش- دانشنكو. "إفريقيا فى عيون المهاجرين". موسكو، ٢٠٠٢، ص ١٣٩.

٣٧- أرشيف التاريخ العسكرى الحكومى الروسى. المجموعة الوثائقية المتكاملة ٤٠٠، المجموعة الفرعية ٣، ملف ٢٠٣٨، أوراق ١٠٦- ١٠٧. أيضا: نفس المجموعتين المتكاملة والفرعية، ملف ٢٠٤٧، أوراق ١٠٦- ١٩٧.

٣٨- ف.ف. بلياكوف. المصريون الأسرى فى روسيا (النصف الثانى من القرن التاسع عشر) // مجلة العلوم الإنسانية، الجغرافية السياسية، والأمن. موسكو، عام ٢٠٠٥، ص ٤٥١.

٣٩- اقتباس من المصدر السابق نفسه. ص ٤٥٢.

٤٠- أرشيف التاريخ العسكرى الحكومى الروسى. المجموعة الوثائقية المتكاملة ٤٠٠. المجموعة الفرعية ٣، ملف ٢٠٥٩، ورقة ١٤. أيضا ملف ٢٩٨٨، ورقة ٤٣ على ظهر الورقة.

٤١- "مسافر حول العالم". سان بطرسبرج، ١٨٦٩، الطبعة ٣٢، ص٥٠٩.

٤٢- ف.ف.بلياكوف. مصدر سابق.

٤٣- أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. المجموعة الوثائقية المتكاملة ١٤٩، مجموعة فرعية ٥٠٢أ، ملف ١٧١٩، أوراق ٤- ٧.

٤٤- أرشيف التاريخ العسكرى الروسى. المجموعة الوثائقية المتكاملة ٤٠٠، المجموعة الفرعية ٣، ملف ٢١٠٧، ورقة ١٤ على ظهر الورقة.

٤٥- جينادى جورياتشكين. مصر وروسيا، ص١٧٢-١٧٣."بالعربية"

٤٦- جينادى جورياتشكين. نظرة للعلاقات الروسية- المصرية العسكرية حتى حرب ١٩٧٣// العناق بعد ربع قرن من الزمن. ١٩٧٣- ١٩٩٨. أبحاث الندوة العسكرية العلمية التطبيقية. موسكو،١٩٩٨، ص٦٨.(بالعربية)

٤٧- اقتباس من مصدر سابق. ف.ف.بلياكوف. ص ٤٥٣.

٤٨- أ.ف. إيليسييف. حول العالم، الجزء الثانى. سان بطرسبرج، ص ٩٩.

٤٩- أرشيف التاريخ العسكرى الحكومى الروسى. المجموعة الوثائقية المتكاملة ٤٠١، المجموعة الفرعية ٤، الملف ٤١.

٥٠- كتاب:أ.ف.زيفاجو. طبيب، هاو لجمع التحف، عالم مصريات. موسكو، ١٩٩٨، ص ١٤٤.

٥١- ف.إ. نميروفتش-دانتشنكو."عام الحرب. سان بطرسبرج، ١٨٧٨، الجزء الثانى.

الأرشيف الحكومى للاتحاد الروسى

فى موسكو هناك العديد من الأرشيفات التى من الممكن أن نجد فيها مادة تاريخية عن مصر. من تلك الأرشيفات، الأرشيف الحكومى المركزى لثورة أكتوبر الذى أصبح يطلق عليه اليوم "الأرشيف الحكومى للاتحاد الروسى". تحتوى المجموعات الوثائقية المتكاملة على نحو ثلاثة ملايين وأربعمئة ألف ملف، تغطى الفترة ما بين عامى ١٨٦٠ و١٩٢٤. هنا سنجد مجموعات وثائقية فرعية وملفات تتعلق بإعادة إرسال الصحيفة "إيسكرا" (الشرارة) وغيرها من المواد الثورية المحظورة، التى أصدرها لينين ورفاقه الثوريون من أوروبا، ثم يرسلونها من خلال مدينة الإسكندرية بمصر (مطعم سيفاستوبول)، ومنها إلى روسيا. من الممكن العثــور علــى تلك المعلومــات فى المجموعة الوثائقية المتكاملة المعنونة "إدارة البوليس- القسم المخصوص"، المجموعة الفرعية ١٨٩٨، الملف ٥، الجزء ١٩، حرف "ج"، والمجموعة الوثائقية المتكاملة "إدارة البوليس- القسم المخصوص"، المجموعة الفرعية ١٩٠٣، الملف ٧٣٧، والمجموعة الوثائقية المتكاملة "د-٧"، المجموعة الفرعية ١٩٠٢، ملف ١٥١٣. باختصار تتحدث الوثائق عن أن لينين ورفاقه المتفقين معه فى فكره حول تحقيق الثورة البروليتارية فى روسيا فى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين؛ قد استهدفوا صناعة حزب سياسى من طراز جديد قادر على إنجاز هدفهم النهائى. ولذلك برزت الحاجة إلى صحيفة لعموم روسيا، تستطيع توحيد قوى العمال الواعية بقيادة الماركسيين الثوريين، وتؤدى إلى ظهور الحزب. تلك الصحيفة، هى "إيسكرا" التى لم تغب أماكن طباعتها والمطبوعات الثورية الأخرى عن أعين البوليس القيصرى النشيط جدًا؛

فقام بتحطيمها. لذا بدأ نشر "إيسكرا" والمطبوعات الثورية خارج روسيا، ولكن سرعان ما قامت الشرطة الروسية بقطع طريق وصولها إلى داخل روسيا. وهنا فكر أنصار لينين فى مصر، وتحديدًا فى الإسكندرية التى كما أشرنا إلى موقعها الجغرافى المريح عند التقاء ثلاث قارات وطرق الملاحة الرئيسية، ومنها يمكن الوصول بسرعة وأيضًا الانسحاب بسرعة فى حالة الضرورة. كان قُرب الشواطئ الروسية من الإسكندرية أيضًا إمكانية إضافية، استفاد منها ممثلو الحركات الاجتماعية الروسية والجماعات التى تعمل على الساحة المصرية. وكان وضع مصر فى إطار العلاقات الدولية مهيَّئًا ومساعدًا لتلك الأنشطة؛ فأولاً: تعد مصر تابعة شكليًا للإمبراطورية العثمانية، وثانيًا: هى مستعمرة فعلية بعد احتلال بريطانيا العظمى لها فى عام ١٨٨٢. من هنا جاء اختيار الأراضى المصرية للقيام بالنشاط الثورى لمختلف الأحزاب والجماعات. كان نظام الاحتلال يشاهِد- من خلال أصابع يديه- نشاطات تلك الجماعات الموجه ضد حكومات بلدانها، ولا يحرك ساكنًا مادامت تلك الأنشطة لا تعيق الاستقرار ولا تهدد النظام الاستعمارى. على سبيل المثال، قدمت السلطات العثمانية مذكرات وإنذارات إلى سلطة الاحتلال والسلطات المصرية، مطالبةً بإغلاق مطابع وفروع الأحزاب التركية المعارضة التى قامت فى مصر بدعاية مضادة للسلطان عبد الحميد، وطبعت المنشورات والبيانات وأصدرت أدبيات معارضة ومحظورة. لكن لم يستجب أحد لهذه التحذيرات والاحتجاجات. ويمكن قول ذلك أيضًا بخصوص النشاط المعادى للحكومة الذى قام به الاشتراكيون الإيطاليون من جميع الأطياف، إذ لم يتعرض أحد منهم للمطاردة فى مصر.

فى السنوات القليلة الفاصلة بين القرن التاسع عشر والقرن العشرين، عاش فى الإسكندرية أكثر من مئة ألف من اليونانيين والإيطاليين والإنجليز والفرنسيين وغيرهم، وكان من بينهم كثير من الاشتراكيين والفوضويين وممثلى الاتجاهات

الثورية الأخرى. بعضهم هرب من المطاردة فى بلاده، وبعض آخر قامت بنفيه الأنظمة الحاكمة فى أوروبا. وهكذا فى بداية القرن العشرين، تكونت فى العاصمة الثانية لمصر شريحة قوية ومتماسكة من المثقفين من الجنسيات المختلفة، وقام هؤلاء بمحاولة ناجحة لتنظيم أنفسهم من خلال إقامة "الجامعة الشعبية الحرة"، التى قام بإنشائها تلك الجامعة فى عام ١٩٠١ بالأساس لاجئون سياسيون أوروبيون، وتكونت اللجنة التنفيذية لها من إيطاليين ويونانيين ونمساويين ويهود وفرنسيين وعرب. كما ضمت يوسف روزنتال الروسى اليهودى، بينما أصبح سكرتيرها ر.كانيفى، ناشرًا ومديرًا للجريدة السكندرية "لا ريفورم"، التى تعرض أفكارًا يسارية متطرفة. وقد اتهمت الصحف مؤسسى "الجامعة الشعبية الحرة" باستخدامها لعقد اجتماعات غير قانونية للفوضويين، وأن محاضرات الكيمياء والفيزياء فيها غالبًا ما تتحول إلى خطابات سياسية، وأن الجامعة تشهد مناقشات حول المواضيع المهمة الخاصة بعمال المدينة، فيما يتعلق بأوضاعهم الاقتصادية وإضراباتهم المزمع القيام بها؛ لكن محاولات إغلاق الجامعة لم تكلل بالنجاح، بفضل مواقف إدارتها الصلبة والحازمة التى دعمتها دوائر سياسية ومالية وثقافية نافذة فى الإسكندرية.

وجد الثوريون الروس حاجتهم فى ذلك الوسط متعدد الجنسيات؛ فقد كان مطعم "سيفاستوبول" فى منطقة الميناء بالمدينة، أحد مراكز اللاجئين السياسيين الروس، وكان اسم صاحبه أوسيب ميخايلوفيتش يوزيفوفيتش. بعد أن نجح الشرطى الروسى الشهير، العقيد زوباتوف، فى القضاء على مطابع الاشتراكيين الديمقراطيين فى روسيا، ومنع صحيفة "إيسكرا" من الدخول عبر الحدود فى عام ١٩٠١؛ استخدم أنصار لينين مطعم السيد يوزيفوفيتش الذى تحول إلى مكان لعقد الاجتماعات السرية للثوار الروس، ومخزن لحفظ نسخ صحيفة "إيسكرا" المقبلة من أوروبا والمرسلة بعدها إلى الموانئ الروسية الجنوبية. ناهيك عن وظيفة أخرى قام

بها هذا المطعم، كما تقول رسالة لأحد الدبلوماسيين الروس فى مصر: "تحولت حانة (سيفاستوبول) التى يزورها فقط البحارة الروس، إلى مكان لقراءة الصحف والكتب الممنوعة فى روسيا". يكتب الدبلوماسى إيفانوف نفسه، القنصل الروسى فى الإسكندرية، تقريرًا إلى السلطات العليا بأن: "يوزيفوفيتش" يقوم بنقل تلك المطبوعات إلى السفن الروسية، وأنه قد لفت انتباه وكلاء شركات البواخر الروسية وقادة السفن الحربية إلى أن يمنعوا مرءوسيهم من الذهاب إلى حانة (سيفاستوبول).

بعدها سرعان ما اكتشف الكابتن "سالوس" قائد السفينة "بارجوم" التابعة لرجل صناعة البترول "مانتاشيف"، التى تحمل الجاز (الكيروسين) من روسيا إلى مصر؛ فى عنبر سفينته حمولة من المطبوعات المحظورة. اتضح أن البحار "فلاديمير فيريسودسكى" هو من أحضرها، وأنه على صلة بهيئة تحرير صحيفة "إيسكرا" فى مدينة ميونيخ فى ألمانيا. احتوت الشحنة المضبوطة على ألف نسخة من الصحف الاشتراكية والمجلات والمنشورات ونسخ من ١٥ كتابًا تتناول الموضوعات المعاصرة الملحة أنذاك، من بينها أعمال "ف.إ.لينين": "ما العمل؟"– ٩٤ نسخة، "الحركة العمالية فى تبليسى" ١٨٣ نسخة، "صحيفة إيسكرا" الأعداد ١٣-١٩ – ٣٠٠ نسخة تقريبًا، وغيرها[1]. فى المجموعة الوثائقية نفسها، سنعثر علـــى رسالتـــى وزارة الـــداخلية الـــروسية إلى إدارة الشرطة فى أوديسا بتاريخ ٢ نوفمبر و١٢ ديسمبر عام ١٩٠٢: "مع الشحنة التى كانت مرسلة إلى روسيا وضمت مطبوعات غير شرعية، وضُبطت مـــع فيرسيدوسكى فى الإسكندرية فى ٨ سبتمبر على ظهر الباخرة "بارجوم"، تم ضم خمسة طرود بريدية إلى التحقيق. تلك الطرود وصلت من ميونيخ إلى الإسكندرية بطريقة ما، مكتوب على غلافها عنوان "الإسكندرية، جوزيف ميخايلوفيتش يوزيفوفيتش"[2]. نتيجة للخيانة وسط البحارة الروس، تم إفشال "الطريق المصرى" أمام الإصدارات السرية. لم يعمل هذا الطريق سوى لفترة أقل من عام، لكنه ساعد كثيرًا لينين ورفاقه فى أقسى

الأوقات لبعث الحزب البلشفى فى روسيا القيصرية. لقد تم من خلاله، وفى وقت قصير إعادة إرسال ما تقدر حمولته بنحو ٢٥٠ "بود"[٣] من "البريد الثورى". تم إغلاق حانة "سيفاستوبول" سريعًا بسبب ضغوط سلطات الاحتلال والضغوط القنصلية. ولكن - كما أشرنا فى السابق إلى الأواصر القوية للأخوة الكوزموبوليتانية فى الإسكندرية- آل مكان المطعم إلى الاشتراكى الإيطالى الشهير "بارونى" بعد أن تنازل "يوزيفوفيتش" عنه لصالحه، وظل يعمل كنقطة مهمة قريبة من جمرك الميناء.

لم تعرف سكرتيرة تحرير صحيفة "إيسكرا" عن الإخفاق الذى حدث فى الإسكندرية شيئًا فى بادئ الأمر. ظلت ناديجدا كروبسكايا، وهى فى الوقت نفسه زوجة لينين، تعتمد عليها كنقطة ترانزيت مهمة فى البحر المتوسط، فترسل خطابًا مباشرًا إلى عنوان يوزيوفيتيش فى الإسكندرية فى ٣ سبتمبر ١٩٠٢، يبدو منه أن هيئة تحرير الصحيفة فى أوروبا لا تملك معلومات دقيقة عن نقطة الترانزيت تلك، ولكن تعلق عليها آمالاً كبيرة: "سيدى العزيز! هذا هو الأمر، نحن لا نعرف، لأن رفاقنا الروس قد أعدوا هذا الطريق ولم يخبرونا بأى تفاصيل[٤]. لقد قمنا فقط بإرسال كمية محددة من المطبوعات على هذا العنوان... أنت تكتب أن السيد تريتياكوف يطلب استمرار إرسال المطبوعات على اسم يوزيفوفيتش. وفقًا لهذا الطلب نرسل إليكم اليوم واحد ونصف بود من زيوريخ. من رسالتك نفهم أن تريتياكوف اتفق مع فيرسيدوسكى[٥] بالتفصيل على توصيل واستقبال المطبوعات فى ميناء باطوم وتم ذلك. اكتب لنا على عنوان:

"Herres AxelordLVogels angstrasse 911 Zurich".

كما رأينا، يدور الحديث هنا عن إيصال المطبوعات الثورية إلى ميناء باطوم فى جورجيا؛ حيث يتم تحميل السفينة بالكيروسين لتتجه إلى الإسكندرية.

وقبل ذلك كانت المطبوعات السرية ترسل على متن سفن شركة البواخر والتجارة الروسية، ولكن بعد ضبطها أصبح محظورًا إرسالها على سفن تلك الشركة. عدا ذلك نلاحظ أن سكرتيرة صحيفة إيسكرا تطلب المراسلة على العنوان الجديد في زيوريخ، ومن المعروف أن لينين ورفاقه غالبا ما كانوا يغيرون محل إقاماتهم حتى خارج حدود الإمبراطورية الروسية نتيجة لملاحقة الحرس القيصري لهم.

تستمر ن.كروبسكايا فى خطابها الموجه إلى "يوزيفوفيتش" بالإسكندرية: "بالنسبة للمطبوعات اللازمة للبحارة، إننا نستطيع إرسال كل ما تطلبوه من كميات. أخبرونا كم نبعث منها.. وأخبرونا عن إعادة إرسال المطبوعات وكيف يجرى العمل عندكم".

لقد تمت كتابة هذا الخطاب بعد أن أبلغ قبطان السفينة "بارجوم" عن وجود مطبوعات اشتراكية- ديمقراطية على ظهر باخرته، وبعد أن كان يجب على فيرسيدوسكى- تريتياكوف أن يختبئ فى الإسكندرية. وفيما بعد أرسله رفاقه إلى أوروبا. لذلك تكتب ن. كروبسكايا فى خطابها: " لقد تراسلت مع الرفاق الروس، واتضح أن لديهم اتصالاً مع تريتياكوف، ولكن لم يعودوا يرونه. أشيروا علينا كيف يمكن أن نبحث عنه، لو أن الأمر عندكم ليس على ما يرام، فإننا فى أول مرة سنرتب الأمر كالتالى.. سيبحث رفيقنا عن فيرسيدوسكي عند وصول الباخرة "بارجوم" إلى باطوم ، وسيسأله: هل تعرف كوتسيفريسكى؟ ولا بد أن يجيب عنه فيرسيدوسكى : لا، ولكننى أعرف فيروخ".

هذا الخطاب من ن.كروبسكايا محفوظ فى أرشيف آخر فى موسكو، هو الأرشيف الحزبى المركزى التابع لمعهد الماركسية اللينينية، الذى أصبح الآن يحمل اسم "المركز الحكومى الروسى لحفظ الوثائق"، وهو يقع هنا فى المجموعة الوثائقية المتكاملة ٢٤، المجموعة الفرعية ١، ملف ٢٥٣، عام ١٩٠٢ (أوراق ١- ٢).

للأسف لم نستطع، على الرغم من مجهوداتنا، أن نجد فى المجموعات الوثائقية للأرشيف الحزبى المركزى معلومات تلقى الضوء على نشاطات الحرس القيصرى والدبلوماسيين الروس والقناصل فى تعطيل نشاط الثوار الروس فى مصر، على الرغم من تأكيد عدة مصادر أن تلك المعلومات الشبيهة يجب أن تكون فى الأرشيف الحزبى. عن ذلك، يتحدث كتاب الباحث المصرى عبد الوهاب بكر، المخصص للحركة الشيوعية فى وادى النيل. بالاعتماد على معلومات سرية خاصة بإدارة البوليس، يخبرنا المؤلف عن تعاون السلطات الروسية والمصرية فى مكافحة المعارضة السياسية. فى عام ١٩١٠ بعثت وزارة الداخلية المصرية بمجموعة من خبرائها إلى إنجلترا وروسيا وفرنسا للبقاء لمدة عامين لتعلم طرق وجهود مكافحة النشاطات الثورية والمعادية للحكومة[٦]. علمًا بأن نشاط الثوريين الروس الناجح والضخم فى مصر، بسبب ظروفها المهيأة له، أعاق موظفى الدبلوماسية الروسية من تنفيذ واجباتهم المباشرة. حدث ذلك فى بداية يناير١٩٠٧، عندما قام المشاركون فى مظاهرة سياسية للاحتجاج على القبض على الثوار الروس، بتدنيس شعارات القيصرية المعلقة على أبواب القنصلية الروسية فى الإسكندرية.

نلجأ إلى المعلومات المحفوظة فى أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية لاستكمال الموضوع الأخير. حسب كلمات أ.م. بتروف عن الاستحالة العملية وصعوبة "مراقبة الثوريين الروس الذين يعيشون هنا"[٧]، فإن دبلوماسيى الإمبراطورية اقترحوا على إدارة البوليس المصرى استخدام المدعو ياكوف زولاى القريب من دوائرهم كمخبر لمتابعة الثوريين الروس، واقترحوا له راتبًا قدره ستون جنيهًا سنويًا[٨].

وفقط بعد اتخاذ إجراءات عاجلة مشابهة، استطاع الدبلوماسيون الروس بالتعاون الوثيق مع "السلطات المختصة" المحلية أن يسيطروا على الموقف وأن

يخطفوا ويبعثوا بكل من "بارشوكوف" و"أودويفسكى-ماسلوف" وغيرهما، من أكثر مثيرى النظام الاجتماعى خطورة، من القاهرة والإسكندرية إلى أوديسا فى صناديق خشبية مخصصة للشحن على ظهر السفن الروسية[٩].

الهوامش

(١) أنظر الأرشيف الحكومى لروسيا الفيدرالية. المجموعة الوثائقية المتكاملة الخاصة "إدارة البوليس- القسم المخصوص"- المجموعة الفرعية ١٨٩٨، ملف ٥، أوراق ١٨٣- ١٨٥.

(٢) المصدر السابق نفسه. ورقة ١٩٨.

(٣) "بود" وحدة قياس موازين روسية قديمة، يبلغ مقدارها نحو ٣٨، ١٦ كيلو جراما. المترجم

(٤) مهد هذا الطريق لنقل المنشورات السرية، مجموعة "ايسكرا" فى مدينة خيرسون بأوكرانيا- ملاحظة المؤلف.

(٥) "تريتياكوف" و"فيرسيدوسكى" اسمان لشخص واحد- ملاحظة المؤلف.

(٦) عبد الوهاب بكر. عن النشاط الشيوعى فى مصر.١٩٢١- ١٩٥٩.القاهرة.١٩٨٣. ص٢٥-٣٤. (بالعربية)

(٧) أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. المجموعة الوثائقية المتكاملة ١٤٩، المجموعة الفرعية ٥٩٢ ب، ملف ٥٣٤٢، ورقة ١٣٨.

(٨) المصدر السابق نفسه. ملف ٥٣٤٢، أوراق ١، ٥، ١٢.

(٩) المصدر السابق نفسه. ملف ٥٣٤١، ورقة ٣١ على ظهر الورقة، ورقة ٩٤ على ظهر الورقة. أنظر أيضا بالتفصيل عن ذلك :ف.ف.بلياكوف. "على شواطئ النيل المقدس..." موسكو.٢٠٠٣. ص١١٨- ١٢٥.

المركز الروسى لحفظ ودراسة وثائق التاريخ الحديث

فى هذا الأرشيف الحزبى الضخم الواقع تحت راية اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى، يجد باحثو تاريخ الحركات الشيوعية والاشتراكية والعمالية معلومات عظيمة عن الكومنترن(*) وتنظيماته وعلاقاته بالشيوعيين والاشتراكيين المصريين، وأيضا عن دراسة بعضهم فى الجامعة الشيوعية لكادحى شعوب الشرق المطلق عليهم اسم ستالين، ومختلف البيانات الأخرى المفيدة بهذا الصدد.

أولى الكومنترن اهتمامًا بالغًا بالحركة الشيوعية والنقابية والعمالية المصرية. خصيصًا من أجل ذلك الغرض، وبالطبع ليس فقط مصر، بل لكل العالم، تم إنشاء الكومنترن وتنظيماته فى الاتحاد السوفيتى.

يعد المركز الروسى لحفظ ودراسة الوثائق أكبر حافظ للمعلومات المتعلقة بسياسة الحزب الشيوعى الداخلية والخارجية على نطاق العالم. لقد كان الحزب الشيوعى السوفيتى، وفقًا للمادة السادسة من الدستور السوفيتى، "القوة الوحيدة المتحكمة والموجهة" فى أكبر بلد فى العالم، يشغل سُدس اليابسة للكرة الأرضية. وتعكس ذخيرة وثائق ذلك المركز نمو الدولة فى الحقبة السوفيتية، كما يحتوى على

(*) الكومنترن Common-Tern المنظمة الشيوعية الدولية اختصارا لكلمة Communism International عن الفرنسية والتى كان كارل ماركس أعلنها فى ١٨٦٤ وكانت مسئولة عن تنظيم اتصالات الحزب الشيوعى الروسى بالأحزاب الشيوعية فى مختلف الدول والبلاد ومن بينها مصر. وفى أثناء الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩-١٩٤٥) تم حلها وتكون بدلاً منها منظمة الكومنيوفورم. (المراجع).

المواد المتعلقة بنهج الاتحاد السوفيتي تجاه الشرق السوفيتي والشرق بصفة عامة منذ السنوات الأولى لوجود تلك الدولة.

لقد تم الإعلان عن هذا النهج تجاه الشرق فورًا بعد ثورة أكتوبر، إذ أعلنت الحكومة السوفيتية عن تخليها ورفضها الحازم للممارسات الاستعمارية للقيصرية الروسية، وكشفت على الملأ الاتفاقات الخاصة باقتسام العالم بين دول الوفاق الثلاثي(*)، وفي المقدمة منها اتفاقية سايكس - بيكو(**) الخاصة بفرض مناطق للحماية والنفوذ في العالم العربي. ولا شك، أن أحد أوائل مراسيم السلطة السوفيتية، الذي يكتسب أهمية قصوى بهذا الصدد، هو النداء التاريخي "إلى كل الكادحين من مسلمي روسيا والشرق". لقد تمت ترجمة ذلك النداء للغة العربية وتداولته الأيادي، بل وعُلق في براويز على جدران البيوت، وعَدَّه كثيرون في الشرق العربي ومصر بمثابة خطاب من لينين للزعامات العربية، يرشدهم لطريق العمل. في تلك الوثيقة، توجهت الحكومة السوفيتية بنداء إلى مسلمي الشرق

(*) (إنجلترا وفرنسا وروسيا). (المترجم)

(**) اتفاقية سايكس بيكو في مايو ١٩١٦ بين إنجلترا وفرنسا نسبةً إلى مارك سايكس (الإنجليزي) وشارل بيكو (الفرنسي)، وهي اتفاقية سرية لتقسيم المشرق العربي- العثماني بينهما حيث تأخذ فرنسا لبنان وسوريا وتأخذ إنجلترا العراق وفلسطين. واشتركت روسيا في هذا الاتفاق لتحصل على اسطنبول وتشترك في إدارة مدينة القدس باعتبار المكانة الدينية للقدس وعلى أساس أن روسيا راعية المسيحيين الشرقيين الأرثوذكس. كما دخلت إيطاليا إلى هذه الاتفاقية لتحصل على بعض الجزر العثمانية في مدخل البحر الإدرياتي الذي تطل عليه إيطاليا. فلما قامت الثورة الشيوعية في روسيا في أكتوبر ١٩١٧ خرجت الأخيرة من الاتفاقية. وعلى أساس نصيب إنجلترا في فلسطين منحت اليهود إنجلترا وعد بلفور في ٢ نوفمبر ١٩١٧. ولما انتهت الحرب العالمية الأولى بانتصار إنجلترا وحلفائها بدأ تطبيق نصوص التفاقية فيما عرف بالانتداب الإنجليزي على العراق وفلسطين والانتداب الفرنسي لسوريا ولبنان في ١٩٢٢. (المراجع)

والعرب والهنود والفرس والأتراك، "الذين تاجر وحوش أوروبا الجشعة برءوسهم وممتلكاتهم، وبحريتهم وأوطانهم، لمئات السنين"، كى يسقطوا محتليهم ومستعبديهم لقرون طويلة. تضمن النداء أيضًا: "مكتوب على راياتنا تحرير شعوب العالم المضطهدة، يا مسلمى روسيا! يا مسلمى الشرق! ننتظر منكم التعاطف والمساندة على طريق تجديد العالم.. يجب أن تكونوا بأنفسكم أصحاب بلدانكم! ينبغى عليكم بناء حياتكم بأنفسكم بطريقتكم، وبما يناسبكم! أنتم تملكون الحق فى ذلك، لأن مصيركم بين أيديكم"[1]

نستطيع أن نجد تأكيدًا وتطورًا لتلك المبادئ للعلاقات المتبادلة بين روسيا السوفيتية وبلدان الشرق فى المجموعة الأرشيفية المتكاملة رقم ٥٤٤، المعنونة "مجلس دعاية وأعمال شعوب الشرق"، التى تحتوى على مواد متعلقة بانعقاد مؤتمر شعوب الشرق فى أذربيجان فى خريف ١٩٢٠. فى ذلك الاجتماع الدولى حضر ما يقرب من ألفى مندوب، جاءوا من بلدان عديدة بينها مصر وشبه الجزيرة العربية وسوريا وفلسطين. وتتركز الوثائق الأساسية لهذا الاجتماع فى المجموعة الفرعية ٢، وتقع محاضر اجتماعات رئاسة المؤتمر فى ملف رقم١ المؤرخ فى ١٩٢٠/١١/١. كما تقع تقارير الاختزال لجلسات مؤتمر شعوب الشرق باللغتين الروسية والألمانية فى ملف ٢ (٤-١٩٢٠/١١/٦). ويجمع الملف رقم ٣ وثائق اللجنة التنفيذية للكومنترن الموجهة لشعوب الشرق، ونداء مؤتمر شعوب الشرق واللجنة المركزية للحزب الشيوعى فى أذربيجان، وخطاب التعليمات الصادر من اللجنة التنفيذية للأممية الشيوعية لجميع مندوبى ذلك الاجتماع التمثيلى، و"نداء لشعوب الشرق".. إلخ (أوراق ١٩-٢٩) وكلها مؤرخة فى شهرى ٨-٩ عام ١٩٢٠. ويضم الملف رقم ٤ بين دفتيه القرارات العامة لمؤتمر شعوب الشرق، وقراره الخاص بتشكيل مجلس الدعاية والأعمال لشعوب الشرق (أوراق١-٨) بتاريخ شهر٩ عام ١٩٢٠. ويحتوى الملف رقم ٨ المؤرخ فيما بين

شهرى ٨ و ٩ عام ١٩٢٠ على القوائم العامة لهيئات رئاسة الاجتماعات، وأوراق تسجيل الحضور، والقوائم الأخرى الخاصة بالمندوبين الحاضرين فى مؤتمر شعوب الشرق. كما توجد أيضًا ملفات خاصة بمحاضر اجتماعات جماعة الشيوعيين فى مؤتمر شعوب الشرق (٢٢/٨-٢/٩/١٩٢٠). ويتضمن الملف رقم ٢١ قرارات وخطابات وبرقيات مؤتمر شعوب الشرق خلال المدة من ٢٠/٩ عام ١٩٢٠ حتى ٢٣/ ١ عام ١٩٢١، بينما يحتوى الملف رقم ٢٢ على كلمات المندوبين وخطابات ونداءات ومقالات ومواد أخرى عن مؤتمر شعوب الشرق، تم إعدادها للطبع باللغات الروسية والعربية والفارسية والتركية.

وتضم الملفات ٢٣-٣٣ وثائق تفويض مندوبى مؤتمر شعوب الشرق حسب الترتيب الأبجدى (١٩٢١). وتحتوى الملفات ٣٤-٣٩ على الاستمارات الشخصية لأعضاء المؤتمر بالترتيب نفسه. فى ملفات ٤٠-٤٢ نجد أوراقًا لاستقصاء رأى مندوبى المؤتمر حسب الأبجدية، وفى الملف ٤٣ نجد استمارات الحالتين السياسية والاقتصادية لمندوبى مؤتمر شعوب الشرق باللغتين الروسية والتركية (١٩٢٠). وأخيرًا، نجد الصور الفوتوغرافية الخاصة بالمؤتمر فى الملف رقم ٤٤ (شهر ٩عام ١٩٢٠).

بدأ نهوض حركة التحرر الوطنى فى الشرق عقب الحرب العالمية الأولى، وحتى قبل تزايد تأثير ثورة أكتوبر. فى ذلك الأوان ارتفع شعار الثورة العالمية. فى روسيا السوفيتية تشكلت الأممية الشيوعية التى طرحت فى مؤتمرها الثالث فى يوليو١٩٣١ مهمة التسريع بتكوين الأحزاب الشيوعية، وتنظيم الجماهير فيها وإنشاء التنظيمات الثورية(٢). ومن أجل التنفيذ العملى لتلك الأهداف، تم إنشاء "الأممية الشيوعية" للشباب فى عام ١٩١٩، و"الأممية النقابية" و"الأممية الفلاحية" و"المساعدة العمالية العالمية" فى عام١٩٢١، و"المنظمة العالمية لمساعدة مناضلى الثورة" فى عام١٩٢٢ .

تميز النهوض الثورى فى المنطقة الأفرو آسيوية بتزايد نفوذ المنظمات الثورية المعادية للاستعمار والمجموعات الاشتراكية. وفى مصر كان حزب الوفد فى مقدمة حركة التحرر الوطنى، ولكن كانت هناك خلايا اشتراكية فى بورسعيد والإسكندرية والقاهرة منذ عام ١٩١٨، كان أغلب عضوية تلك الخلايا من الإيطاليين واليونانيين والروس واليهود وغيرهم من المثقفين الكوزموبوليتانيين من غير الأهالى. وبين الاشتراكيين كان هناك عدد قليل من المثقفين المصريين. بعدها ظهر بالتدريج فى تلك التنظيمات مجموعة من العمال الواعين من الروابط غير المصرية وأيضًا عدد قليل من البروليتاريا المحلية[٣].

تكون الحزب الاشتراكى المصرى فى عام ١٩٢١. فى بداية ذلك العام نجحت محاولة الخروج من اتحاد النقابات العمالية الوفدى البرجوازى، وهكذا تم تكوين الاتحاد العام لنقابات مصر الذى ضم عشرين رابطة عمالية ونحو ثلاثة آلاف عضو[*].

(*) فى ١٩٢١ كان الحزب الاشتراكى المصرى قد أخذ اسم "الحزب الشيوعى" وكان وراء تأسيس "اتحاد نقابات عمال مصر" الذى أخذ ينشط فى أوساط العمال حيث ضم نقابات بالقاهرة والإسكندرية والمنصورة وطنطا وشبين الكوم، ونظم عدة إضرابات بلغت ذروتها فى فبراير ١٩٢٤. وكانت حكومة الوفد برئاسة سعد زغلول فى الحكم من منتصف يناير ١٩٢٤ فقامت باعتقال عناصر الحزب الشيوعى واتحاد النقابات وقدمتهم للمحاكمة فى أكتوبر من العام نفسه. وأسرعت الحكومة - من باب احتواء العمال إلى جانبها- إلى تأسيس "اتحاد نقابات عمال وادى النيل" رأسه عبد الرحمن فهمى الذى كان رئيسا للجهاز السرى لثورة ١٩١٩، وليس فى مطلع عام ١٩٢١ كما ذهب المؤلف. وكانت نواة هذا الاتحاد الذى عرف بالاتحاد البرجوازى النقابة العامة للعمال التى أسسها بعض الذين خرجوا من "نقابة عمال الصنائع اليدوية" التى كان محمد فريد رئيس الحزب الوطنى قد أسسها فى١٩٠٩. (المراجع)

واستطاع الحزب الاشتراكى المصرى صياغة برنامج موضوعى ومُبسط للنضال اليومى للعمال والفلاحين. حمل البرنامج بالطبع بُعدًا نظريًا كبيرًا، لكنه تضمن إجراءات عملية كما سنرى فيما بعد.

وسط عمال المدن رفع الحزب مطالب: الحماية القانونية للعمل، التفتيش الدورى على المصانع، يوم عمل من ثمانى ساعات، الاعتراف بالنقابات والتنظيمات السياسية للطبقة العاملة، تأسيس لجان المصانع وتكوين تعاونيات إنتاجية واستهلاكية.

احتوى البرنامج الزراعى للحزب على القضاء على علاقات الإيجار والمزارعة "المناصفة" الظالمة، تلك العلاقات التى كانت تؤدى إلى استيلاء ملاك الأراضى على الجزء الأعظم من محصول الأرض. كما تضمن البرنامج أيضًا: إسقاط ديون الفلاحين الذين يملكون أقل من ثمانية فدادين ومصادرة الملكيات الزراعية الأكبر من مئة فدان بما فيها الأراضى الزراعية المملوكة للأوقاف والعائلة الملكية، وتوزيعها على الفلاحين المعدمين، وتنظيم لجان فى القرى من فقراء الفلاحين والعمال الزراعيين بهدف إنشاء حزب يدافع عن مصالحهم الزراعية.

تركزت الشعارات السياسية المباشرة للحزب الاشتراكى المصرى حول الكفاح ضد الاستعمار وتأميم قناة السويس واتحاد السودان ومصر وإلغاء دين الحكومة ونظام الامتيازات الأجنبية.

فى ٥ يونيو عام ١٩٢٢، كانت هناك ١١ شعبة حزبية فى مختلف أرجاء مصر، تجاوز عدد الأعضاء فى شعبة القاهرة ١٥٠ شخصًا، وفى بورسعيد والمحلة الكبرى والإسكندرية تراوح بين ٥٠ و٦٠ شخصًا[٤].

في عام ١٩٢٢ تغير اسم الحزب الاشتراكى المصرى إلى الحزب الشيوعى المصرى. وهكذا فى المؤتمر الثالث للكومنترن، تم تمثيل الحزب الشيوعى المصرى بوفد من عضوين له حق التصويت غير الملزم، وتم الاعتراف بالحزب كشعبة في الكومنترن. وفى ٦-٧ يناير ١٩٢٣، صدق مؤتمر الحزب على قرار بتغيير اسم الحزب الاشتراكى إلى الحزب الشيوعى المصرى، وتم قبول الواحد والعشرين شرطًا التى وضعها الكومنترن لقبول الحزب فى عضويته. أيضًا تم انتخاب حسنى العرابى رئيسًا للحزب، وأنطون مارون سكرتيرًا له.

يعتبر الشيوعيون المصريون الفترة، ما بين عامى ١٩٢١-١٩٢٤، بحق أكثر الفترات خصوبةً ونشاطًا لحزبهم؛ فلقد تحول الحزب من مجموعات من عدة عشرات إلى منظمة ذات تركيبة مركزية كبيرة نسبية، عدد أعضائها يتجاوز ألفى فرد. وانتشرت فروع الحزب فى كل مدينة صناعية بالبلاد تقريبًا، وكان النجاح الأبرز للحزب هو تكوين عدة نقابات، تم توحيدها فيما بعد فى مركز نقابى عام ثورى ضم بين صفوفه خمسين ألف شخص. فى الفترة نفسها نجح الحزب فى توطيد موقعه داخل الكومنترن واستطاع بمساعدة الأخير صياغة برنامج عمل لنشاطه.

أدارت النجاحات الباهرة رءوس قادة الحزب الشيوعى المصرى بعض الشيء، ولم يخل الأمر من نصيب للكومنترن الذى دفع الحزب الشيوعى المصرى للصدام مع حزب الوفد الحاكم فى ذلك الوقت. فى يناير ١٩٢٤ وجه الشيوعيون المصريون "خطابًا مفتوحًا" إلى وزارة سعد زغلول، اقترحوا فيه على الوفد توجيه الجهود المشتركة لإنشاء نقابات لفقراء الفلاحين وإقامة صلات بينها وبين النقابات العمالية التى يتزعمها الحزب الشيوعى المصرى. احتوى ذلك الخطاب المفتوح أيضًا على مطلب إقامة علاقات دبلوماسية بين مصر وروسيا السوفيتية.

اعتبر حزب الوفد الحاكم ذلك "الخطاب المفتوح" بمثابة تهجم على زعامته السياسية لحركة التحرر الوطنى المصرية، وتهديد له من قبل حزب، ليست مواقفه الفكرية فقط بعيدة عن الوفد، بل وعدائية للغاية تجاهه.

فى مارس ١٩٢٤ استخدمت وزارة سعد زغلول حجة إضراب العمال فى العديد من المنشآت الصناعية، والذى تصاعد إلى الاستيلاء على مصنع "إيجولين" لعصر الزيوت فى الإسكندرية، لتوجيه ضربة قاصمة للحزب الشيوعى المصرى والاتحاد العام للنقابات المصرية، حيث تم اعتقال قيادة كل من الحزب واتحاد العمال وأخذت السلطات فى اضطهاد كوادر الحزب وملاحقتهم. وانزلقت البلاد فى موجة من أعمال معاداة الشيوعية. ويذكر خطاب من اللجنة المركزية للحزب الشيوعى المصرى بتاريخ ٦ مارس ١٩٢٤ موجه إلى الكومنترن أنه فى ٢-٣ مارس تم تفتيش ومداهمة مقرات الحزب الشيوعى المصرى واتحاد نقابات العمال فى وقت واحد فى كل من القاهرة والإسكندرية والزقازيق والمنصورة، كما تمت مصادرة الدعايات المطبوعة والأرشيفات. فى الوقت نفسه تم اعتقال حسَنى العربى وأنطون مارون وصفوان أبو الفتح وغيرهم من الرفاق. وفى خطاب آخر للحزب الشيوعى المصرى موجه للكومنترن بتاريخ ١٣ مارس ١٩٢٤، نجد أخبارًا عن حملات تفتيش واعتقال للشيوعيين ونشطاء النقابات فى مدينة طنطا. فى هذا الخطاب نعلم أن اثنين أو ثلاثة من أعضاء اللجنة المركزية للحزب، قد نجوا من الاعتقال وكتبوا: "إننا محطمون فنيًا ونفسيًا"(٤).

نجت من اعتقالات القاهرة مجموعة غير كبيرة، جميعهم من الأجانب، ولكنهم كانوا معزولين عن الطبقة العاملة المصرية، وعن الحياة السياسية للبلاد عمومًا. ولكن فى نهاية عام ١٩٢٤ وبداية عام ١٩٢٥، ومع الإفراج عن بعض الرفاق العرب من السجن ووصول اثنين من المحترفين من خارج حدود البلاد،

أخذ الحزب الشيوعى المصرى عدة خطوات فى طريق تجديد نشاطه فأصدر مجلته الشهرية العلنية "العلم الأحمر"، بجانب لسان حاله جريدة "الحساب". كما بدأ الحزب فى طباعة منشوراته التى كانت فى أغلبها مترجمة، كما استطاع توفير مطبعة سرية صغيرة لطباعة بياناته ونداءاته، وأقام صلات وثيقة بالشيوعيين الفلسطينيين والسوريين، كما اتصل بعدد من أعضاء حزب الوفد والحزب الوطنى.

خرج الحزب الشيوعى المصرى باقتراحات من أجل تنشيط الحياة السياسية الداخلية للبلاد، ففى أبريل عام ١٩٢٥ وجه نداءً للوفد والحزب الوطنى مصحوباً ببرنامج تفصيلى معد للنضال المشترك ضد الاستعمار الإنجليزى واتباعه المحليين، واشترك فى تنظيم الحملة ضد المحاكمة البريطانية للوطنيين المصريين المتهمين بقتل الجنرال لى ستاك "الحاكم العسكرى العام للسودان"، استهدفت تلك الحملة تغيير أعضاء المحكمة. وفى ديسمبر ١٩٢٤ وجه الحزب نداءً إلى كل النقابات لعقـــد مؤتمر لعموم نقابات مصر، يتم فيه حل عدة مشكلات حيوية للطبقة العاملة فى البلاد.

وعلى الرغم من أن الحزب لم يحقق نجاحات عملية من نشاطه، فإنه أعلن عن وجوده من جديد وعن استعداده للمشاركة بنشاط فى الحياة السياسية والاجتماعية المصرية(٦).

و هكذا ومع احتفاظ الحزب الشيوعى المصرى باتصالاته مع الكومنترن بشكل آخر، استطاع بالتدريج إقامة هيكله التنظيمى من جديد. ففى ٦ أكتوبر ١٩٢٤ ينجح فى تشكيل لجنة مركزية جديدة للحزب. ينعقد مؤتمر الحزب وتنطلق عملية إنشاء فروع الحزب فى المدن والريف التى تعمل فى ظروف سرية. وتقوى بشكل ملحوظ منظمات الحزب فى ثلاث مدن كبيرة بالبلاد، هى القاهرة والإسكندرية وبورسعيد. واختار الكومنترن زعماء جدد للحزب من الشيوعيين

القدامى والجدد. ووصل إلى مصر محترف بارز من الكومنترن مختص بشئون مصر، هو قسطنطين فايس واسمه الحركى "أفيجدور" وهو فى الوقت نفسه صهر "روزنتال". وهكذا يشارك "أفيجدور" بشكل مباشر فى تشكيل لجنة مركزية جديدة للحزب.

يؤكد الدكتور رفعت السعيد أنه بعد وقوف الحزب الشيوعى المصرى مرة أخرى على قدميه، يصبح أكثر انقيادًا للكومنترن أكثر مما قبل، إذ انتقلت السيطرة الحزبية من المصريين إلى الأجانب المبعوثين من قبل الكومنترن(٧).

على أن استعادة الحزب الشيوعى المصرى لمواقعه لم تكن خافيةً عن أعين السلطات، التى استمرت تضع نشاط الشيوعيين المصريين تحت الملاحظة الفائقة. وفى ٣٠ يونيو ١٩٢٥، قامت وزارة أحمد زيوار باشا باعتقال كامل هيئة اللجنة المركزية للحزب الشيوعى المصرى؛ حيث اتضح أن الحزب يتمتع بعلاقات وطيدة مع الحزب الشيوعى الفلسطينى وموسكو فى وقت واحد.

ظهرت أنباء عن اعتقال ثمانية شيوعيين فى القاهرة وسبعة مثلهم فى الإسكندرية فى أول يوليو ١٩٢٥، واستطاعت الشرطة أن تصادر خطابًا موجهًا إلى "بولاك" أحد اليهود الفلسطينيين المقبوض عليهم فى القاهرة. فى الوقت نفسه، كان الخطاب المكتوب على ورقة رسمية من أوراق مكاتبات الكومنترن، يحتوى على تعليمات تفصيلية دقيقة حول ما يجب عمله وطلب إرسال معلومات عن المنظمات الشيوعية المحلية، وتم إرفاق استمارة فى هذا الخطاب لهذا الغرض. وفى ٣ يوليو، تؤكد جريدة "الإيجيبشان جازيت" استمرار مطاردة الشيوعيين فى مصر، وأن مطابع القاهرة يتم تفتيشها وأنه من المتوقع الإعلان عن اعتقالات جديدة(٨).

في ذلك الوقت وصلت حمى الكفاح ضد "وباء الشيوعية" إلى حد منع السفن الروسية من الرسو في الموانئ المصرية، وتم ترحيل الكثيرين من المهاجرين الروس بحجة الاشتباه بقيامهم بنشاط شيوعي.

كثير من الحقائق المثيرة بهذا الصدد، نجدها في المؤلفات المتعددة الأجزاء للمؤرخ البارز والسياسي رفعت السعيد عن "تاريخ الحركة الشيوعية في مصر"، ففي معرض حديثه عن مشاركة الأجانب في الحركة الشيوعية والعمالية في وادي النيل، يذكر أنه في عام ١٩١٩ وقبل إعلان الحزب الشيوعي المصري بسنوات، ألقى "إدوارد زايدمان"، وهو مهاجر روسي من ميناء أوديسا المطل على البحر الأسود، خطابًا في اجتماع حاشد للعمال في الإسكندرية بمناسبة أول مايو في ذلك العام. تشير الوقائع إلى استمرار ذلك المهاجر من "أوديسا" في ممارسة نشاطه الثوري فيما بعد، فيقوم حكمدار الإسكندرية بإخطار وزارة الداخلية في ٢١ أغسطس ١٩٢١ بأن القنصل الروسي أ.م.بتروف أخبره بأن السيد "زايدمان" صاحب إحدى المكتبات بشارع "أنستاسي" يقوم بتوزيع الكتب والنشرات البلشفية بين المهاجرين الروس، وأن أحد ضباط الجيش الأحمر السابقين "نيكولاييف" يتعاون معه في ذلك. وكانت مكتبة "زايدوف"، تحتوي على أكثر من خمسمئة عنوان لمطبوعات بلشفية وبلغات أوروبية عديدة. وتردد أيضًا أن "زايدمان" يقوم بترجمة خطاب لينين في مؤتمر الكومسمول(*) بموسكو، المعنون "نداء إلى الشباب" إلى اللغة العربية(٩).

ويؤكد الباحث ف.ف.بولياكوف أن أحد المهاجرين الروس بعد الثورة الروسية الأولى إلى القاهرة، واسمه "أبرام ريزنيكوف" في العشرينيات من القرن العشرين، قد حوّل صالون الحلاقة الذي امتلكه في وسط القاهرة وفي شارع فؤاد

(*) الكومسمول هي منظمة شباب الحزب الشيوعي السوفيتي. (المراجع)

تحديدًا إلى نادٍ للمهاجرين المؤيدين لروسيا السوفيتية، حيث يقومون فيه بالاطلاع على الجرائد السوفيتية، التى حصل عليها من البحارة الروس.

لهذه الأسباب اعتقدت السلطات المصرية أن جزءًا من المهاجرين الروس يقوم بدور حلقة الاتصال بين الشيوعيين المصريين والكومنترن. تبدو النتيجة واضحة لهذا الاعتقاد فى قيام السلطات المصرية فى وقت واحد بحظر الحزب الشيوعى المصرى فى عام ١٩٢٤، وترحيل ٣٤ من المهاجرين الروس على متن الباخرة "تشيشيرين"[١٠]. وبالمناسبة استمرت حملات ترحيل المهاجرين الروس من مصر فيما بعد طوال السنوات الأخيرة من العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين.

وهكذا باءت محاولات الكومنترن فى بعث الحزب الشيوعى المصرى بالفشل. ومما أعاق تلك المحاولات الخلافات الداخلية والطائفية من ناحية، والمتابعة اليقظة للسلطات المصرية والبريطانية الاستعمارية ولأجهزة المخابرات التابعة لهما من ناحية أخرى. ووفق ما كتبه طارق إسماعيل ورفعت السعيد اعتمادًا على مقتطفات تحريات أرشيفات المخابرات البريطانية؛ فإن تلك المخابرات احتضنت وربت "أزييف المصرى"[١١]، واسمه محمد عبد العزيز، الذى شغل مناصب قيادية لمدة طويلة فى الحزب الشيوعى المصرى وقام بتسليم أعضائه الناشطين باستمرار إلى أيدى البوليس. لم ينكشف ذلك الخائن إلا فى عام ١٩٣١[١٢].

وخلال ثلاثينيات القرن العشرين ظل الحزب الشيوعى المصرى ضعيفًا نسبيًا، واعتمد بشكل كبير تنظيميًا على الأجانب الذين كونوا مجموعات وخلايا. استمرت أيضًا ملاحقة الشيوعيين بواسطة السلطات الاستعمارية والحكومات المصرية. فى عام ١٩٣٤ كتب ف.أفيجدور فى إحدى مقالاته: "أعطت الإجراءات

الحازمة التى اتخذتها عناصر الحزب الشريفة والنشطة بمساعدة الكومنترن لفضح الخونة ولاستعادة عافية العمل الحزبى، مردودًا إيجابيا بشكل عام". وتم تكوين كوادر حزبية صلبة متماسكة من جديد. وعلى الرغم من أن عدد أعضاء الحزب كان قليلاً، فإنه استطاع أن ينشئ صلات من جديد مع عدة شرائح من الطبقة العاملة. ووسع نطاق نشاطه بشكل مخطط فى المؤسسات والمصانع، وفى المنظمات العمالية والإصلاحية، مكونًا فيها خلاياه الثورية التى شكلت معارضة نقابية، واستطاع إيصال برنامجه الثورى العملى السهل الفهم من قبل الجماهير الواسعة الذى أصبح ملائما للظروف الجديدة"(١٣).

و بالتأكيد، يجب أن ننظر إلى الكلمات السابقة لأحد قادة ومنسقى الحزب الشيوعى المصرى كتعبير عن آمال تتخطى حدود الواقع. ويبقى القول بأن اليساريين المصريين والكومنترن، لم يتراجعوا عن تحقيق الفكرة الشيوعية، وأنهم على الرغم من الملاحقة والإحباطات والخيانة والاعتقالات، استمروا مرة تلو الأخرى فى العمل على تحقيق الشيوعية، وهذا الأمر يستحق الاحترام الواجب وليس الريبة.

لقد شهدت نهاية ثلاثينيات القرن العشرين فى مصر نشاط جماعات شيوعية مبعثرة، وتلك كانت بداية "التعددية" فى الحركة الشيوعية المصرية. (أنظر بالتفصيل كوسانش ج.ج.)

لقد تمكن الكومنترن عبر تنظيمات المعاونة مثل "الأممية النقابية" و"الأممية الفلاحية" من توطيد صلاته النقابية العمالية والفلاحية بالحزب الشيوعى المصرى. واهتم الحزب بالعمل وسط العمال والفلاحين بشكل كبير، لكن نتيجة للمواقف العامة للحزب ودوره فى التطورات السياسية الداخلية ضعفت صلته بالحركة النقابية العمالية والفلاحية. وعن ذلك يتعرض بشكل مباشر ممثل مصر فى اجتماع

المكتب التنفيذى فى "الأممية النقابية" فى فبراير ١٩٢٨ - أثناء حديثه عن الوضع السياسى وحالة الحركة النقابية فى مصروالبلدان العربية الأخرى- فيقول : "أثبتت كل التجارب الماضية فى العمل فى مصر وفلسطين وسوريا وبلاد الرافدين، أن السبب فى عدم اكتمالها هو ضعف الصلات وصعوبة رعايتها الدائمة عن قرب من قبل هيئاتنا القيادية. إذ كان الاتصال ينقطع لمدة طويلة جدًا، وفى تلك الفترة تراجع المنظمات المحلية نشاطها بنفسها، وهى كلها ضعيفة بلا استثناء أيديولوجيًا وتنظيميًا وغير معدة لذلك. عدا ذلك فإن الأعمال التى تقوم بها تلك المنظمات المحلية فى ظروف صعبة للغاية، يتم فقدها فى الغالب ولا يتعرف عليها الكومنترن والأممية النقابية، ومن ثم لا يستطيع أخذ الجوانب الإيجابية والسلبية بها فى الاعتبار".

يستمر الرفيق "على" فى كلمته ليشكو من غياب الصلات المتجهة من الأطراف إلى المركز، بما فيها إرسال المبعوثين إلى موسكو، ويذكر: "بعض من أمثلة كثيرة، ففى عامى ١٩٢٤ و١٩٢٥ صدرت ثلاث صحف عمالية بواسطة المنظمات المحلية، وهى "الحساب" فى مصر و"حيفا" فى فلسطين و"الإنسانية" فى سوريا. على الرغم من أن تلك الصحف الثلاث كان يتم إرسالها باستمرار إلى الكومنترن والنقابية الدولية (فى الغالب عبر فيينا وأحيانًا عبر برلين وباريس)، ومع ذلك لم يتم استلام أى واحد منها، وعلى أقصى تقدير لم يكن الشخص المسئول عنها فى الكومنترن يعرف عنها شيئًا. المصير نفسه لقيته المنشورات السرية التى أصدرتها منظماتنا فى البلدان المذكورة". لم يتلق الحزب المصرى إجابةً واحدةً من الكومنترن والنقابية الدولية، على الرغم من خطاباته المنتظمة والأسبوعية تقريبًا وتقارير نشاطه، التى غالبًا ما صاحبها طلبات ملحة بإسداء النصائح والتعليمات الخاصة بالمسائل المهمة. فى المقابل استلمنا من فيينا فى أبريل ١٩٢٥ حافظةً كبيرة، بها كمية ضخمة من الخطابات العمومية، أولها مؤرخ فى نوفمبر ١٩٢٤

وآخرها فى مارس ١٩٢٥، ويؤكد الرفيق "على" أن العمل فى تلك الظروف فى الشرق هو أشبه بعمل "سيزيف". عدا ذلك يشير "على". إلى أن الصلات النادرة جدا بين النقابات المحلية والقيادة المركزية وغياب الرقابة من الأخيرة قائلاً: "لا يمكن السماح أبدا بأن تكون زيارات الكوادر للمنظمات المحلية بطريق الصدفة وكأنها للتعارف، كما يحدث غالبًا حتى الآن. يجب أن تظل الكوادر على الأقل فى تلك الأماكن لمدة شهرين أو ثلاثة. إن انعدام التجهيز السياسى الشديد حتى لدى أحسن رفاقنا العرب هو العيب الرئيسى فى عملنا"(١٤).

ويبدو الخلل واضحا فى عمل النقابة الدولية الخاص بقيادة الحركة النقابية فى مصر، وفى التنسيق معها فى الوثيقة التالية: "انعدام الحيوية فى الحركة الاحترافية الثورية يوقظ فى أنفسنا قلقا مفهومًا. إننا نعتبر إرسال رفيق كفء وبارز كممثل للكومنترن فى أقرب وقت إلى مصر أمرًا ضروريا. لقد خيب كل الآمال المعلقة عليه المبعوث السابق للحزب الشيوعى الإيطالى إلى مصر على الرغم من التوصية به من قبل الرفيق بورديج (أحد النشطاء البارزين فى الحركة النقابية الإيطالية). وكانت آخر أخطاء ذلك المبعوث بمثابة جريمة حزبية، فلقد غـادر مصـر فـى عام ١٩٣٠ وتخلى عن عمله المكلف به دون أى إخطار لنا أو تصريح بذلك من قسم الشرق الأدنى بالكومنترن ١٩٣٠م(١٥).

وفى المجموعات الوثائقية المتكاملة لدى المركز الروسى لحفظ ودراسة وثائق التاريخ الحديث توجد مواد ووثائق تدل على اهتمام الكومنترن باستمالة الفلاحين المصريين للحركة الثورية. فى نهاية العشرينيات من القرن الماضى، تمت عدة محاولات من "الأممية الفلاحية" لإقامة صلات مع اللجنة المركزية للحزب الشيوعى المصرى من أجل إقامة فرع مصرى لها. لقد بدأت "الأممية الفلاحية" عمومًا عملها بالشرق منذ مايو ١٩٢٥، وفى مصر منذ يونيو ١٩٢٦(١٦).

يبدو أن الدافع وراء العمل مع الفلاحين المصريين كان مداخلة المصرى "عزيز" فى الاجتماع الدورى الثانى لمجلس الفلاحين العالمى الذى جرى فى موسكو من ٩ حتى ١٧ أبريل ١٩٢٥[١٧].

فى خطاب لسكرتارية "الأممية الفلاحية" مؤرخ فى ٧ أبريل ١٩٣٠ نجدها سكرتارية مهتمة للغاية بإقامة علاقات من أجل التحرك قدمًا إلى الأمام فى تنظيم الجماهير العريضة للفلاحين المصريين فى نضالهم ضد الإمبريالية والظلم الرأسمالى. وبعد ذلك طلبت الاتصال المستمر معها وإعلامها أولاً بأول بالحملة التى يقوم بها الحزب وسط الفلاحين. كما طلبت بإلحاح إرسال معلومات تفصيلية عن أوضاع الفلاحين المصريين وعن نفوذ الأحزاب البرجوازية وسط الشرائح المختلفة للمزارعين، وأيضًا عن آفاق عمل الحزب الشيوعى المصرى فى الريف. من جانبها وعدت "الفلاحية الدولية" بإسداء الدعم والنصح فى قضية تنظيم الفلاحين[١٨]. وعلى الرغم من تلك الخطوات المتخذة فإن العلاقة مع "الأممية الفلاحية"، كانت ضعيفة فى رأى "أفيجدور" حسب الحالة فى عام ١٩٣٤.

أما فيما يتعلق بالشباب، فعلى الرغم من أن الطلاب والتلاميذ قد لعبوا دورًا بارزًا فى حركة التحرر الوطنى، فإن الحزب الشيوعى المصرى لم يكن له نفوذ كاف وسطهم، إذ كانت للوفد والحزب الوطنى فقط أجنحة شبابية قوية[١٩].

بجانب المنظمات الفلاحية والنقابية وغيرها، كانت البنية الداخلية الرأسية الحازمة، فى الكومنترن، تقوم بقيادة نشاط الأحزاب الشيوعية الأجنبية والتنسيق فيما بينها. بتاريخ ١٢ يوليو ١٩٢١ نجد ملاحظة مكتوبة للرفيق ك.م.تريانوفسكى بشأن تنظيم قسم الشرق الأدنى والمتوسط وشمال إفريقيا فى الشيوعية الدولية. فى ذلك القسم الجديد نجد فرعًا للبلدان العربية، مهمته الأساسية توفير معلومات وافية عن أوضاع السياسة الداخلية والخارجية للبلدان العربية وتطوير الحركة الوطنية

الثورية والشيوعية بها، وإقامة علاقات سياسية حية مع الحركات السياسية الثورية فى تلك البلدان وأيضًا مع المجموعات والأحزاب القريبة من الكومنترن وتقديم المعونة لها فى العمل الدعائى والتحريضى عن طريق إعداد المنشورات والمطبوعات والنداءات.

تغيرت وتبدلت هياكل الكومنترن المتصلة بالشرق أكثر من مرة، حتى انعقد الكونجرس الرابع للكومنترن فى نهاية ١٩٢٢، وتم إنشاء سكرتارية للسياسة الشرقية أو القسم الشرقى للكومنترن، الذى تكون من قسمين: قسم للشرق الأدنى "تركيا ومصر وسوريا وفلسطين والمغرب وتونس والجزائر وفارس"، وقسم للشرق الأقصى. لعبت بهذا الصدد دورًا كبيرًا اللجنة التى تكونت لتصبح فوق القسم الشرقى طبقًا للهيكل التنظيمى الهرمى للكومنترن والتى أعدت الصياغة النهائية للموضوعات المقدمة للمناقشة فى اجتماعات الهيئات القيادية للكومنترن. فى عام ١٩٢٦، حدثت إعادة تنظيم من جديد للكومنترن للعمل مع الأحزاب الشيوعية فى الصين ومنغوليا وفارس وسوريا وفلسطين ومصر وغيرها من البلدان العربية، وتم إنشاء سكرتارية الشرق الأدنى (منذ عام ١٩٢٧).

على أن نشاط تلك الهيئات وغيرها من هيئات الكومنترن يتضح فى المجموعات الوثائقية المتكاملة التابعة للمركز الروسى لحفظ ودراسة وثائق التاريخ الحديث. وبهذا الصدد تتميز المجموعة الوثائقية المتكاملة ٤٩٥، المجموعة الفرعية ١٥٤ (من ١ -٩-١٩٢٠ حتى ٢٨-٨-١٩٣٥)، وهى بعنوان "الأممية الشيوعية. السكرتارية الشرقية للكومنترن". هذه المجموعة تهتم بأحد الجوانب المهمة الخاصة بالعلاقات المتبادلة بين الكومنترن والمنظمات الشيوعية فى المنطقة الأفرو آسيوية، ومن ضمنها مصر. وتحتوى هذه المجموعة الوثائقية المتكاملة على المواد المرتبطة بإعداد القيادات الوطنية ودراستها فى الاتحاد السوفيتى، وتحديدا فى

الجامعة الشيوعية لكادحى الشرقى المسماة "جامعة ستالين"، التى أنشئت فى ٢١ أبريل ١٩٢١ تحت إشراف القوميسيارية الشعبية لشئون القوميات. ومع إلغاء تلك القومسيارية فى أبريل عام ١٩٢٤ أصبحت الجامعة تابعة للكومنترن، بل وكانت مهمتها قد تغيرت قبل هذا الوقت. وبعد أن كانت فى بدايتها تعد القيادات للجمهوريات الشرقية السوفيتية فقط؛ فإنها ابتداءً من عام ١٩٢٣ ظهر الأجانب من بين طلابها. وهكذا ظهرت جامعة كادحى الشرق ذات النظام الداخلى. وتم إرسال خطابات إلى زعامات الأحزاب الشيوعية الأجنبية عن شروط القبول فى تلك المؤسسة التعليمية. فى تلك الجامعة كان يتم تدريس المواد التعليمية العامة كالحساب والطبيعة والجغرافية..إلخ، وأيضا المواد المتخصصة مثل: مدخل منهجى للمعرفة السياسية وتاريخ الحزب البلشفى ومادة عن الاتحاد السوفيتى وأسس اللينينية وطرق تحليل السياسة المعاصرة (٢٠).

ولقد بدأ المصريون الدراسة فى جامعة كادحى الشرق منذ عام ١٩٢٣. نعرف أسماء هؤلاء الطلاب لتلك الدفعة الأولى دون ألقاب عائلاتهم: "عبد العزيز" و"أمين يحيى" و"فضل" و"فهمى سيد" و"عمر". إننا نعتقد أن الأعمال الأساسية للدكتور رفعت السعيد عن تاريخ الحركة الاشتراكية والشيوعية المصرية التى تعتمد بالأساس على مواد محققة من أرشيف ووثائق البوليس السرى، وأيضا أعمال المؤرخين المصريين والأجانب الآخرين؛ قد كشفت عن الأسماء الكاملة لهؤلاء الطلاب المصريين. ونعرف من الوثائق أيضا نبذات مختصرة عن حياتهم: عبد العزيز ولد فى عام ١٨٩٦، والتحق بالحزب الشيوعى المصرى فى ١٩٢١ وأصبح عضوا بالحزب الشيوعى الروسى فى١٩٢٥ وهو عامل. أمين يحيى ولد فى ١٨٩٨ والتحق بالحزب الشيوعى المصرى فى ١٩٢٣ وبالحزب الشيوعى الروسى فى ١٩٢٥ وهو موظف. حمدى ولد فى ١٩٠٤ والتحق بالحزب الشيوعى المصرى فى ١٩٢٣ والتحق بالحزب الشيوعى الروسى فى ١٩٢٥ وهو من

المثقفين. فضل ولد فى ١٨٩٦ والتحق بالحزب الشيوعى المصرى فى ١٩٢٢ وبالحزب الشيوعى الروسى فى ١٩٢٤ وهو عامل. زاندبرج جلال ولد فى ١٩٠٣ والتحق بالحزب الشيوعى المصرى فى ١٩٢٢ وبالحزب الشيوعى الروسى فى ١٩٢٥ وهو عامل. وفى وقت الدراسة خضع الطلاب للتدريب المهنى الصناعى، وبوجه خاص قضى فترة التدريب العملى عزيز وعمر وزاندبرج ويحيى فى الأممية النقابية(٢١). يثير الانتباه أن المصريين قد مثلوا شرائح وطبقات اجتماعية مختلفة، ولكن كان بينهم أيضًا العمال، وهذا كان منطقيًا ومتوافقًا مع متطلبات الكومنترن. كان الرفاق المبعوثون من مصر صغارًا فى السن، فلم يتجاوز بعضهم العشرين عامًا. لقد كان ذلك شرطًا ضروريًا للالتحاق بجامعة كادحى الشرق.

تطلب الالتحاق بتلك المؤسسة التعليمية عدا شرط السن مجموعة من المتطلبات الآتية:

١) وضع القسم الخاص أو لجنة الاستقبال أمامه هدف إعداد كوادر حزبية مؤهلة من الكادحين حاملى جنسية الشرق غير السوفيتى، ومن المستعمرات ونصف المستعمرات الأخرى وأيضًا الدول المستقلة، قيادات قادرة على استخدام أساليب الماركسية اللينينية فى عملية النضال الثورى.

٢) يجب أن يُرشح المبعوثون من أكثر عناصر الحزب والطبقة العاملة مقدرةً ومثابرةً وصلابة، ويجب أن يكون قد مضى على عضويتهم فى الحزب الشيوعى المصرى عامين.

٣) الرفاق المبعوثون يجب أن يصلوا إلى موسكو قبل أول أبريل من كل عام، ودون انتظار إخطار بذلك من المركز.

٤) يجب أن يكون المبعوثون متعلمين، يعرفون القراءة والكتابة، ولا يعانون من أى أمراض معدية.

ومن خطاب للجنة المركزية للحزب الشيوعى المصرى، مؤرخ فى ٧ مارس ١٩٢٩، نعلم أن السكرتارية الشرقية للكومنترن قررت تقديم ثمانى منح للدراسة فى جامعة كادحى الشرق سنويًا للحزب الشيوعى المصرى، على أن يكون ثلاث منها مخصصة للفلاحين. بعد ذلك تتضمن تلك الوثيقة تذكيرًا بأنه من الضرورى التعجيل باختيار المبعوثين فى عام ١٩٢٩ الجارى. وتكفلت موسكو بالمصاريف المادية للدراسة، فقد تم توفير السكن والملابس والغذاء والكتب والكراريس مجانًا وأيضًا مصروف الجيب للدارسين المقبولين فى الجامعة. كانت مدة الدراسة تستغرق عامين[٢٢] فى الملف نفسه نجد الكوتة المخصصة لمصر للدراسة فى جامعة كادحى الشرق فى العام الدراسى ١٩٢٩/١٩٣٠، والمقررة بواسطة السكرتارية الشرقية للكومنترن، وقُدرت بخمسة أماكن، بينما حددت فى العام التالى ١٩٣٠/١٩٣١ بثمانية أماكن[٢٣].

كما تكفل الكومنترن بمصاريف انتقال الطلاب الأجانب حتى مكان الدراسة. على سبيل المثال بالنسبة للحصة والميزانية التقديرية للمصروفات للعام الدراسى ١٩٢٤/١٩٢٥، وطبقًا للخطة الموضوعة بابتعاث عشرة أشخاص من مصر، نجد المصروفات المتوقعة لسفر الطالب الواحد إلى موسكو مقدرة بنحو ٣٠٠ روبل ذهبى[٢٤]. كان طريق الطلاب إلى موسكو يمر عبر أوروبا بشكل رئيسى، وساعدتهم الأحزاب الشيوعية الأوروبية فى الوصول إلى موسكو. عن ذلك تتحدث الوثيقة التالية: "الرفيق محمد. س. أ. سلام عضو الحزب الشيوعى المصرى القادم والمتجه إلى موسكو للدراسة فى جامعة كادحى الشرق، لديه من المال ما يكفى لوصوله فقط إلى فيينا. نسألكم تقديم المساعدة الضرورية له حتى

يصل إلى المكان المقصود. السكرتير العام للحزب الشيوعى اليونانى. بتاريخ ٣/١١/١٩٢٤م [٢٥].

كانت السلطات المصرية تعلم عن وجود جامعة كادحى الشرق ودراسة شباب من الشيوعيين المصريين بها، فوضعت جميع العراقيل أمام التحاقهم بتلك الجامعة؛ حيث أصدرت السلطات المصرية، فى عام ١٩٢٥، مرسومًا بمنع الطلاب الدارسين بالاتحاد السوفيتى من دخول مصر إذا لم يرجعوا فى ظرف شهر إلى وطنهم. وتسبب ذلك القرار فى حرمان ستة أشخاص من المقيمين فى موسكو من الجنسية المصرية. فى الوقت نفسه ظهرت فى مصر مقالات منشورة، خاصة فى جريدة الأهرام، عن ظروف الحياة الصعبة فى جامعة كادحى الشرق، وقيل إن من كتب تلك المقالات وبعثها إلى مصر هم الطلاب الدارسون بتلك الجامعة. ومن الممكن جدا أن يكون وراء نشر تلك الأقاويل بعض أعضاء الحزب الشيوعى المصرى، ومنهم بعض الطلاب الدارسين فى جامعة كادحى الشرق. يشير "ف.أفجيدور"- أحد قادة الحزب الشيوعى المصرى- إلى تلك الحقيقة فيقول: "نتيجة للإهمال فى الانضباط الحزبى امتلكت العناصر الهدامة إمكانية كبيرة للتسلل إلى الحزب والقيام بأعمال تخريبية داخله"[٢٦].

فى أرشيفات اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى، الكثير من الوثائق التى تتناول دراسة شباب الحزب الشيوعى المصرى فى الجامعة. وأكثر هذه الوثائق تلك التى تتعلق بالمصرية المعروفة إلى حد ما، "شارلوت روزنتال"، وهى شخصية بارزة فى الحركة الشيوعية المصرية، والتى أمضت فترتين للإعداد فى موسكو، أولاهما فى العام الدراسى ١٩٢٢-١٩٢٣، والثانية من ٢١ مايو ١٩٣٢ وخلال عام ١٩٣٣.

وعند انتهاء فترة الإعداد الأولى للسيدة "شارلوت" احتدمت الأوضاع السياسية داخل مصر؛ ففى عام ١٩٢٤ استغل حزب الوفد الحاكم استيلاء العمال على أحد مصانع الإسكندرية، ليوجه ضربة قاصمة للحزب الشيوعى المصرى واتحاد النقابات القوى التابع له. ويقوم الكومنترن بإيفاد "شارلوت روزنتال" إلى مصر من أجل استرجاع عافية الحزب الشيوعى المصرى وتوطيد صلات الكومنترن بوادى النيل. نجد التفاصيل فى خطاب موجه إلى اللجنة المركزية للحزب الشيوعى الروسى، حيث كانت شارلوت تعمل: " يطلب القسم الشرقى فى الكومنترن ندب الرفيقة شارلوت روزنتال لتكون بإمرة القسم الشرقى، لأنها يجب أن ترجع إلى مصر للعمل فى الحزب هناك. توقيع رئيس إدارة الشرق الأدنى الرفيق بريكة"[٢٧]. وكما يبدو، تم إيفاد شارلوت إلى مصر فى عام ١٩٢٤، ولكن نتيجة الملاحقة الصارمة للحكومة المصرية، أصبح عملها هناك مستحيلاً. ولذلك نجد فى هذا الملف مذكرة تتضمن: "من المقدر إجلاء الرفيق رولان(*) والرفيقة شارلوت روزنتال كنازحين سياسيين إلى سوريا. يطلب القسم الشرقى تقديم المعونة لهما فى استلام المبلغ اللازم لذلك"[٢٨].

فى شهادة توصيف عن شارلوت بعد انتهاء فترة تأهيلها الثانية، نعرف عنها ما يلى: وُلدت فى ١٨٩٩، وهى بنت تاجر، الوضع الاجتماعى- موظفة، ذات تعليم متوسط، تجيد الألمانية والإنجليزية والعبرية والعربية والإيطالية، عضو فى الحزب البلشفى الروسى منذ عام ١٩١٩. يشير المصدر إلى أنها كانت تنجح فى دراستها بشكل مرضٍ، وإن كان ببعض الصعوبات. منضبطة حزبيًا بشكل عام، بشأن التحاقها بجامعة كادحى الشرق، لا مانع من إرسالها إلى البلاد. شهادة التعريف هذه مؤرخة فى عام ١٩٣٢ [٢٩].

(*) (زميل شارلوت فى جامعة كادحى الشرق). (المؤلف)

من خلال محتوى تلك الوثيقة، نعرف أن شارلوت روزنتال زارت للمرة الأولى الاتحاد السوفيتي قبل انصرام عام ١٩١٩، عندما تم قبول عضويتها في الحزب البلشفي الروسي.

نجد فى الأرشيف الحزبى طرفة مثيرة للغاية، تتكون من ثلاث أوراق. الورقة الأولى عبارة عن صفحة غير كبيرة من بلوك نوت مكتوب عليها "الرفيقة ش. روزنتال المبتعثة من الحزب الشيوعى المصرى، وهى مخولة بإقامة اتصال مع الكومنترن" (باللغة الروسية).

الورقة رقم ٢ عبارة عن قصاصة صغيرة من ورق أبيض مكتوب عليها بحبر بنفسجى بحروف روسية ناطقة لكلمات عربية (ورقة ١): الرافيقا شارلوت روزنتال تصلكم بصفتخا أضوتون فى الخزب الشيوعى المصرى ولخا الخق فى تخصيل مراسلاتنا"(*) اللجنة المركزية ١٩٢٨/٢/١٧.

الشحات أبسام

ليون جولدشتين"

الورقة الثالثة عبارة عن ظرف لونه رمادى مكتوب عليه "وثائق تفويض شارلوت روزنتال. ٢٨/٤/٣٠"(٣٠).

الوثيقة السابقة ليست الوثيقة الأخيرة عن الدارسين بجامعة كادحى الشرق، وسنقدم وثيقة أخرى أيضًا عن هؤلاء الطلاب. ففى الملف ٥٥٠ للمجموعة الفرعية نفسها بالمجموعة الوثائقية المتكاملة نفسها وفى الورقة ٤٠ نجد:

(*) وصحة النطق عربيًا بتلك العبارة المكتوبة بالروسية هى (الرفيقة شارلوت روزنتال تصلكم بصفتها عضوة فى الحزب الشيوعى المصرى ولها الحق فى تحصيل مراسلاتنا)– المترجم.

مذكرة

استلمت أنا سرجييف جواز السفر الوطنى باسم عبد العزيز محمد مرعى رقم ٢٠٦٧٨ الصادر فى ١٩٢٧/٩/٧ (جواز مصرى) مستخرج فى القاهرة.

١٩٣٥/١١/١١

التوقيع غير واضح

فى ذلك الملف نجد خطابات كثيرة باللغة العربية [٣١]، أغلبها تخص المصريين. مواضيع تلك الخطابات مختلفة وموجهة إلى جريدة "الشرق العربى" التى تصدر فى باريس.

من الضرورى أن نشير إلى أنه فى حالات الضرورة القصوى كان يتم إرسال طلاب جامعة كادحى الشرق على الفور إلى مصر لتصحيح الموقف الحزبى. بمعنى أن "ورشة الكوادر" قد حققت المهمة المباشرة التى أنيطت بها. لقد أشرنا من قبل إلى ما حدث أثناء أكثر الأوقات صعوبة للحركة الشيوعية المصرية فى أواسط العشرينيات، عندما أدت إحباطاتها إلى شلل نشاطاتها. ولعل وثيقة مثيرة للغاية قد بقيت محفوظة لتؤكد لنا تلك الحقيقة. تلك الوثيقة عبارة عن محضر رقم ١ لاجتماع سكرتارية الشرق الأدنى فى الكومنترن، الذى انعقد فى ٥ أبريل ١٩٢٦، وقد حضره الرفاق: فويتنسكى وفاليتسكى، وفيردى، وأليكسييف، وكيتايجورودسكى[*]، وتحتوى على البند الرابع تحت عنوان " المسألة المصرية". فى ذلك الاجتماع تحدث الرفيق ألكسييف عن "ضرورة إرسال رفاق مختصين بأنشاء التنظيمات إلى مصر"، ويقترح استخدام الطلاب الذين أنهوا دراستهم لهذا الغرض وبالأخص الرفيقين "أ" و"ى". انتهى الاجتماع بعدة قرارات:

(*) (العاملون البارزون فى الكومنترن- المؤلف)

١) تكليف الرفيق "فويتنسكى" بالاتفاق مع إدارة جامعة كادحى الشرق بإرسال الرفيقين المذكورين أنفًا إلى مصر، وتكليف الرفيق "أليكسييف" بإعداد التعليمات والتكليفات لعمل هذين الرفيقين فى مصر وتقديمها فى الاجتماع التالى لسكرتارية الشرق الأدنى" (٣٢).

بمقتضى وثيقة أخرى مؤرخة فى ٢٠ أبريل ١٩٣٤، وتتعلق بتقييم الدراسة فى جامعة كادحى الشرق، نستطيع القول إن الدراسة فى تلك الجامعة قد اعترتها عيوب جسيمة، أثرت بشكل خطير فيما بعد فى عمل خريجيها فى مصر. فقد أشارت الوثيقة إلى أن الجهد الأساسى فى إعداد طلاب الجامعة أنصب على الأهداف الأيديولوجية، وأن القضايا المحلية والمحددة والعملية قد حازت اهتمامًا أقل نتيجة عدم توافر الكوادر المتخصصة. غاب المدرسون المتخصصون فى شئون الشرق الأدنى وشمال إفريقيا، "يعرف مدرسو الاقتصاد السياسى تخصصهم جيدًا، ولكنهم لا يعرفون الأوضاع الخاصة بالدول التى يأتى منها الدارسون"(٣٣). الملاحظة نفسها عن عمل الكومنترن نسمعها فى وقت متأخر من الماركسيين المصريين الذين تحدثوا عن محترفى الكومنترن المبعوثين من موسكو إلى مصر الذين ليس لديهم أى علاقة بالحركة الشيوعية والعمالية، والذين لا يعرفون التحدث بالعربية بشكل صحيح.

تحتوى المجموعة الوثائقية المتكاملة ٤٩٥ المذكورة آنفًا والتابعة للمركز الروسى لحفظ ودراسة وثائق التاريخ الحديث على المواد المتعلقة بالقسم الشرقى للكومنترن، وعلى العديد من المعلومات المثيرة عن مصر. وفى الملف ٤٩٤ نستطيع الاطلاع على السير الذاتية للدارسين فى جامعة كادحى الشرق وبيانات وشهادات التعريف باللاجئين السياسيين المقيمين فى الاتحاد السوفيتى وغيرهم من

الشخصيات. الملف مليء بالأصول والنسخ باللغتين الروسية والإنجليزية (من ١٩٣٢/٢/٢٠ حتى ١٩٣٢/٥/٢٢).

أما الملف رقم ٥٣٨ فى المجموعة الفرعية نفسها، فيحتوى على القرارات الخاصة بمهام الشيوعيين فى عموم حركة التحرر الوطنى العربية، ومشاريع اتحاد فيدرالى للأحزاب الشيوعية العربية. هناك النسخ والأصول المكتوبة بخط اليد باللغتين الروسية والفرنسية (من ١٩٣٤/٧/٣ حتى ١٩٣٤/٨/٣١). ونجد مشروع قرارات الكومنترن بشأن فيدرالية الأحزاب الشيوعية العربية فى الملف ٥٤٧. ونستطيع الاطلاع على محاضر تفريغ تسجيلات كونفرانس الأحزاب الشيوعية للشرق العربى ومشاريع القرارات والقرارات الصادرة من هذا المؤتمر عن المهمات والهياكل التنظيمية للأحزاب الشيوعية للبلدان العربية فى وحدة الحفظ رقم ٥٥٠ التى بها ٢٢٠ ورقة مكتوبة باللغة الروسية (١٩٣٥/٧).

وفى المجموعة الفرعية ٢ للمجموعة الوثائقية المتكاملة ٤٩٥ "رئاسة الكومنترن" نجد مذكرة باللغة الروسية كتبها تريانوفسكى ك.م. أحد رجال الكومنترن البارزين[٣٤]. فى تلك المذكرة الموجهة إلى المكتب المصغر للجنة التنفيذية للكومنترن بشأن تنظيم قسم للشرق الأدنى والأوسط وشمال إفريقيا لدى اللجنة التنفيذية للكومنترن والمؤرخة فى ١٩٢١/٨/١٢، يبرهن الكاتب على ضرورة امتلاك الكومنترن هيئة قائدة ومنسقة قادرة على توجيه حركة التحرر الوطنية المتنامية فى أكبر دولة بالشرق العربى.

لا شك فى استفادة الباحثين من التعرف على المواد الخاصة بالسكرتارية السياسية للكومنترن فى الفترة ما بين ١٩٢٦/١٢/٢٤ و١٩٣٥/٥/١٥ والتى يحتفظ بها فى المجموعة الوثائقية المتكاملة نفسها ٤٩٥ المجموعة الفرعية ٣، حيث سيحوز على اهتمامهم الملف ١٩١ والمعنون "قرارات واقتراحات وتقارير ووثائق

أخرى خاصة بالأوضاع فى البلدان العربية"، المعدة خلال عام ١٩٢٩. ويحتوى هذا الملف على ٢٧ صفحة فقط مكتوبة بالآلة الكاتبة باللغة الروسية واللغة الألمانية.

وحتى لا نثرثر كثيرًا ولكى نتعرف على اتجاه ونوعية تلك النصوص المطبوعة سنسوق مثالاً لتلك الوثائق وهو عبارة عن ثلاث صفحات مكتوبة بالطابعة ومرقمة (أوراق١٠-١٢). عنوان تلك المادة هو "إلى مكتب أوروبا الغربية" بتاريخ ١٩٢٩/١١/٢١.

"الرفاق المحترمون! نطلب منكم تعاونكم العاجل فى القضية الآتية المهمة جدًا.

إن أكثر مهامنا العاجلة الآن، هو بناء الأحزاب الشيوعية فى الشرق العربى. إن الأهمية الثورية لتلك البلدان كبيرة للغاية، إننا حيال صعود جديد للنضال الوطنى الثورى ضد الإمبريالية وضد الملاك والإقطاعيين. وفى الوقت نفسه ما زالت قوانا المنظمة فى تلك البلدان ضعيفة للغاية. يجب أن يكون عملنا الأساسى فى الفترة القريبة المقبلة هو الإسهام فى إنشاء أحزاب شيوعية قوية فى تلك البلدان، أحزاب مرتبطة بالأساس مع جماهير العمال والفلاحين من العرب، أحزاب قادرة على أن تجذب للسير وراءها الجماعات الوطنية والثورية، وعلى تحقيق قيادة البروليتاريا للنضال التحررى ضد الإمبريالية. إننا ننوى فى وقت قريب، ضمن الأشكال المحددة للعمل لبناء الأحزاب، الإعداد لإنشاء أحزاب شيوعية فى البلدان العربية. فى الوقت الحالى لدينا فقط فى فلسطين قيادات شيوعية صلبة إلى حد ما، ولكن صلات الحزب الشيوعى الفلسطينى بالجماهير العربية ضعيفة للغاية، بل والأكثر من ذلك أن الحزب لا يضم بين صفوفه سوى ٢٥ من العرب، أكثر من نصفهم يدرس فى موسكو. فى مصر لدينا حزب سياسى ضعيف جدًا، يبلغ عدد

أعضائه ٧٥ فردا، أغلبهم من العرب، والأنكى أن قيادة الحزب انشقت إلى مجموعتين متخاصمتين، تخوضان حربا تكتلية غير مبدئية فى لحظة تتطلب أقصى قدر من التماسك والوحدة وأقصى نشاط ممكن من الحزب الشيوعى. وهكذا لدينا فقط فى سوريا مجموعة صغيرة متماسكة من الشيوعيين، تمتلك صلات جيدة مع الحركة النقابية، ولكنهم غير معدين سياسيا بشكل كاف. نعتقد أن كوادر الحزب الشيوعى السورى يصلحون أن يكونوا نواة للحزب الشيوعى المنتظر للبلدان العربية، ذلك الحزب يجب أن يشمل بقية بلدان الشرق العربى باستثناء مصر(ورقة ١١)، وفيما بعد يجب أن ينضم اليه الحزب الشيوعى الفلسطينى. من أجل الإعداد لتلك المهمة ينبغى الانتهاء من عمل تحضيرى دائب لإنشاء حركة نقابية عمالية طبقية بتلك البلدان العربية وإنشاء اتحادات نقابات توحد بالأساس العمال العرب، ومن ثم يجب بدء العمل فى إيجاد صلات بالمناطق الريفية العربية وإنشاء منظمات فلاحية فيها. وأخيرا لا بد من التنسيق العملى فى النشاط وتقديم الدعم للجماعات الثورية الوطنية والإشراف على نشاطها.

من أجل وضع خطة للعمل لتحقيق تلك المهام، لا مناص من تقديم مساعدة مباشرة من الكومنترن، وهذا الموضوع يعنى عمليا إيفاد ممثل مسئول من الكومنترن إلى تلك البلدان. نقترح لعدة أسباب، لا مجال لسردها، أن أكثر العاملين مناسبة لتلك البلدان هو رفيق مسئول من الحزب الشيوعى الألمانى، لكن إيفاد رفيق إنجليزى أو فرنسى إلى تلك البلدان المستعمرة من قبل الإمبريالية البريطانية أو الفرنسية، وحيث يتعلق الأمر بنفسية الجماهير العريضة الثورية الوطنية المضطهدة من قبل الإمبريالية الأجنبية، لن يكون مفيدا. ستكون المهمة العملية لممثلنا مساعدة الأحزاب الشيوعية لتلك البلدان فى قضية إنشاء الحزب الشيوعى للبلدان العربية وفى النشاط العملى فى النقابات العمالية ووسط الفلاحين وإقامة صلات مع بعض المجموعات الثورية الوطنية ذات المواقف القريبة منا. لقد تلقينا

فى الوقت الحاضر اقتراحا من أحد الزعماء المعروفين للحركة الوطنية الثورية العربية (كان اسمه مكتوبا، لكن تم شطبه فيما بعد بحبر صينى أزرق- ملاحظة للمؤلف) حول توطيد الاتصال به وتقديم المساعدة السياسية والتنظيمية له، ونحن نبحث ونحضر الآن أشكال محدددة للاتصال به. لكننا نرى أنه من الضرورى لتحقيق تلك المهمة وغيرها من المهام المذكورة أنفًا مشاركتكم الشخصية فى عمل (ورقة ١٢) ممثل الكومنترن.

لذا نتوجه إليكم بطلب أن تضعوا بكل إصرار أمام اللجنة المركزية للحزب الشيوعى الألمانى موضوع الفرز العاجل لأحد الرفاق المسئولين لديه ليكون تحت إمرة الكومنترن. بسؤال الرفيق "إيفرت" عن موضوع الترشيح المناسب لهذه المهمة، اقترح علينا ترشيح الرفيق "باول ديتريخ". ونحن نعد ذلك الترشيح أيضا كفوًا وكافيًا ومناسبًا ونطلب منكم مناقشة ذلك سويًا مع سكرتارية اللجنة المركزية للحزب الشيوعى الألمانى، وموضوع إمكانية إرساله إلى الشرق العربى لمدة نصف عام. وفى حالة الموافقة من قبل سكرتارية اللجنة المركزية للحزب الشيوعى الألمانى، ومن قبل الرفيق "ديتريخ"، نطلب منكم إرسال الرفيق "ديتريخ" سريعًا إلى موسكو للتباحث معنا حول المهام المحددة وظروف العمل وأيضًا لمقابلة ممثل الحركة الوطنية العربية المذكور سابقًا هنا فى موسكو. فى حالة استحالة إرسال الرفيق "ديتريخ" بالنسبة لكم وللحزب الشيوعى الألمانى أو فى حالة رفض الرفيق الشخصى البات لتلك المهمة، نرجو ترشيح رفيق مسئول آخر يُمكن إرساله للعمل فى تلك البلدان.

أشار لنا الرفيق "أولبريخ" إلى إمكانية ترشيح الرفيق "براور". فى جميع الأحوال فإن الرفيق المبعوث إلى تلك البلدان يجب أن يكون مؤهلاً وذا خبرة ضرورية واستقلالية، وأن يحوز على تأثير طاغٍ، ليس فى عيون الشيوعيين العرب

بل وسط الزعماء المجربين الوطنيين الثوريين فى مصر وسوريا الذين يكونون أحيانا "دبلوماسيين" ذوى خبرة كبيرة.

أضف إلى ذلك أن هذا الرفيق يجب أن يمتلك مرونة كافية مع الاحتفاظ بالاتجاه الصحيح فى الاقتراب من القضايا والبشر (نعتبر ترشيح أى رفيق يهودى غير مناسب فى ضوء الوضع الخاص باليهود فى فلسطين).

نأمل فى أن تبدى اللجنة المركزية للحزب الشيوعى الألمانى بصدد هذا الموضوع تعاونا عمليًا وسريعًا. ننتظر فى الأيام المقبلة ردًا تلغرافيًا منكم. لظروف تقنية، لن نستطيع إجابتكم تحريريًا لأن هذا الموضوع عاجل للغاية بالنسبة لنا.

نطلب منكم ترجمة ذلك الخطاب الحالى واطلاع ممثل سكرتارية اللجنة المركزية للحزب الشيوعى الألمانى والرفيق "ديتريخ" عليه. بعد الاطلاع على هذه الرسالة نرجوكم إعدامها.

بناءً على طلبنا أرسل الرفيق "إيفرت" خطابًا مرفقًا خاصًا بذلك الموضوع إلى الرفيق "ديتريخ"، برجاء تسليمه للمذكور

مع تحية شيوعية"

تثير الاهتمام أيضًا بقية المواد الموجودة فى المجموعة الوثائقية المتكاملة ٤٩٥، المجموعة الفرعية ٤ الخاصة بعمل اللجنة السياسية للسكرتارية السياسية للكومنترن (١٩٢٩-١٩٣٣)، والمجموعة الوثائقية الفرعية ٦ المحتوية على عمل اللجنة المصغرة للكومنترن (١٩٢٦-١٩٣٣)، والمجموعة الوثائقية الفرعية ١٧ المحتوية على وثائق اللجنة الدائمة لسكرتارية الكومنترن.

إلى جانب المصادر الكاملة للهيئات الإدارية للكومنترن، سنجد عددًا كبيرًا من المعلومات المهمة فى المجموعات الأرشيفية المتكاملة الأخرى به. من بينها البيانات والمعلومات الموجودة في "أرشيف المواد الوثائقية لمعهد البحث العلمى للمشكلات القومية والاستعمارية"، لمكاتبه العلمية. لقد أصدر هذا المعهد العديد من الكتب والأوراق والمذكرات والمقالات.

ولكى نحكم على قيمة البحوث والدراسات التى قام بها الباحثون فى المعهد نستعرض محتويات المجموعة الوثائقية المتكاملة ٥٣٢، المجموعة الفرعية ٤، حيث نجد عنوان وحدة الحفظ ١: "مجموع وثائق الحزب الشيوعى السورى، الموضوع بواسطة باحثى المكتب العربى بالمعهد. إصدارات ١-٤. صور من الأصل. ١٩٣٧. باللغة الروسية". فى السنة نفسها نجد "كراسات دراسية عن تاريخ الحزب الشيوعى العراقى وعن الأوضاع فى العراق" (ملف٣).

تلك الدراسة العميقة، من وجهة نظرنا، للمواضيع العربية فى معهد للبحث العلمى لم يكن لها أن تتجاهل المشكلات المصرية. وبالفعل أبدى المكتب العربى اهتمامًا جديًا بالقضايا الرئيسية الخاصة بتطور مصر. نجد الباحثة ل.ن.فاتولينا تؤلف مذكرة بعنوان "السياسة الاقتصادية للوفد" (١٩٣٧) فى ٤٥ صفحة مطبوعة[٣٥]. لقد قامت تلك الباحثة فيما بعد بكتابة عدة أعمال عن اقتصاد مصر[٣٦]. فى مذكرتها السابقة نجد سردًا للمشكلات الاجتماعية والاقتصادية التى شارك فى صنعها الوفد فى عشرينيات وثلاثينيات القرن العشرين، أو التى ضمنها فى برنامجه الاقتصادى الحزبى، بما فيها ما أعلنه فى مؤتمره الأول عام ١٩٣٥. وقد قامت الباحثة "فاتولينا" بتقييم البرنامج الاقتصادى للوفد، أضخم هيئة سياسية فى مصر، من وجهة نظر طبقية، وانتقدت بالأساس صانعيه.

فى المجموعة الفرعية نفسها نجد الملف ٩ الذى يحتوى على مقالات وعروض ومواد أخرى حول الأوضاع السياسية والاقتصادية للحركة العمالية فى مصر باللغات الروسية والألمانية والعربية، والمؤرخة فيما بين عامى ١٩٣١ و١٩٣٨.

تتعلق المجموعة الوثائقية المتكاملة ٥٣٢، المجموعة الفرعية ٤، ملف ٩ (بتاريخ ١٩٣٨/٧/٢٣) فى المركز الروسى الحكومى لحفظ الوثائق بمشكلات الطبقة العاملة فى مصر. ففى وحدة الحفظ تلك، نرى عمل ف.جفوزدف الباحث فى معهد البحث العلمى لدراسة المشكلات القومية والاستعمارية وهو بعنوان: "من مذكرات جفوزدف- التشريعات العمالية فى مصر (دراسة مختصرة)".

يكتب المؤلف فى ورقة ٣٠: "إن أول نقابات عمالية للعمال المصريين ظهرت فى عامى ١٩٠٤ و١٩٠٥ (نقابات عمال التبغ وعمال الطباعة وغيرها)، لكن تلك النقابات كانت قليلة للغاية وضمت عددًا ضئيلاً من العمال. فقط فى عام ١٩١٩ عندما (ورقة ٦١) اجتاحت البلاد موجة حركة التحرر الوطنى القوية، انخرطت الطبقة العاملة المصرية المتنامية سريعًا وقت الحرب بفعالية فى النضال من أجل حقوقها، وتطلعت إلى تنظيم صفوفها.

هكذا تظهر فى أعوام ١٩١٩-١٩٢١ المنظمات النقابية الضخمة مثل اتحاد عمال الموانئ (٢٢ ألف شخص)، واتحاد عمال الصناعات المعدنية (١٥ ألف شخص)، واتحاد عمال النسيج (١٨ ألف شخص). فى تلك الفترة تتوسع حركة إضرابية عاصفة للطبقة العاملة، لم تشهد مصر مداها من قبل. تتحول الإضرابات ذات الطبيعة السياسية فى البداية بالتدريج وتصبح على أرضية اقتصادية.

يبذل حزب الوفد الوطنى الإصلاحى كل جهوده للسيطرة على الحركة العمالية ليستخدمها لصالحه وليحجمها فى حدود معينة: "كثير من النقابات العمالية

الكبيرة فى مصر (نقابة العاملين بقناة السويس ونقابة العاملين بالترام ونقابة العاملين بالسكك الحديد وغيرها) تم إنشاؤها بمشاركة مباشرة من الوفد، وتزعم أغلبية المنظمات النقابية وفديون بارزون...".

يتناول المؤلف فى مذكرته موضوع قيادة الحركة العمالية من قبل الوفد، مستمرًا فى انتقاد ذلك الحزب، وذلك كان طبيعيًا تمامًا ومتفقًا مع مواقف الكومنترن والأممية العمالية والحركة الشيوعية والعمالية والنقابية المصرية التى تتبع نظرية "الثورة الاشتراكية العالمية"، والتى قدمت المساعدة بكل الوسائل لتأييد الحركة الثورية في وادى النيل. وكما رأينا فى المواد الأرشيفية المقدمة من المجموعات الوثائقية المتكاملة للمركز الروسى الحكومى لحفظ الوثائق، كيف تعلمت قيادات فى الاتحاد السوفيتى وفى جامعة كادحى الشرق لتحقيق شعار "الثورة العالمية"، وكان بعضها فى رأى الماركسيين المصريين لا يعرف التحدث بالعربية بنطق صحيح، وتم إرسالها فيما بعد إلى مصر. لقد أضر ذلك بالطبع بنشر الأفكار الاشتراكية والشيوعية فى البلاد. لقد تم اتخاذ قرارات عديدة فى أحيان كثيرة موجهة ضد البرجوازية الوطنية المصرية. وبسبب ذلك فى الأغلب اندلع النزاع بين الوفد ممثل مصالح تلك البرجوازية واليساريين المصريين، والذى كانت نتيجته أن حظرت الوزارة الوفدية الحاكمة الحزب الشيوعى المصرى، واتحاد النقابات العمالية المصرية الضخم الذى كان يقوده الشيوعيون. وأصدر مفتى الديار المصرية فتوى ضد البلشفية معتبرًا إياها كفرًا وردة(*)، وحذر المسلمين من اتباع مبادئها. وفى

(*) هذه الفتوى أصدرها مفتى الديار المصرية الشيخ محمد بخيت فى ١٨ أغسطس ١٩١٩ قبل وصول الوفد إلى الحكم فى يناير ١٩٢٤. وكانت الفتوى جزءًا من سياسة مواجهة النشاط اليسارى الذى تغلغل أثناء أحداث ثورة ١٩١٩، وتمت بترتيب معين من السلطات البريطانية فى مصر حين جعلوا أحد عملائهم يرسل السؤال إلى المفتى عن رأيه فى طريقة البلشفية فأجاب المفتى بقوله: "إن طريقة جماعة البلاشفة طريقة تهدم الشرائع السماوية وعلى

يوليو ١٩٢٥ تم ترحيل عشرات المهاجرين الروس بالقوة على متن الباخرة الروسية "تشيشيرين"، وهي راسية على الرصيف الخارجي للميناء، وأُخرجوا من البلد بتهمة "الدعاية الشيوعية". تلك المعطيات التي ساقها ف.جفوزدف، تجذب اهتمام المؤرخين حتى وقتنا الحاضر. ويستطيع الباحثون باستخدامها التقدم في بحوثهم إلى الأمام. أصبح معروفًا اليوم، أن أول نقابة عمالية في مصر تكونت في عام ١٨٩٤ بواسطة عمال السجائر في مصانع التبغ بالقاهرة، تلك الصناعة الأكثر تطورًا أنذاك، حيث ظهرت في وادي النيل منذ أواسط القرن التاسع عشر. كانت السجائر المصرية من نوع "كليوباترا" و"أبو الهول"(*)، عليها طلب كبير في أوروبا.

تم إنشاء "رابطة التضامن والإحسان للفافي السجائر"، قبل إضراب عمال التبغ القاهريين في صيف عام ١٨٩٤، وضمت تلك الرابطة نحو ٧٠٠ عضو. كان بينهم نحو ٢٠٠ من اليونانيين وتنوع الباقون بين سوريين ومصريين ويهود وآخرين. بخلاف جمعيات التضامن الأخرى تجاوزت تلك الرابطة صلاحياتها ودخلت في مواجهة مباشرة مع أصحاب مصانع التبغ. قامت بتنظيم وقيادة إضراب لفافي السجائر، وهو من أوائل الإضرابات الكبرى في تاريخ مصر. هذا الإضراب استمر من نهاية مايو حتى أواسط يونيو ١٨٩٤ وقادته لجنة أممية مكونة من مصريين ويونانيين وشوام وأرمن وغيرهم. دافعت المنظمة الاجتماعية للفافي

الأخص الشريعة الإسلامية"، وقد بادرت السلطات البريطانية بترجمتها إلى اللغة الإنجليزية وتوزيعها بين مسلمي المستعمرات البريطانية. (المراجع)

(*) تم تصنيع سيجارة "كليوباترا" في منتصف خمسينيات القرن العشرين لاستخدام جمال عبد الناصر الذي كان يدخن سيجارة "دانهيل" الإنجليزية ولم يجد من اللائق أن يدخن هذه السيجارة الإنجليزية، في الوقت الذي تقف إنجلترا ضد سياساته. وعندما عبر عن ذلك أمام أصدقائه جاءت فكرة تصنيع سيجارة جديدة لتكون مصرية فكانت كليوباترا. أما سيجارة أبو الهول فجاءت لاحقًا بعد كليوباترا. (المراجع)

السجائر القاهريين بقوة عن المصالح الاقتصادية لأعضائها، ورفعت مطالب زيادة رواتب العمل وحظر تشغيل الصبية (قاطعي السجائر) ودفع يومياتهم على حساب العمال، والاعتراف بالنقابة. امتلكت رابطة العمال هيكلاً تنظيميًا محددًا بفضل النواة القيادية الأممية، تمثل الهيكل فى الرئيس والسكرتير وأمين الصندوق. فى سياق الإضراب الضخم نسبيًا، لم يعد هذا الهيكل التنظيمى كافيًا، فانتخب المشاركون فى الإضراب من وسطهم لجنة قيادية، أتمت عبر الإضراب شكلها التنظيمي. وتحققت مطالب العمال عبر تشكيل لجنة تحكيم من العمال وممثلى أصحاب العمل.

ومثلما حدث فى المرحلة التاريخية المقابلة فى الدول الأخرى، بتحقيق الإضراب أهدافه، انتفت الضرورة فى وجود اللجنة القيادية، ثم بدأت فعاليتها تضعف تدريجيًا عبر انخفاض نشاط وتأثير أعضائها. ولكن ما تحقق من نتائج إيجابية بواسطة عمال التبغ لعب دوره فيما بعد، فمع تدهور الأوضاع المادية فى نهاية عام ١٨٩٦ قام لفافو السجائر بإعادة الحياة إلى نقابتهم، وفى عامى ١٨٩٩ و١٩٠٠ دافعت رابطة لفافى السجائر بنجاح عن مصالح العمال(٣٧).

كما يتعرض ف.جفوزدف فى مذكرته لحالة التشريع النقابى العمالى فى مصر ويعدد مراحله ولوائحه الأساسية المعتمدة منذ بداية القرن التاسع عشر. يتحدث عن الوضع الاقتصادى الصعب للكادحين والاستغلال القاسى للشركات الأجنبية لهم وحرمانهم من حقوقهم القانونية، وفى الوقت نفسه يشير إلى بضعة إجراءات اتخذها النظام الاستعمارى تستهدف ترويج الأوهام عن الاهتمام بشئون العمال وقطع الطريق على حركة الإضراب المتصاعدة. لتحقيق كل تلك الأهداف تكونت لجنة فى وزارة العدل برئاسة عبد الرحمن رضا وقامت بزيارة المراكز الصناعية الكبرى، وتفقدت بعض المصانع لتصوغ اقتراحًا يتناول بعض الجوانب

الاقتصادية الخاصة بالعمال مثل ساعات يوم العمل والتأمين فى حالات حوادث العمل ومعاشات التقاعد وغيرها. وفى نهاية عام ١٩٣٠، تم إنشاء مكتب العمل ليكون تابعًا لإدارة الأمن بوزارة الداخلية. وفى عام ١٩٣٢ قامت الحكومة المصرية بدعوة نائب المكتب الدولى للعمل "باتلر". لكن الواقع العملى لم يشهد تغييرًا فى ظروف العمل، إلا بعد العديد من النقاشات التى استمرت بضعة أعوام، عندما تم إقرار عدة مراسيم فى حقل التشريعات العمالية مثل: قانون حظر عمل الأطفال حتى عمر ١٢ سنة فى عام ١٩٣٣، والأمر الإدارى بتقليص يوم العمل للأحداث فى عام ١٩٣٣، وتحديد عدد ساعات العمل بتسع ساعات يوميًا فى المناجم ومحطات توليد الكهرباء وبعض فروع الصناعات. وعلى الرغم من ذلك، رأى واضعو ومنظمو تلك التشريعات أنها غير مؤثرة وبلا فاعلية. كانت وجهة نظر ف.جفوزدف أن الأوضاع فى مصر مرشحة للتفاقم وتردى الأوضاع الاقتصادية للطبقة العاملة المصرية ولتصاعد الصراع الطبقى(٣٨).

فيما يتعلق باستمرار العرض التحليلى للتشريعات العمالية فى مصر، فإن مجال البحوث التاريخية السوفيتية قد شهد فى العقود التالية العديد من الدراسات الخاصة بذلك الموضوع، بما فيها عن مرحلة البداية الصعبة لتطورها. فقد أدت التغييرات فى الأنظمة الحقوقية والقضائية وأيضًا إنشاء تشريع مختلط وآخر مصرى على الطراز الغربى إلى الاستدراك بإدخال مواد تنظم الأحكام المتعلقة بالعمل المأجور الذى انتشر فى مصر مع تحديث القوانين فى إطار العلاقات الرأسمالية الاستعمارية . لقد كانت تلك التشريعات "الوطنية" و"المختلطة" المرتبطة بدرجة أو بأخرى بالعمل المأجور بمثابة المرحلة الانتقالية الأولى للتشريعات العمالية. وبتسريع تطور ونمو منظومات العمل المأجور بمشاركة المهاجرين وانضمام أعداد أكبر من العمال المصريين فيها، لم تستطع المواد المبتورة للقوانين "الوطنية" و"المختلطة" أن توفر علاقات حقوقية بين أرباب الأعمال وقوة العمل

المأجورة. لذلك عمدت السلطات (غالبًا ما كانت تابعة لوزارة الداخلية) إلى إقرار تشريعات قانونية، تُستخدم لمرة واحدة بغرض تنظيم المؤسسات الاجتماعية التقليدية وفقًا للتحديث الاستعماري. مثلت قرارات الحكومة المصرية التجميلية (المستخدمة لمرة واحدة)، التي استهدفت التخلص من التوتر الاجتماعي بما فيها الإضرابات والاعتصامات بعد المواد المبتورة في القوانين الوطنية والمختلطة، مرحلة قانونية انتقالية ثانية في الطريق لعمل تشريع عمالي. لقد أدت تلك المراسيم القانونية المحددة إلى ظهور أول قوانين بدائية خاصة بالعمل. وقد كانت تلك بداية المرحلة الثالثة على الطريق لإصدار تشريعات عمالية مستقلة. كان إقرار تلك القوانين الأولى للعمل في بداية القرن العشرين مرتبطًا بسببين. أولهما: ظهور جماعة اجتماعية جديدة، هي طبقة العمال المأجورين، مما أثار انتباه السلطات وأرباب العمل. وثانيهما: إن المستعمر البريطاني استهدف إثبات ضرورة وجوده في مصر أمام الرأي العام العالمي ليقوم بمهمة "تمدين المصريين"، فاضطر إلى الموافقة على إصدار قوانين تخفف من ظروف العمل في بعض فروع الصناعات[٣٩].

وأخيرًا نستعرض المجموعة الوثائقية الفرعية ٦ التابعة للمجموعة الوثائقية المتكاملة ٥٣٢ التي خصصت بالكامل لأعمال هيئة تحرير مجلة "الشرق الثوري" الصادرة عن جامعة كادحي الشرق. لقد أنجزت تلك الجماعة من الأفراد عملاً ضخمًا على مدى بضعة عقود في التحضير ونشر الدراسات المعنية بالأحداث والتطورات البارزة في المنطقة الأفرو آسيوية. يتعرض الملف ١٥ والمكون من ٩ ورقات بعنوان "العرب والحرب الأهلية في إسبانيا" (١٩٣٧) إلى مشاركة المنحدرين من أصول عربية إلى جانب فرانكو في تلك الحرب.

لقد تم نشر أغلب مذكرات معهد البحث العلمى للمشكلات القومية والاستعمارية من خلال مجلة "الشرق الثورى"[٤٠].

وصدر كثير من دراسات وأبحاث ذلك المعهد فى إصدارات أخرى شبيهة مثل: "المشاكل الزراعية"، "الشرق الجديد"، "الأممية الشيوعية"، "الشرق المُستعمر" وغيرها.

بالانتهاء من استعراض المجموعات الوثائقية المتكاملة نشير إلى أن استخدام موادها يثير انتباه الباحثين حتى أيامنا الحالية، وأنه فى نهاية تسعينيات القرن العشرين قام الماركسيون المصريون بتشكيل لجنة لتوثيق تاريخ الحركة الشيوعية حتى عام ١٩٦٥ بهدف جمع الوثائق عن نشاط المنظمات اليسارية المصرية[٤١]. استطاعت تلك اللجنة جمع عدد كبير من المواد بما فيها الوثائق الموجودة فى معهد نظرية وتاريخ الاشتراكية التابع للجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى (حاليًا).

الهوامش

(١) وثائق السياسة الخارجية للاتحاد السوفيتى، الجزء الأول، موسكو، ١٩٥٧، ص٣٤-٣٥. "بالروسية"

(٢) فاتلين أ.يو. الكومنترن: فى السنوات العشر الأولى، موسكو، ١٩٩٦ "بالروسية". وأيضًا بيرسيتس م.أ. التدخل من وراء الجدار، موسكو، ١٩٩٦ "بالروسية"، وأيضًا للمؤلف الأخير "عن دور الكومنترن فى الشرق- مقال فى مجلة الفكر الحر، عدد ٥، عام ١٩٩٦ "بالروسية".

(٣) رفعت السعيد. تاريخ الحركة الشيوعية المصرية ١٩٠٠- ١٩٤٠. الجزء الأول. القاهرة، ١٩٨٧، ص.٢٠٦-٢٠٩. "بالعربية".

(٤) المجموعة الوثائقية المتكاملة ٤٩٥، مجموعة فرعية ١٥٤، ملف ١٤٣، ورقة ٢٦.

(٥) المجموعة الوثائقية المتكاملة ٥٣٩، مجموعة فرعية ٣، ملف ٦٢٩، ورقة ١٨.

(٦) المجموعة الوثائقية المتكاملة ٥٣٤، مجموعة فرعية ٤، ملف ٢٢٧، ورقة ٦.

(٧) طارق إسماعيل ورفعت السعيد، نشر جامعة سوراكوز ١٩٩٠، ص٣٦.

(٨) المجموعة الوثائقية المتكاملة ٥٣٥، مجموعة فرعية ٢، ملف ٤٥، ورقة ٣٤.

(٩) رفعت السعيد. تاريخ الحركة الشيوعية المصرية ١٩٠٠-١٩٢٥. الطبعة الخامسة- القاهرة ١٩٨١.ص١٨٥-١٨٦. "بالعربية"

(١٠) أنظر بالتفصيل فى ف.ف. بولياكوف- "عندما آوت إفريقيا طائر النار"- موسكو ٢٠٠٠. ص ٨٧-٩٣.

(١١) أزييف أحد قيادات الحزب البلشفى، الذى كان متعاونا مع الشرطة القيصرية السرية والذى تم كشفه عام ١٩١٨ والحكم عليه بالإعدام، ولكنه اختفى – المترجم.

(١٢) طارق إسماعيل ورفعت السعيد. مصدر سابق ص١٠.

(١٣) ف.أفيجدور.عن المراحل الأساسية لتطور الحزب الشيوعى المصرى- مجلة الشرق الثورى.موسكو.العدد السادس.١٩٣٤م.

(١٤) المجموعة الوثائقية المتكاملة ٥٣٤، ٤، الملف٢٧٧، أوراق١٠-١٤.

(١٥) المجموعة الوثائقية المتكاملة ٤٩٥، المجموعة الفرعية ١٥٤، الملف ١٩٦، ورقة ٣٠.

(١٦) المجموعة الوثائقية المتكاملة ٥٣٥، المجموعة الفرعية ١، ملف١١٧، صفحة ١٢٥.

(١٧) المجموعة الوثائقية المتكاملة ٥٣٥، المجموعة الفرعية ١، الملف ١٦، ورقتا ٧٣ ، ٧٤.

(١٨) المجموعة الوثائقية المتكاملة ٥٣٥، ٢، الملف ٦٥، ورقة ١٨.

(١٩) المجموعة الوثائقية المتكاملة ٥٣٤، ٤، الملف ٢٢٧، ورقة ١٤.

(٢٠) انظر بالتفصيل: ن.ن.تيموفييف- الجامعة الشيوعية لكادحى الشرق- مركز الإعداد الفكرى للقيادات الشيوعية والثورية للشرق.رسالة للحصول على دكتوراه الفلسفة فى العلوم التاريخية. موسكو. (إيفران) ١٩٨٨م.

(٢١) المجموعة الوثائقية المتكاملة ٥٣٢، المجموعة الفرعية ٢، الملف ٦٤، ورقة ٣٥.

(٢٢) المجموعة الوثائقية المتكاملة ٥٣٢، المجموعة الفرعية ١، الملف ٧١، ورقة٦.

(٢٣) المصدر السابق نفسه، ورقة ١٥.

(٢٤) المجموعة الوثائقية المتكاملة ٤٩٥، المجموعة الفرعية ١٥٤، الملف ٢٢٥، ورقة ١٣.

(٢٥) المصدر السابق نفسه. الملف ٢٣٢، ورقة ٧٩.

(٢٦) أفجيدور. الأزمة والنهوض الثورى في مصر. مجلة الشرق الثورى. ١٩٣٢، عدد ١-٢، صفحة ١٧.

(٢٧) المجموعة الوثائقية المتكاملة ٤٩٥، المجموعة الفرعية ١٥٤، الملف٢٢٦، أوراق ١٥٣، ٢٧٨.

(٢٨) المصدر السابق نفسه. ورقة ١٧٠.

(٢٩) المجموعة الوثائقية المتكاملة ٥٣٢، المجموعة الفرعية ٣، الملف ٢٤، ورقة ٤٧.

(٣٠) المجموعة الوثائقية المتكاملة ٤٩٥، المجموعة الفرعية ١٥٤، الملف ٣٦٥، أوراق٣٢-٣٣ على ظهر الورقة.

(٣١) أنظر أوراق ٤٣-٤٥، ٧٠-٧١، ١٠١ وغيرها.

(٣٢) المجموعة الوثائقية المتكاملة ٤٩٥، المجموعة الفرعية١٥٤، الملف٢٦٤، ورقة٢٠.

(٣٣) المجموعة الوثائقية المتكاملة ٥٣٢، المجموعة الفرعية١، الملف٨٩، ورقة٦٠.

(٣٤) هو مؤلف عدة أبحاث علمية خاصة بمصر. أنظر على سبيل المثال: مصر المعاصرة - موسكو.١٩٢٤ وطبقات وأحزاب مصر المعاصرة (عرض وتحليل اقتصادى سياسى)- الشرق المستعمر. موسكو.١٩٢٤.

(٣٥) مجموعة وثائقية متكاملة ٥٣٢، مجموعة فرعية ٤، ملف ٦.

(٣٦) أنظر على سبيل المثال: فالوتينا ل. "مصر المعاصرة". موسكو. ١٩٤٩، وفالوتينا ل. "اقتصاد الجمهورية العربية المتحدة" موسكو.١٩٦٢.

(٣٧) جورياتشكين ج.ف. صفحات من الحوار الثقافى الروسى- المصرى. جزء ٢.منشأة المعارف. الإسكندرية، ٢٠٠٤، ص٧٤-٩٠ "بالعربية".

(٣٨) ف.جفوزدف "من مذكرات جفوزدف- التشريعات العمالية فى مصر (دراسة مختصرة)": المجموعة الوثائقية المتكاملة ٥٣٢، المجموعة الفرعية ٤، ملف ٩، أوراق ٦٤-٦٥.

(٣٩) انظر بالتفصيل فى ج.ف.جورياتشكين.بعض خصائص تطور النظام القانونى ومصادر التشريع العمالى فى مصر (١٨٤١-١٩١٨)/ الشرق والعصر الحديث. الاقتصاد وبناء الدولة.موسكو.١٩٩١.ص.٢٧٢-٢٩١.

(٤٠) انظر أ.جبالى (أ.شامى). الحزب، الذى لا يمكن الحديث عنه. عدد٧. ١٩٢٠، أ.شامى. مصر بعد الانقلاب. عدد٧. ١٩٢٩، ف.ستارينين وضع الطبقة العاملة فى مصر، عدد٤، ١٩٣٥.

(٤١) أعضاء تلك اللجنة: أحمد نبيل الهلالى، إسماعيل عبد الحكم، ثريا أدهم، خالد حمزة، رمسى لبيب، سعد الطويل، شكرى عازر، طه سعد، سيد ندا،

عبد الخالق الشهاوى، فاطمة زكى، فتح الله محروس، فخرى لبيب، فوزى حبشى، مبارك عبده فضل، محمود أمين العالم، محمد الجندى، محمد فخرى، نجاتى عبد المجيد. عدا ذلك تضم اللجنة الباحثين: حلمى شعراوى، د. عاصم الدسوقى، بشير السباعى صلاح العمروسى، مصطفى مجدى الجمال، عزة خليل. استضافت اللجنة مؤلف هذا الكتاب فى ديسمبر ١٩٩٦ وأحضر معه وثائق تهم اللجنة وألقى محاضرة حول الأوضاع فى روسيا.

الأرشيف الروسى الحكومى للأدب والفن

من المفهوم أن الأرشيفات الذى ذكرناها سابقًا لا تعنى أنها كل المؤسسات التوثيقية فى موسكو، حيث يستطيع الباحث اكتشاف مواد خاصة بمصر. فالأرشيف التاريخى الحكومى لمدينة موسكو يقع فى العاصمة. وتوجد أيضًا أرشيفات متعددة مثل: الأرشيف المركزى الروسى الحكومى للأدب والفن، والأرشيف المركزى الحكومى للوثائق الفوتوغرافية والسينمائية للاتحاد الروسى، والأرشيف المركزى الحكومى للوثائق للتسجيلات الصوتية للاتحاد الروسى، وقسم المخطوطات التابع للمكتبة الحكومية الروسية (مكتبة لينين سابقًا). كما أن للمتاحف العديدة فى مدينة موسكو أرشيفاتها الخاصة، ومنها على سبيل المثال تلك التابعة للمتحف التاريخى(١). عدا ذلك يثير الاهتمام أرشيفات المتحف التاريخى للفنون الجميلة المُلقب باسم بمتحف أ.س.بوشكين، والمتحف المركزى الحكومى للمسرح المُلقب باسم متحف "أ.أ باخورشين".

ولقد تم إنشاء الأرشيف الروسى الحكومى للأدب والفن فى عام ١٩٤١ على قاعدة المتحف الحكومى للأدب الذى تأسس فى ١٩٣٣. تعكس وثائق الأرشيف المراحل المتعددة لتطور الأدب والفن، وتبلغ أعدادها نحو ٩٠٠ ألف وثيقة.

تعبر وثائق الأرشيف عن المراحل المختلفة لتطور ونمو الفن والأفكار الاجتماعية بين ممثلى الثقافة الوطنية والعالمية وإبداعاتهم الفنية. وتتجمع فى الأرشيف المجموعات التوثيقية المتكاملة لوزارة الثقافة السوفيتية، ولجنة شئون الفن، ولجنة شئون السينما، والمسارح واستوديوهات السينما والمؤسسات التعليمية

المتخصصة ودور النشر، واتحادات المعماريين والكتاب والفنانين التشكيليين والسينمائيين والمسرحيين والموسيقيين، والجمعيات الأدبية والتجمعات والحلقات المختلفة، والمجموعات الوثائقية الخاصة المملوكة للكتاب والشعراء والنقاد والفنانين التشكيليين والمؤلفين الموسيقيين ونجوم المسرح والسينما وأيضًا مجموعات وثائقية متفرقة.

تبدو عملية تشكل وتطور الأدب السوفيتي مطبوعة فى المجموعات الوثائقية المتكاملة لاتحاد الكتاب بالاتحاد السوفيتي، وما سبقه من التجمعات والحلقات الأدبية ودور النشر الأدبية، وهيئات تحرير الصحف والمجلات، والمتحف الحكومى للأدب ومجموعات وثائقية خاصة بكُتاب النثر: م.م.جرين، ى.ج.إيرينبورج، ك.ج. باوستوفسكى، أ.أ.فادييف، ن.أ.أوستروفسكى، أ.ب.جايدار، والشعراء: أ.أ.أخماتوفا، ب.ل.باسترناك، م.ى.تسفيتوف، ف.ف.ماياكوفسكى، س.أ.يسينين، أ.ت.تفاردوفسكى، ك.م.سيميونوف وغيرهم.

وتعد المجموعة الوثائقية المتكاملة المعنونة "العلاقات الثقافية مع مصر" مفيدة للغاية. نجد فيها مواد مبكرة، مؤرخة فى عام ١٩٤٢. فى هذا التاريخ بعينه، يصل خطاب من القاهرة إلى متحف الفنون الجميلة فى موسكو، كاتبه هو البروفيسور ج.إ.لوكيلانوف، أحد المهاجرين الروس العاملين بالبحث عن الآثار، والذى عاش فى مصر فيما بين عامى ١٩٢٠ و١٩٤٥ حيث قام لوكيلانوف بتأليف ٦٠ عملاً علميا، الأكثر شهرة بينهما هو "تطور عبادة الشمس فى مصر القديمة" الذى صدر فى القاهرة فى عام ١٩٣١. ولد "لوكيلانوف" فى عام ١٨٨٥، وأنهى دراسته فى معهد الآثار فى موسكو عام ١٩١٧. وفى حياته المبكرة تعلم اللغة المصرية القديمة على يد البروفيسور البارز "جولينيتشيف"، وفى الأعوام التالية أنهمك فى دراسة الآثار المصرية القديمة وإرسالها إلى المتاحف الأجنبية. وفى عام ١٩٤٤ تقدم إلى البعثة الدبلوماسية السوفيتية فى القاهرة باقتراح التنازل لها عن

تابوت الأمير حورس[٢]. لا توجد معلومات عن إتمام الصفقة، والأكثر احتمالاً أنها لم تحدث. لم تكن المؤسسات السوفيتية تثق فى المهاجرين الروس، زد على ذلك أن لوكيلانوف قد مات سريعًا. يستطيع المهتم الاطلاع على حياة ومصير ج.إ.لوكيلانوف وزوجته عالمة الآثار المصرية ى.س. لوكيلانوفا والتى عاشت مع زوجها على ضفاف النيل طوال سنوات الهجرة فى عشرينيات وثلاثينيات وأربعينيات القرن العشرين بالتفصيل[٣]. وكثير من وثائق الأرشيف الروسى الحكومى للأدب والفن تتبع المجموعة الوثائقية المتكاملة للجنة الخارجية لاتحاد كتاب الاتحاد السوفيتى (اللجنة الأجنبية لاتحاد الكتاب السوفييت). فى المجموعة الوثائقية ٦٣١ لهذه اللجنة وتحت عنوان "إيرينبورج" وفى المجموعة الفرعية ١٣ فى ملف ٢٢٥ نجد: "اكتشفت مكتبة "جين" ازدياد الطلب من المصريين على استيراد الكتب السوفيتية الأدبية باللغتين الإنجليزية والفرنسية (أنظر أوراق٢٣-٢٥). وبعد الانتصارات المدوية للجيش الأحمر على جبهات القتال فى الحرب العالمية الثانية، زاد الاهتمام بالأدب السوفيتى. وتكررت الطلبات على صفحات المراسلات الرسمية المصرية بإرسال الأعمال الروائية التى انتشرت عبر المطبوعات الغربية، والتى كتبها الكتاب السوفييت والمراسلون الحربيون. كثر الطلب على أعمال ف.بيلاييف، ل.خفات، ل.أوسبينسكى. لقد ألحت فى إرسالها دارا النشر "باريد" و"جين"، على أن تكون مطبوعة باللغات الروسية والإنجليزية والفرنسية[٤].

بدأت العلاقات المقطوعة، نتيجة لثورة أكتوبر والحرب العالمية الأولى، بالرجوع تدريجيًا إلى طبيعتها بعد إقامة العلاقات الدبلوماسية بين الاتحاد السوفيتى ومصر فى عام ١٩٤٣. كان القراء والعلماء السوفييت بحاجة إلى استعادة ذاكرة الماضى من جديد. يكتب الناقد الفنى ف.بافلوف مقالاً بعنوان "آثار الفن السوفيتى فى المتاحف السوفييتية" فى عام ١٩٥٦، ويمكن أن نجد ذلك المقال فى السلسلة الموسوعية "العلاقات الثقافية مع مصر"[٥].

ينشط اتحاد الكتاب ولجنته الخارجية، ويزداد أرشيفه عامًا بعد عام. ذلك الأرشيف أخذه فيما بعد الأرشيف الروسى الحكومى للأدب والفن. يظل عام ١٩٥٦ عامًا عظيمًا فى العلاقات السوفيتية- المصرية، بتاريخ ذلك العام نجد مجموعة قصاصات من الصحف المصرية باللغتين العربية والفرنسية بدءًا من ١٩٥٦/١/١ حتى ١٩٥٦/٤/١٦. أن أى تعداد للوثائق المعنونة فى ملف "فصول العلاقات الثقافية بين الاتحاد السوفيتى ومصر"، يشهد بالحشد الضخم للصلات الثقافية المتنوعة بين الاتحاد السوفيتى وجمهورية مصر العربية(*) (٦). نجد خطابًا من القاهرة بتاريخ ١٩٥٧/٥/٢٥: "خطاب من الشركة القومية للنشر فى القاهرة إلى هيئة تحرير صحيفة "الأدب الأجنبى" عن رغبتها فى طبع أعمال الكاتب عبد الرحمن الشرقاوى فى الاتحاد السوفيتى".

نجد أيضًا فى الأرشيف الشخصى للكاتب "سوروكوف" مجموعة صور فوتوغرافية لسكرتير اتحاد الكتاب "سوروكوف" ومن حوله أعضاء وفد الأدباء المصريين(٧).

وفى أرشيف "جراسيموف وماكاروف" نستطيع التعرف على مجموعة صور فوتوغرافية (٤٥ صورة) للمشاركين والضيوف فى مهرجان القاهرة للأفلام السوفيتية المنعقد فى ديسمبر عام ١٩٥٨(٨). فى المجموعة الوثائقية المتكاملة نفسها ولكن فى المجموعة الفرعية ٧٢٦؛ نجد ٣٩ مقالاً من الصحف والمجلات عن ذلك المهرجان السينمائى. قبل ذلك، فى فبراير ١٩٥٨ زار وفد سينمائى سوفيتى بلاد الأهرام للاشتراك فى مهرجان سينما الشباب(٩).

(*) بعد إلغاء الملكية فى مصر فى ١٨ يونيو ١٩٥٣ بإعلان الجمهورية أصبح اسم مصر "الجمهورية المصرية". وبعد الوحدة بين مصر وسوريا فى ٢٢ فبراير ١٩٥٨ أصبح الاسم "الجمهورية العربية المتحدة". ولما تولى أنور السادات الحكم فى أكتوبر ١٩٧٠ بعد وفاة جمال عبد الناصر قام بتغيير الاسم إلى "جمهورية مصر العربية". (المراجع)

بالنظر إلى المواد الوثائقية فى الأرشيف الروسى الحكومى للأدب والفن، نستطيع الحكم بأن عام ١٩٦٣ كان عام انتصار الموسيقى السوفيتية وبالأخص أعمال المؤلف الموسيقى "كارا- كارايف"[١٠]. القاهرة فى عام ١٩٦٣، يعرض فيها باليه "الجميلات السبع" للموسيقى "كارايف" على مسرح الأوبرا بالقاهرة. البرنامج مطبوع باللغتين الإنجليزية والعربية. فى الأرشيف أيضًا خطة زيارة "كارايف" وملاحظاته . أيضًا زيارة باليه ليننجراد فى القاهرة وبرنامج حفلاته. فى عام ١٩٦٣ أيضًا يزور وفد من الموسيقيين السوفييت مصر، ونجد صور "كارايف" مع مجموعات من أعضاء الوفد.

وطدت الزيارات المتبادلة للوفود العلاقات الثقافية السوفيتية- المصرية: "تقرير عن زيارة وفد الأدباء السوفييت إلى الجمهورية العربية المتحدة، ١٣-٢٦ أبريل ١٩٦٤"، وبالمقابل "تقرير مستشار اللجنة الخارجية لاتحاد الكتاب السوفييت عن زيارة وفد كتاب الجمهورية العربية المتحدة للاتحاد السوفييتى ٥-١٩٦٤/٦/٢٧".

من المفهوم أن المواد الوثائقية التابعة للجنة الخارجية لاتحاد كتاب الاتحاد السوفيتى التى قدمناها، ليست كاملة إلى حد بعيد. فى واقع الأمر هذا الأرشيف منبع لا ينضب لتاريخ العلاقات الثقافية بين الاتحاد السوفيتى ومصر، ولتاريخ إثراء الثقافة الوطنية المصرية وتطور أشكالها المعاصرة. يتذكر مؤلف هذا الكتاب، عندما كان طالبًا فى معهد اللغات الشرقية بجامعة موسكو، عمله كمترجم للغة العربية فى عام ١٩٦٨ فى طشقند، التى انعقد فيها واحد من المؤتمرات الدورية لكتاب بلدان آسيا وإفريقيا. أقامت هذا المؤتمر منظمة تضامن بلدان آسيا وإفريقيا بالتعاون مع اتحاد الكتاب السوفييت. أتذكر الوفود الكبيرة التى جاءت من المنطقة الآسيوية - الإفريقية، والتي كان بين صفوفها الشاعران الفلسطينيان محمود

درويش ومعين بسيسو والسوريان على الجندى وسعيد حورانية. ومثَّل مصر في هذا المؤتمر عبد الرحمن الشرقاوى وصلاح عبد الصبور، وكان هناك أيضًا ممثلون للسودان وليبيا. كانت تلك المؤتمرات الضخمة لكتاب بلدان آسيا وإفريقيا، تُعقد كل عامين أوثلاثة بمشاركة الأدباء والنقاد المرموقين من جمهوريات الاتحاد السوفيتى، وكانت تلعب دورًا محددًا في تطور ونمو الثقافات القومية.

ويبقى عام ١٩٦٤، عام تحويل مجرى النيل(*)، شاهدًا على زيارات عديدة للوفود الثقافية ومن بينها حفلات المسرح المصرى للعرائس في موسكو. سنجد كلمة س.ف. أوبرازتسوف(١١) التى أذيعت فى الإذاعة بمناسبة افتتاح تلك العروض(١٢).

وخلال أعوام الستينيات زار مصر العديد من الصحفيين والشخصيات الاجتماعية السوفيتية، وتركوا وراءهم كثيرًا من المواد الوثائقية، على سبيل المثال سنجد فى المجموعة الوثائقية المتكاملة ٢٨١٦ تحقيقًا صحفيًا للكاتبة ف.ك.كيتلينسكايا بعنوان "مصر، كما هى"، وسنجد قصاصات صحف أيضًا.

تميزت أواخر الستينيات ومطلع السبعينيات بتوجه ناصرى مصرى حديث، مرتبط بعملية التحول الثورى، حيث ازدهرت فنون المسرح الحديث والسينما والسيرك والباليه والأوبرا. يمكننا القول بلا مبالغة، بأن كثيرًا من أنواع الفنون الجديدة ارتبطت بالمساعدة المؤثرة للاتحاد السوفيتى، الذى أسهم فى إعداد الكوادر الوطنية المؤهلة. ونستطيع أن نجد تأكيدًا لذلك فى التحقيق الصحفى "العلاقات الثقافية مع مصر"(١٣). هذا الملف مؤرخ فى نوفمبر ١٩٧١ ومخصص لمجموعة مسرحية قاهرية "فرقة باليه القاهرة للشباب". ويضم الملف مقالات وقصاصات من

(*) يشير إلى مشروع السد العالى وتحويل مجرى نهر النيل فى ١٥ مايو ١٩٦٤ كمرحلة أولى فى بناء السد. (المراجع)

صحيفة "الثقافة السوفيتية" وغيرها من الصحف. تلك البطاقات الملصقة تتعدى ٥٣٠ بطاقة. وبعد عام تجرى فعاليات مهرجان "الثقافة المصرية ومصر" في الاتحاد السوفيتي. يتضمن المهرجان برنامجًا لعروض فرق المسرح والباليه والأوبرا ومعارض للفنانين التشكيليين وأساتذة الفنون التطبيقية[١٤].

وبعدها بعام، وتحت عنوان رئيسي "العلاقات الخارجية" وعنوان فرعى "العلاقات الثقافية مع مصر"، نجد المواد المتعلقة بمعرض الفنانين محمد عويس وجمال السجيني، عضوى أكاديمية الفنون في مصر. لقد قابل مؤلف هذا الكتاب أكثر من مرة الفنان السكندري الموهوب محمد عويس، الذى تبوأ منصب عميد كلية الفنون الجميلة بجامعة الإسكندرية سابقًا. ذلك الفنان الذى أقام عدة معارض للوحاته في المركز الروسي للعلوم والثقافة في الإسكندرية في الفترة ما بين عامى ٢٠٠٠ و٢٠٠٥، وقام بافتتاح العديد من المعارض التشكيلية في ذلك المركز، وساعد بالقول والعمل إدارة المركز في عملها وتحدث عن لقاءاته مع أساتذة الفنون الجميلة في الاتحاد السوفيتي.

سنجد في الأرشيف[١٥]، أيضًا المواد المختلفة وضمنها برنامج وتذكرة الدعوة الخاصتين بمتحف الفنون الجميلة الملقب بمتحف "بوشكين" لافتتاح معرض "كنوز توت عنخ آمون" في ١٩٧٣/١٢/٧.

نستطيع أن نجد الوثائق الخاصة بالفنون الموسيقية السوفيتية في المجموعات الوثائقية المتكاملة لاتحادى الموسيقيين للاتحاد السوفيتي وجمهورية روسيا الاتحادية ومعهد التربية الموسيقية الملقب بمعهد آل جنيسين ودار النشر الموسيقية الحكومية وهيئة تحرير مجلة "الموسيقى السوفيتية" والأرشيفات الخاصة بالمؤلفين الموسيقيين: ب.م.جليير، ب.ف.آسافييف، س.س.بركوفيف، ى.يو.دونايفسكى، د.ب.كاباليفسكى، د.د.دونايفسك، وغيرهم.

يستطيع القارئ التعرف بالتفصيل على محتويات الأرشيف الروسى الحكومى للأدب والفن بالاطلاع على الدليل الخاص[١٦]، ويوجد أيضًا دليل عن الوثائق التى تم ضمها للأرشيف بين عامى ١٩٦٢ و١٩٧٧. أما المعلومات عن الأعوام الماضية فمن الممكن العثور عليها فى كتابى دليل الأرشيف الروسى الحكومى للأدب والفن الصادرة من موسكو فى أعوام ١٩٥١ و١٩٦٠ و١٩٦٣[١٧].

الهوامش

(١) وثائق المجموعة الأرشيفية المتكاملة الحكومية للاتحاد السوفيتي في المتاحف والمكتبات وأرشيفات الفروع العلمية المختلفة. موسكو،١٩٩١، ص. ٣١-٤٠.

(٢) المجموعة الأرشيفية النتكاملة ٢٨٩٤، المجموعة الفرعية ١، ملف ٧٣١.

(٣) ف.ف. بيلياكوف.على ضفاف النيل المقدس... ص٢٢٠-٢٢٣.

(٤) المجموعة الوثائقية المتكاملة ٦٣١، المجموعة الفرعية ١٤، ملف ٣٤٨، أوراق ١-٤٦، يحتوى على ١٠٧ صورة فوتوغرافية.

(٥) المجموعة الوثائقية المتكاملة ٢٣٠٢، المجموعة الفرعية ١، ملف ١١٢.

(٦) المجموعة الوثائقية المتكاملة ١٥٧٣، المجموعة الفرعية ١، ملف ٧٦.

(٧) المجموعة الوثائقية المتكاملة ١٨٩٩، المجموعة الفرعية ١، ملف٨٣١.

(٨) المجموعة الوثائقية المتكاملة ٣٠٥٥، المجموعة الفرعية ١، ملفا٨٥١ و٨٥٢.

(٩) الأرشيف الخاص "ف.ب.بوسوف" المجموعة الوثائقية المتكاملة ٦٣١، المجموعة الفرعية ١، ملفات١٤١ - ١٤٥.

(١٠) الأرشيف الخاص "كاراييف" المجموعة الوثائقية المتكاملة ٢٩٩٢، المجموعة الفرعية ١، ملفات٥٣٢ و٥٥٥ و٥٥٨ - ١٤٥.

(١١) س.ف. أوبرازتسوف..مسرحي سوفيتي شهير، شغل منصب رئيس الاتحاد العالمى لمسارح العرائس- المترجم.

(١٢) الأرشيف الخاص "أوبرازتسوف" المجموعة الوثائقية المتكاملة ٢٧٣٢، المجموعة الفرعية ١، ملف١٥٥.

(١٣) الأرشيف الخاص "دينر" المجموعة الوثائقية المتكاملة ٢٣٣٧، المجموعة الفرعية ٢، ملف ١٩٧.

(١٤) المجموعة الوثائقية المتكاملة ٢٣٣٧، المجموعة الفرعية ٢، ملف ١٩٨ بتاريخ أكتوبر ١٩٧٢.

(١٥) الأرشيف الخاص "جاروف" المجموعة الوثائقية المتكاملة ٣٠٦١، المجموعة الفرعية ١، ملف٧٨٩.

(١٦) الأرشيف الحكومي المركزى للأدب والفن للاتحاد السوفيتى.

(١٧) أنظر بالتفصيل الأرشيفات الحكومية للاتحاد السوفيتى.. ص. ٤٥- ٤٩.

وصف مختصر لأرشيفات مدينة موسكو الأخرى

تم إنشاء الأرشيف المركزى للوثائق السينمائية والفوتوغرافية فى عام ١٩٦١. فى ذلك الأرشيف يتم حفظ الأفلام الوثائقية والصور الفوتوغرافية التى تعكس أحداث الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية فى روسيا منذ أواسط القرن التاسع عشر وحتى الوقت الحاضر. يضم ذلك الأرشيف أكثر من ٦٠٠ ألف وثيقة.

من ضمن الوثائق الفوتوغرافية لفترة ما قبل المرحلة السوفيتية، سنجد ألبومات صور "١٨٥٥- ١٨٥٦"، ومناظر موسكو (١٨٧٦)، وصورًا متفرقة عن الحرب الروسية- التركية ١٨٧٧- ١٨٧٨، وصور الحرب الروسية اليابانية ١٩٠٤-١٩٠٥، والثورة الروسية الأولى ١٩٠٥- ١٩٠٧. وتلقى السينما التسجيلية والصور الفوتوغرافية الضوء على الجوانب المتعددة والمختلفة للحياة فى روسيا، وعلى الأحداث المهمة فى حياة البلدان الأجنبية المرتبطة بالمساعدة الأممية المقدمة من الاتحاد السوفيتى، ومن بينها بناء السد العالى فى أسوان.

فى عام ١٩٣٢ نشأ الأرشيف الحكومى المركزى للتسجيلات الصوتية بالاتحاد السوفيتى. يضم ذلك الأرشيف مجموعات أرشيفية متكاملة عن حقب زمنية مختلفة: الفترة ما قبل السوفيتية، والفترة السوفيتية، والفترة ما بعد السوفيتية (نحو ١٥٠ ألف وثيقة). والوثائق الصوتية، لما قبل الحقبة السوفيتية، عبارة عن أسطوانات جرامافون فى الغالب مسجلة لإبداعات الفنانين المبدعين الروس والأجانب مثل أعمال س.ف.رحمانينوف، ف.ي. شاليابين، وكثيرين غيرهما.

وقسم المخطوطات بالمكتبة الروسية الحكومية ذات التاريخ العريق (مكتبة لينين سابقًا) يعد أحد أهم دور حفظ الوثائق بالعاصمة الروسية. ويضم نحو نصف مليون وحدة حفظ تغطى الفترة ما بين القرن السادس والقرن العشرين الميلاديين. ولقد تم تأسيس هذا القسم فى عام ١٨٦٢، ويحتوى على وثائق تخص التاريخ والثقافة الروسية الوطنية، وأيضًا تاريخ عدة دول أجنبية.

وفى هذا القسم نجد وثائق خاصة بالتاريخ الاقتصادى- الاجتماعى لروسيا فى القرون ١٥-١٨. كما يحتفظ القسم بالمجموعات الوثائقية المتكاملة للعديد من الجمعيات العلمية فى روسيا (جمعية التاريخ والآثار القديمة للشعوب الروسية، جمعية التنوير الدينى، جمعية محبى البلاغة الروسية، جمعية الأطباء الروس، جمعية الفنون الروسية القديمة)، التى تعد بحق مصادر لا غنى عنها فى كتابة تاريخ العلوم فى روسيا. ويضم القسم أيضًا مخطوطات المجموعات الوثائقية المتكاملة للشخصيات الحكومية والعسكرية والاجتماعية فى روسيا قبل الثورة، على سبيل المثال: بطرس الأول، م.إ. كوتوزوف، أ.أ.أراكتشيف، د.أ.ميليوتين، ودبلوماسى عصر كاترين الثانية ى. إ. بولجاكوف- الذى كان بالمناسبة يعمل سفيرًا لدى الإمبراطورية العثمانية، وغيرهم. تلك المخطوطات تغطى حقبةً تاريخيةً كبيرة، وتمس جوانب عديدة فى تاريخ روسيا الاقتصادى والاجتماعى والسياسى فيما بين القرن الثامن عشر والقرن العشرين، وأيضًا الأحوال العامة لكثير من بلدان أوروبا الغربية والشرق الأوسط.

يتكون الجزء الأعظم من قسم الكتب المخطوطة من الكتب المكتوبة باللغتين السلافية والروسية فيما بين القرن التاسع والقرن العشرين. فى منتخبات الكتب المخطوطة، سنجد تقريبًا كل الكتب الأدبية الخاصة بروسيا القديمة، والحوليات واليوميات والمذكرات، والروايات والقصص عن الشخصيات والأحداث التاريخية

التاريخية، و"مسيرة" الأشخاص الروس فى الأراضى الغربية بما فيها الشرق الأدنى ومصر. ويعد بعض تلك المخطوطات النسخ الوحيدة الباقية لنصوص مشهورة. ويرجع الفضل فى جمع أغلب تلك المجموعات والمنتخبات إلى هواة جمع الكتب والمخطوطات من أمثال أ.س. نوروف الذى اشتهر بزيارته إلى مصر ومقابلته محمد على.

فى القسم نفسه، نجد بضع مخطوطات باللغات الشرقية: العربية، التركية، الفارسية، الصينية، العبرية القديمة وغيرها. وتحتوى تلك المخطوطات المؤرخة فى الفترة ما بين القرنين الثامن عشر والتاسع عشر على مؤلفات فلسفية وتاريخية، وآثار من الأدب الروائى، ومخطوطات دينية، ومؤلفات فى العلوم الطبيعية وغيرها[١]. ويستطيع الباحثون أن يجدوا المعلومات التفصيلية عن الوثائق الموجودة فى قسم المخطوطات التابع للمكتبة الروسية الحكومية فى الدليل الخاص بذلك[٢]، عدا ذلك قد يكون من المفيد معرفة أن قسم المخطوطات بالمكتبة الروسية الحكومية يصدر، منذ عام ١٩٣٨، أعماله الخاصة تحت عنوان "مذكرات قسم المخطوطات".

تثير اهتمام الباحثين الموسيقيين للغاية، المجموعات الوثائقية لقسم المواد المخطوطة الوثائقية لدى المتحف المركزى الحكومى للثقافة الموسيقية، والملقب باسم متحف م.ي. جلينكا الذى تم تأسيسه بشكله الراهن فى عام ١٩٤٣، على قاعدة المتحف التذكارى لكونسرفاتوار موسكو الذى أنشئ فى عام ١٩١٢ الملقب بمتحف ن.ج. روبنشتين. ويضم ذلك القسم ٤٥٠ مجموعة توثيقية متكاملة، تجمع أكثر من ٣٥٠ ألف وحدة حفظ بداية من القرن الرابع عشر. ناهيك عن أن المتحف يحفظ نحو ١٠٠ ألف وحدة حفظ لوثائق فوتوغرافية، تم تصويرها منذ عام ١٨٧٠،

ونحو ٢٠ ألف وحدة حفظ وثائق صوتية، تم تسجيلها منذ عام ١٨٩٨ وحتى وقتنا الحاضر.

كما يضم ذلك القسم وثائق خاصة بتاريخ الثقافة الموسيقية فى بلدنا والبلدان الأجنبية. وفيه تُحفظ وثائق المجموعة الوثائقية المتكاملة الخاصة بالجمعية الموسيقية، وفرعها فى موسكو بالإضافة لفروعها الأخرى، ونصوص المسرحيات المعدة فى فترة الدراسة فى كونسرفتوار موسكو، وخطابات المؤلفين الموسيقيين وعازفى البيانو والمخرجين مثل: ك.ك.ألبريخت، م.م.إيبولوتيف- إيفانوف، ن.ج. روبنشتين وغيرهم فى الفترة ما بين ١٨٦٤ و ١٩٢٢.

وبين وثائق المجموعة الوثائقية المتكاملة للجنة الموسيقى الإثنية، سنجد التسجيلات والمعالجات المتطورة لأغانى شعوب الاتحاد السوفيتى والبلدان الأخرى، وأيضًا مواد الاجتماعات العلمية والأفيشات والملصقات وبرامج الحفلات والصور.

ويحتفظ القسم بالأرشيفات الخاصة للملحنين والمغنين وأساتذة الموسيقى والنقاد الموسيقيين فى فترة ما قبل الحقبة السوفيتية، حيث نجد مخطوطات موسيقية ومراسلات ومذكرات وملصقات وبرامج حفلات وصورًا فوتوغرافية ضمن المجموعات الوثائقية الشخصية المتكاملة لكل من: أ.أ.أليابييف، أ.س.أريتسكى، م.أ. بالاكيروف، أ.ب.بارودين، أ.ك.جلازونوف، م.ي.جلينكا، أ.ت.جريتشانينوف، أ.س.دارجوميجسكى، أ.ك.ديدوف، أ.ج.روبنشتين، ى.أ.ساتس، أ.ن.سكرابين، س،إ.تانييف.

وفى الفترة السوفيتية سنجد الأرشيفات الخاصة للمؤلفين الموسيقيين والمغنين وقائدى الأوركسترا والفنانين والشخصيات الموسيقية من أمثال: ب.ف. أسافييف، أ.أ. باباجأنيأن، م.إ.بالنتر، ن.ف.بوجوسلوفسكى، ر.م. جليير، أ.ب.دولوخانيان،

ى.أو. دونايفسكى، د.ب. كاباليفسكى، س.أ.كاتس، ف.إ.موراديلى، ج.ف.سفيريدوف، أ.ى. خاتشاتوريان، ر.ك. شيدرين. تلك الأرشيفات الخاصة تضم مخطوطات موسيقية ومراسلات ومذكرات وملصقات وبرامج حفلات ومقالات نقدية وصورًا فوتوغرافية وغيرها من الوثائق.

وتحتفظ مجموعة "الخطابات" بالمراسلات الخاصة بالملحنين وقائدى الأوركسترا والمغنيين ونقاد الموسيقى بدءًا من عام ١٧٣٩. أما مجموعة "المخطوطات الأدبية والمذكرات"، فتضم المذكرات والمحاضرات والمفكرات الشخصية للمؤلفين الموسيقيين وعازفى البيانو وقائدى الفرق الموسيقية والشخصيات الموسيقية بدءًا من عام ١٧٧٥.

تعكس الوثائق الفوتوغرافية الموجودة بالمتحف سيرة الحياة والنشاط الإبداعى للمؤلفين الموسيقيين الروس والسوفييت، وأيضًا عازفى البيانو وقائدى الأوركسترا، ونقاد ومعلمى الموسيقى، كما تعرض أيضًا لتطور فنون الموسيقى فى الفترة ما بين نهاية القرن التاسع عشر والقرن العشرين. سوف نجد صور البورتريه الخاصة بالمؤلفين رحمانينوف وشوستاكوفيتش وتانييف وغيرهم، ومعها أيضًا صور المشاهد والمسرحيات التى شارك فيها: ل.ف.سوبينوف، ف.إ.شالابين، وأيضًا صور الطلاب والمعلمين فى كونسرفتوار موسكو.

تضم المكتبة الموسيقية فى المتحف تسجيلات المؤلفات الموسيقية القديمة والمعاصرة لكثير من دول العالم، من ذلك تسجيلات نادرة تخص ف.إ.شالابين، تم تسجيلها فى عام ١٨٩٨. تتمثل الثقافة الموسيقية الروسية فى المكتبة الموسيقية عبر تسجيلات: م.إ.جلينكا، أ.س.داجوميجسكى، م.ب.موسورجسكى، أ.ب.بارودين، م.أ.بالاكيروف، أ.ك. جلازونوف. كما تحتفظ المكتبة بتسجيلات عزف مؤلفى الأعمال المخصصة للبيانو مثل: إ.جريج، ك.ديبوسى، ك.سين سانس، أ.ن.سكرابين، م. رافيل(٣).

ولمزيد من الاطلاع على معلومات أكثر تفصيلاً عن المجموعات الوثائقية المتكاملة التابعة لمتحف جلينكا يمكن الرجوع إلى الدليل(٤).

فى موسكو نجد أيضًا فرعين للمتحف المركزى الحكومى للثقافة الموسيقية، أولهما متحف مقام فى الشقة السكنية التى عاش فيها ن.س.جولوفانوف، وتأسس فى عام ١٩٦٩، ويضم ٦٥٠٠ وحدة حفظ بدءًا من عام ١٨١١، وألف وثيقة فوتوغرافية بدءًا من عام ١٩٠٠. يحتفظ هذا المتحف بالوثائق الخاصة بحياة وإبداع المؤلف الموسيقى وقائد الأوركسترا وعازف البيانو ومعلم الموسيقى ن.س.جولوفانوف (١٨٩١- ١٩٥٣)، الحائز على لقب فنان الشعب للاتحاد السوفيتى. ويحتفظ هذا المتحف بمخطوطات المؤلفات الموسيقية للمؤلف جولوفانوف، وبأعماله الخاصة بتحرير ومعالجة والتوزيع الموسيقى لمصنفات أ.ك. جلازونوف، م.ب. موسورجسكى، ب.إ. تشايكوفسكى وغيرهم، كما يُعرض أيضًا مراسلات جولوفانوف مع الموسيقيين الروس والسوفييت البارزين.

الفرع الثانى للمتحف المركزى الحكومى للثقافة الموسيقية، هو المتحف المقام فى الشقة السكنية التى عاش فيها أ.ب.جولدنفايزر، وتم تأسيسه فى عام ١٩٥٥، ويضم ١٥٥٠٠ وثيقة ونحو ٢٣٠٠ وثيقة فوتوغرافية، وتختص بحياة وإبداع عازف البيانو والمؤلف الموسيقى والمعلم والحائز على الدكتوراه فى النقد الفنى والبروفيسور أ.ب.جولدنفايزر (١٨٧٥- ١٩٦١)، الذى حاز على لقب فنان الشعب للاتحاد السوفيتى. يحتفظ ذلك المتحف بمخطوطات المؤلفات الموسيقية لذلك الفنان: مجموعة النوت الموسيقية لأوبرات "وليمة فى زمن الطاعون"، و"مياه الربيع"، و"المغنون"، وأغان ومعزوفات للبيانو ومعزوفات لثلاث آلات موسيقية بمصاحبة البيانو. تحتوى الوثائق أيضًا على مخطوطات كتب ومقالات ومُداخلات، ومذكرات تلاميذ وأصدقاء جولدنفايزر عنه. فى المتحف يُعرض بشكل واسع

مراسلاته مع الملحنين الروس والسوفييت والشخصيات الموسيقية: ب.ف.أسافييف، أ.ف. جيديك، أ.ك. جلازونوف، ر.م.جليير، ن.م.ميتنير، أ.ن.سكرابين، س.إ.تانييف وغيرهم فى الفترة ما بين عامى ١٨٩٩- ١٩٥٠[٥].

أما المتحف التاريخى الواقع فى الميدان الأحمر فقد تأسس فى عام ١٨٧٢، وفيه قسم للمخطوطات والكتب المطبوعة القديمة، الذى تم إنشاؤه فى عام ١٩١٢. ويضم هذا القسم ٣١ مجموعة، تتكون من أكثر من ٢١ ألف ملف يتراوح تاريخها من القرن التاسع حتى القرن التاسع عشر. وتعكس المخطوطات تاريخ روسيا القديمة وتطور ثقافتها الروحية وآدابها وعلاقاتها السياسية الخارجية وأوضاع البلاد السياسية والاقتصادية. تشغل المجموعة الكنسية "البطريركية" للمخطوطات السلافية مكانا مهمًا فى منظومة مجموعات المخطوطات فى ذلك القسم. وتعتمد تلك المجموعة فى الأساس على مكتبات البطاركة والمطارنة لعموم روسيا، وعلى جزء من مخطوطات روسيا القيصرية (من القرن السابع عشر)، وأيضًا مكتبات كاتدرائيات الكريملين فى موسكو والأديرة الروسية الكبرى، التى انضمت مجموعاتها إلى المجموعة البطريركية فى القرن التاسع عشر. تضم المجموعة البطريركية آثار مخطوطة ذات أهمية عالمية، منها: منتخب سفاتوسلاف عام ١٠٧٣، وأنجيل ميستسلاف فى القرن الثانى عشر الميلادى وغيرهما. وضمن المجموعة البطريركية نجد أيضًا مخطوطات روسية قديمة مهمة للغاية، فيها إبداعات علماء وأدباء القرن السابع عشر، ومنها مخطوطات قيمة للغاية لفهم العلاقات الثقافية العربية الروسية المبكرة[٦]. يجذب اهتمامنا قبل كل شيء مؤلف عن رحلة أرسين سوخانوف إلى الشرق فى عامى ١٦٥١ و١٦٥٢. تكاد هذه المخطوطة تنقل إلينا أول معلومات تصلنا عن مصر والقاهرة والإسكندرية وعن أماكن اخرى فى وادى النيل. إذا كان الرحالة الروس السابقون تركوا وراءهم

"مسيراتهم" فى شكل تحريرى، فإنهم اهتموا أكثر بالقاهرة، بينما خصص أرسينى سوخانوف اهتمامًا كبيرًا بالإسكندرية(٧).

يقع متحف الفنون الجميلة الملقب باسم متحف أ.س. بوشكين فى وسط العاصمة الروسية. وقد بدأ تكوينه فى أواسط القرن التاسع عشر على قاعدة مكتب ميونس بجامعة موسكو؛ حيث قام البروفيسور إ.ف.تسفيتايف الأستاذ بجامعة موسكو بتنظيم متحف الفنون الرفيعة وجمع المال من أجل إنشائه فى السنوات الأولى من تسعينيات القن التاسع عشر، ثم تسلمت منه العمل اللجنة الخاصة بإقامة متحف الفنون الرفيعة (١٨٩٨- ١٩١٢) الذى تم افتتاحه فى ١٩١٢ وأطلق عليه متحف الإمبراطور ألكسندر الثالث التابع لجامعة موسكو فى عام ١٩١٢، ثم صار اسمه متحف الفنون الرفيعة بجامعة موسكو فى عام ١٩١٧. وتغير اسمه إلى المتحف الحكومى للفنون الرفيعة فى عام ١٩٢٣، ثم مرة أخرى اصبح اسمه المتحف الحكومى للفنون الجميلة فى عام ١٩٣٢، وأخيرًا أصبح اسمه المتحف الحكومى للفنون الجميلة الملقب بمتحف بوشكين ١٩٣٧.

تم إنشاء أرشيف المتحف فى ١٩٤٥، ويحتوى فى الوقت الحالى على ٥٠ ألف وثيقة مؤرخة منذ عام ١٨١٦ وحتى اليوم، وأكثر من ستة آلاف وثيقة فوتوغرافية بدءًا من عام ١٨٩٤.

تعكس وثائق ذلك الأرشيف تاريخ الفنون التشكيلية وجمع اللوحات الفنية فى روسيا، وأيضًا تاريخ إنشاء المتحف وتطوره ونشاطه ونشاطات النقاد الفنيين الروس والسوفييت والعاملين بإدارة المتحف، ناهيك عن تاريخ الثقافة والفن فى البلدان الأجنبية.

وهكذا قدمنا بالكلمات لكم قائمة بأكثر المؤسسات الأرشيفية لمدينة موسكو. ومن المفهوم للقارئ أننا لم نستطع حصر كل أرشيفات مدينة موسكو، لكننا نأمل فى أن نكون قد ساعدنا قارئنا فى الإلمام بها لدرجة كبيرة.

والآن سننتقل إلى وصف وشرح أرشيفات مدينة سان بطرسبرج التى بها مجمـــوعات وثائقيـــة متكاملـــة مليئة بالمعلومات عـــن مصر، ولعل أولها فى هذا المضمار الأرشيف التاريخى المركزى الحكومى. هذا الأرشيف الذى لا يماثله أى أرشيف فى سان بطرسبرج، بل وفى موسكو فى تمثله الكامل للتاريخ الروسى وفى تنوعه الغنى بالكم والكيف فى مجال المواد التاريخية. يضم ذلك الأرشيف الكتلة الأساسية من الوثائق التاريخية التى يبلغ عددها أكثر من ستة ملايين ونصف مليون وثيقة، وتغطى الفترة فيما بين الربع الأول من القرن الثامن عشر حتى عام ١٩١٨. وسنجد فى المجموعات الأرشيفية وفى المجموعات الوثائقية المتكاملة القليل من الوثائق المتعلقة بفترات مبكرة (من القرن ١٣ وحتى القرن١٧).

الهوامش

(١) وثائق صندوق الأرشيف الحكومى للاتحاد السوفيتى، ص٨-١٣.

(٢) مجموعات المخطوطات فى المكتبة الحكومية للاتحاد السوفيتى (مكتبة لينين): دليل. الجزء الأول (١٨٦٢- ١٩١٧). موسكو. ١٩٨٣، الطبعة الثانية موسكو.١٩٨٧.

(٣) وثائق صندوق الأرشيف الحكومى للاتحاد السوفيتى، ص٦١- ٦٦.

(٤) الدليل الموجز للمجموعات الوثائقية المتكاملة لقسم المخطوطات الأرشيفية التابع للمتحف المركزى الحكومى للثقافة الموسيقية، والملقب باسم متحف م.ى. جلينكا. موسكو.١٩٧٤.

(٥) وثائق صندوق الأرشيف الحكومى للاتحاد السوفيتى، ص٦٦- ٦٨.

(٦) وثائق صندوق الأرشيف الحكومى للاتحاد السوفيتى، ص٨١- ٨٥.

(٧) عن مخطوطات المتحف التاريخى انظر: شيبكينا م.ف.، بوتراسييفا ت.ن. كنز الكتابة القديمة والمطبوعات القديمة. موسكو. ١٩٥٨.

أرشيفات مدينة سان بطرسبرج

الأرشيف التاريخى الحكومى المركزى

إذا كان قد تم نقل أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية إلى موسكو التى أصبحت عاصمة روسيا السوفيتية ثم عاصمة الاتحاد السوفيتى؛ فإن الأرشيف التاريخى الروسى الرئيسى ظل فى مدينة لينتجراد. تلك المدينة التى تغير اسمها فى بداية التسعينيات إلى سان بطرسبرج. الأكثر من ذلك، أننى عندما كنت فى أوديسا (هى الآن فى أوكرانيا) فى مهمة علمية عام ١٩٨٠، وبالأخص فى الأرشيف الحكومى لمقاطعة أوديسا، علمت من العاملين فيه عندما سألت عن بعض وحدات الحفظ غير الموجودة فيه، أن الكثير من وثائق الارشيف تم نقلها إلى الأرشيف التاريخى المركزى الحكومى بمدينة لينتجراد. وهكذا فهمت أن كثيرًا من وثائق أرشيفات المقاطعات الأخرى تم نقلها إلى لينتجراد.

يحفظ ذلك الأرشيف الوثائق الخاصة بالتاريخ السياسى والاقتصادى والثقافى لروسيا فى فترة الرأسمالية، وتتعلق بنشاط المؤسسات العليا والمركزية للإمبراطورية الروسية: مجلس الدولة، مجلس الوزراء، مجلس الشيوخ، المجمع الكنسى، مختلف اللجان، البنوك الحكومية والخاصة، الشركات التجارية- الصناعية والزراعية، الشركات المساهمة وشركات التأمين، إدارات السكك الحديد. يضم الأرشيف أيضًا المواد المتعلقة بالمنظمات ذات النشاط التنويرى العلمى والثقافى، وهيئات تحرير مجلات التى تصدرها مختلف المصالح، والأرشيفات الخاصة والعائلية للشخصيات الحكومية والاجتماعية. سنجد فى وثائق المؤسسات الحكومية انعكاسًا للسياسة الداخلية والخارجية للدوائر الحاكمة حيث يمكن العثور على

معلومات عن تنظيم المعارض الصناعية لعموم روسيا واشتراك روسيا فى المعارض العالمية، ومن بينها معارض فى مصر (المجموعات الوثائقية المتكاملة لقسم التجارة والمنسوجات، ووزارة التجارة والصناعة).

تضم المجموعات الوثائقية الخاصة بالمجمع الكنسى ومكتب النائب العام وثائق خاصة بتاريخ الدين والكنيسة، ومجموعات لمخطوطات وكتب مطبوعة قديمًا، ومخطوطات تغطى الفترة ما بين القرن الرابع عشر والقرن العشرين.

ويعد هذا الأرشيف الوحيد من نوعه الذى يجمع بين مواد وثائقية تخص كل فروع المعرفة بكل ما تعنيه تلك الكلمات، وفى كل من هذه الفروع نجد معلومات عن مصر. هذا الأرشيف بأعداد مواده المختلفة والمتعددة يعد أرشيفًا فريدًا بين الأرشيفات الروسية. إننا نجد فيه حتى رسائل وتقارير من القناصل الروس فى الشرق العربى، ومن بينها تقارير من مصر. ولعل أكثر المجموعات الوثائقية المتكاملة عن وادى النيل (وليس فقط عنه)، هى المجموعة الوثائقية المتكاملة الخاصة بالشركة الروسية لملاحة البواخر والتجارة ورقمها ١٠٨. يقع الجزء الأساسى للوثائق فى تلك المجموعة فى المجموعة الفرعية رقم ١ (هناك فقط مجموعتان فرعيتان لتلك المجموعة المتكاملة)، التى تحتوى على أكثر من ثلاثة آلاف وحدة حفظ. ولا يعنى هذا أن كل تلك الملفات تتحدث بشكل كامل أو جزئى عن مصر، لكن كم الملفات التى تحتوى على معلومات عن مصر، يفوق الاستيعاب. ويكفى القول إن جزءًا كبيرًا من تلك الوثائق حتى الآن لم يقع بين أيدى الباحثين. على كل حال، فإن كثيرًا من تلك الملفات تمت دراستها بواسطتى فى ثمانينيات القرن العشرين، وحملت توقيعى للمرة الأولى.

لقد تكونت تلك الشركة فورًا بعد انتهاء حرب القرم التى تلقت فيها روسيا هزيمة قاسية من إنجلترا وفرنسا وتركيا. كان إنشاؤها قد نضج منذ وقت بعيد،

وكانت إقامة العلاقات بالشرق عن طريقها ضرورية. وكما أشرنا من قبل، لقد كتب إيجور بتروفيتش كوفاليفسكى بإصرار منذ أربعينيات القرن التاسع عشر عن العلاقات التجارية- الاقتصادية المنتظمة مع بلدان الشمال الشرقى لإفريقيا (مصر والسودان وإثيوبيا). أدى إنشاء الشركة الروسية للملاحة البخارية والتجارة فى عام ١٨٥٦، وفتح قناة السويس، وبدء استغلال خطى الملاحة الى الإسكندرية، المباشر والدائرى وغيرهما من المسارات الملاحية مثل خط أوديسا- البصرة.. كل ذلك أدى إلى قفزة، ليس فقط فى العلاقات التجارية -الاقتصادية مع الشرق العربى، بل وأيضا إلى اكتشاف وتوسيع وتعميق مجالات أخرى للتعاون العربى- الروسى والمصرى- الروسى. وبالمناسبة نستطيع الحكم على حيوية وأهمية موضوع الإسراع بتحقيق تلك الفكرة، إذا عرفنا أنه فى عام ١٨٥٨ بدأ عمل الخط الإسكندرية الملاحى الدائرى الذى يربط أوديسا والقسطنطينية وبيريه وأزمير ورودوس والإسكندرونة وبيروت ويافا والإسكندرية. وهناك كثير من المعلومات فى تلك المجموعة الوثائقية المتكاملة عن حركة بواخر تلك الشركة فى تلك المسارات[1]. وعلى الرغم من أن موضوع المجموعة الوثائقية الخاصة بالشركة الروسية لملاحة البواخر والتجارة مرتبط برحلات السفن والتجارة، وبالفعل يتم تناول هذا الموضوع فيها بشكل واسع للغاية، فإننا نقابل فى المجموعة الوثائقية المتكاملة ١٠٧ معلومات عن الأحداث السياسية والثقافية والاجتماعية والفكرية وغيرها الجارية فى مصر أثناء القرنين التاسع عشر والعشرين. بهذا الصدد، نرى من المفيد للغاية الاطلاع على التقارير والكشوف وغيرها من الوثائق التى كتبها وكلاء تلك الشركة فى الإسكندرية وبورسعيد والقاهرة والإسماعيلية ومراسلاتهم مع الإدارة الرئيسية فى أوديسا وسان بطرسبرج، وأيضا وثائق التفتيش ومراجعة وكلاء الشركة المؤرخة فى أعوام ١٨٩٣،١٨٧٣،١٨٦٣ بواسطة موظفيها

ومراجعيها ومفتشيها ذوى الكفاءة العالية والمثابرة. تقدم تقارير وكشوف هؤلاء المراجعين للباحثين مواد مثيرة للغاية عن الوضع الاقتصادى- الاجتماعى فى مصر.

لقد بدأت تقارير وكشوف وكلاء الشركة فى الظهور منذ بداية القرن العشرين بشكل منتظم. على سبيل المثال ملف ٣١٦١ المعنون "تقرير نشاط وكالة شركة الملاحة البخارية والتجارة الروسية فى بورسعيد لعام ١٩٠٣ " يقدم إحصاءً غير مسبوق فى ٣٥ صفحة. نجد معلومات مشابهة عن وكالة الشركة فى بورسعيد لأعوام ١٩٠٣، ١٩٠٥، ١٩١٢، ١٩١٣ محفوظة فى ملفات بأرقام ٣٢٢٣ و٣٢٩٢، و٣٤٤٨، و٣٥٠٢. وهكذا ما بين عامى ١٩٠١ و١٩١٣ (السنة السابقة للحرب العالمية الأولى)، سنجد معلومات أيضًا عن تلك الوكالة والاستيراد والتصدير على متن بواخر الشركة الروسية للملاحة البخارية والتجارة وعن عدد المسافرين وكميات البضائع وقيمة النولون الخاص بها وغيرها من المعلومات.

وهناك عن وكالة الشركة فى الإسكندرية بالمعايير والأحجام نفسها فى الملفات ٣٢٢٢ (لعام ١٩٠٣)، ٣٢٢٤ (لعام ١٩٠٥)، ٣٣٠٥ (لعام١٩٠٦)، ٣٣٣٣ (لعام ١٩٠٩)، ٣٣٤١ (لعام ١٩١٠)، ٣٤٥٠ (لعام ١٩١٣). كان الجزء الأساسى من المسافرين والبضائع للشركة يمر عبر ميناء الإسكندرية الذى من خلاله يمر ٩٠% من التجارة الخارجية لمصر. لذا نجد أن إحصاءات تلك المجموعة الوثائقية المتكاملة ١٠٧ للأرشيف التاريخى المركزى الحكومى غنية للغاية بالمعلومات عن الإسكندرية. وعدا وثائق شركة الملاحة البخارية، سيجد القــارئ معلــومات إضافيــة عــن شركات التجارة والملاحة والتأمين من كل أنحاء الدنيا.

بجانب تلك المجموعة الوثائقية ١٠٧ المعنية بنشاط الشركة الروسية للملاحة البخارية والتجارة، سنجد المجموعتين الوثائقيتين المتكاملتين ٨٦٨ و٦٧٨، اللتين

تعطيان تصورا جيدا عن العلاقات التجارية- الاقتصادية بين روسيا ومصر. عنوان المجموعة الأولى "أناتولى ايفجرافوفيتش مولتشانوف/١٨٥٦- ١٩٢١/ - رئيس إدارة الشركة الروسية للملاحة البخارية والتجارة" الذى ترأس السيد مولتشانوف الإدارة الرئيسية للشركة فى سان بطرسبرج، وكان فى الوقت نفسه رئيسا لجمعية المسرح الروسية. وفى تلك المجموعة الوثائقية، بطبيعة الحال، هناك كثير من المعلومات عن الإحصاءات التجارية والبحرية وغيرها. وستجذب اهتمام القارئ للوهلة الأولى ملفات ١٢٤٩ (لعام ١٩١٤)، و١٣٤٥ (لاعوام ١٩١٠- ١٩١٥)، و١٣٨٦ (لأعوام ١٩٠٧- ١٩١١)، و١٣٩١ (لعام ١٩٠٥)، و١٤١٢ (لعام ١٩١٣)، و١٤٢٤ (لأعوام ١٩٠٨- ١٩١٠).

تختص المجموعة الوثائقية المتكاملة رقم ٦٧٨ بوزارة التجارة وصناعة المنسوجات، وتكمل، بشكل ملموس، المعلومات التجارية- الاقتصادية الموجودة ضمن المجموعات الوثائقية للأرشيف التاريخى المركزى الحكومى. ولبيان أهمية تلك الوثائق سنذكر عناوين الملفات المحفوظة بها: ملف ١٤٣٧- "مذكرة بشان وضع العمل فى وكالة القاهرة للشركة الروسية للملاحة البحرية والتجارة والمتطلبات الضرورية لتوسيع التجارة. فبراير ١٩٠٩، ملف ١٣٩٣ - "تقارير واقتباسات من كشوف وتقارير عضو إدارة الشركة الروسية للملاحة البخارية عن الإجراءات الكفيلة بزيادة دخلها وتغطية الخسائر التى سببتها الإصلاحات وعن تأسيس البنك الروسى فى القسطنطينية. ١٩٠٧ - ١٩٠٨." (مع ملاحظة: "شركة الملاحة البخارية على وشك الإغلاق"). ملف ١٤١٢ المؤرخ فى ١٨ مارس ١٩١٣- "مذكرة وكيل شركة الملاحة البخارية فى الإسكندرية عن موضوع مشروع إقامة مبردات على البواخر المبنية حديثًا لخط الإسكندرية المباشر"، ملف ١٤٢٣- "استعلام عن رحلات السفن العاجلة فى البحرين المتوسط والأسود. عام ١٩٠٨".

يثير الملف ١٤٤١ الموجود فى تلك المجموعة الوثائقية اهتمامًا كبيرًا؛ ففيه كتالوج لعينات من السلع المطلوبة بشكل كبير فى مصر وبلدان الشرق الأدنى، جهزته وجمعت عيناته بعثة استكشاف ممولة من شركة الملاحة البخارية فى مارس ١٩١٥. وعلى الرغم من الحرب العالمية الأولى والعمليات الحربية الدائرة فى تلك الفترة؛ فلم تتوقف العلاقات التجارية- الاقتصادية مع مصر والتوسع فيها ، وذلك يعنى أن الرغبة كانت عظيمة فى تنمية التجارة مع مصر وغيرها من بلدان الشرق الأدنى. لقد قضيت بعثة الاستكشاف تلك فى مصر أربعة أشهر وزارت الإسكندرية والقاهرة ودمنهور وكفر الزيات وطنطا والزقازيق والمنصورة وبورسعيد والمنيا وأسيوط وغيرها من المدن المصرية. وقد جمع أعضاء هذا الوفد التجارى كل ما يمكن جمعه من عينات السلع التى صدرتها ألمانيا والنمسا وغيرهما من البلدان إلى مصر من قبل بكميات كبيرة. كما درس الوفد كيفية وصول هذه السلع وطرق تسويقها وكيف يمكن الإمداد بها فى حالة نضوبها وانعدامها فى السوق المصرية بواسطة الروس، ولكن للأسف عاقت الحرب العالمية الأولى وثورة أكتوبر تحقيق مشروع تلك الشركة بشكل كبير.

قبل الحرب كانوا فى سان بطرسبرج يولون اهتمامًا كبيرًا لإقامة صلات تجارية اقتصادية مع بلدان الشرق الأدنى خاصةً مصر. فى عام ١٩١٢ أرسلت وزارة التجارة والصناعة مجموعة من المختصين لبحث ودراسة الأسواق المحلية. ظهر على أثرها كتاب ف.ك.ليسينكو "الشرق الأدنى، سوق لتصريف البضائع الروسية- تقرير عن نشاط بعثة الاستكشاف التابعة لوزارة التجارة والصناعة لدراسة أسواق الشرق الأدنى فى عام ١٩١٢. سان بطرسبرج. ١٩١٣". كما نرى كان الاهتمام هائلاً، فتحولت التقارير إلى كتب، ولكن الرغبات المخلصة لم تكن كافية للعمل.

لا نفرغ من جعبة المجموعات الوثائقية للإحصاءات التجارية البحرية عن مصر فى الأرشيف التاريخى المركزى الحكومى. بهذا الخصوص سنجد معلومات كثيرة فى وثائق المجموعة المتكاملة ٩٨ المعنونة "شركة بواخر (الأسطول التطوعى)". تم إنشاء الشركة فى عام ١٨٧٨، وبعد عامين بدأ "الأسطول التطوعى" رحلاته على خط أوديسا- فلاديفوستوك. كانت سفنه تتوقف فى ميناء بورسعيد، حيث يتم تزويدها بالفحم. فى بداية القرن العشرين كـــانت تلك الرحلـــة تتم مـــرة أو مرتين فى الشهر. فى صيف ١٩١٠، على سبيل المثال أبحرت البواخر من أوديسا فى ١٠ و١٥ مايو، ١ و٢٠ يونيو، و١٥ و٢٠ أغسطس[٢]. تلك المجموعة الوثائقية تتكون من خمس مجموعات فرعية. المجموعة ١ تضم بضعة آلاف من الملفات التى تغطى الفترة ما بين عامى ١٨٧٨ و١٩١٩. وتتكون تلك المجموعة أساسا من سجلات دوريات العمل والسجلات التاريخية ببواخر شركة "الأسطول التطوعى". على سبيل المثال الملف ٢٦٠٨ عبارة عن سجل مناوبات العمل للباخرة "موسكو" التابعة لشركة "الأسطول التطوعى" خلال عام ١٨٨٢. فى ذلك الملف نجد بعض معلومات عن توقف تلك الباخرة فى ميناء بورسعيد.

فى المجموعة الوثائقية الفرعية ٢ للمجموعة الوثائقية المتكاملة ٩٨ المؤرخة ما بين عامى ١٨٧٩ و١٩٢٠، ستثير اهتمام القارئ الملفات ٦٣، ٦٤، ٦٥ المناظرة لأعوام ١٩١٢، ١٩١٣، ١٩١٤. تلك الملفات بعنوان واحد هو "مراسلات مع وكيل الشركة بمدينة بورسعيد".

فى المجموعة الفرعية ٣ من المجموعة المتكاملة ٩٨ نفسها والمؤرخة فيما بين عامى ١٩٠٨ و١٩١٧ تستحق ثلاثة ملفات الاهتمام: ملف ٦٢ (١٩١٦)، بعنوان "بورسعيد والسويس والإسكندرية" ويحتوى على ١٩٢ ورقة، وملف ٢٩٠ (١٩١٤)، بعنوان "التلغراف المصرى" ويحتوى على ١٠٠ ورقة. كلا الملفان

يحفظان معلومات متنوعة للغاية عن رحلات بواخر "الأسطول التطوعى" إلى مصر: حجم البضائع والمسافرين، ثمن التذاكر، سعر تغيير الروبل والجنيه المصرى وغيرها من المعلومات المهمة. فى هذين الملفين سيجد الباحث مبتغاه من معلومات ضرورية عن موضوع بحثه. والملف الثالث برقم ٢٧٩ عن عام ١٩٠٩ وبعنوان "قوائم الحجاج المسلمين".

ولعل أكثر الوثائق علاقة بالسياسة هى المتضمنة فى المجموعة الفرعية ٥ التابعة للمجموعة الوثائقية المتكاملة ٩٨، التى تغطى الفترة ١٩١٣- ١٩٢٢. يفصح عن ذلك للتو عنوان أول ملف "خطابات والتماسات باسم الوكيل الرئيسى لشركة (الأسطول التطوعى) فى بورسعيد عن أحداث جبهات الحرب ومراسلات الجبهات وغيرها". هذا الملف المؤرخ، فيما بين ١٩١٣ و١٩٢٠ يحتوى على مراسلات قائد الكتيبة الروسية فى التل الكبير مع الوكيل الرئيسى لشركة "الأسطول التطوعى" فى بورسعيد التى تضم موضوعات مختلفة.

فى الملفات ٤، ٦، ٩، ١١، ١٥، ١٩، ٢٣، ٢٥، ٢٨، ٣٧، ٤١، ٤٣، ٤٨ يكتشف الباحث مراسلات وخطابات مختلفة للقناصل الروس ووكلاء "الأسطول التطوعى فى القاهرة والإسكندرية وبورسعيد والسويس" عن ترحيل أسرى الحرب السابقين إلى روسيا والبلدان الأخرى، وعن تخزين شحنات البضائع، وعن الحسابات الجارية وما شابه. ويتحدث عنوان الملف ٣٠ المؤرخ فى عام ١٩٢٢ عن نفسه: "مراسلات مع إدارة "الأسطول التطوعى" والقنصل فى بورسعيد عن إغلاق وكالة الشركة فى بورسعيد".

لم تنته المعلومات الوثائقية عن مصر فى وثائق الأرشيف التاريخى المركزى الحكومى، وكما ذكرنا فى السابق؛ فإن فى المجموعات الوثائقية المتكاملة لكل وزارة نستطيع العثور على معلومات عن مصر. على سبيل المثال، فى

المجموعة الوثائقية المتكاملة لـــ "وزارة العدل" ، وفى المجموعة الفرعية ٥٣١، سنجد ملفات تحتوى على معلومات مفيدة عن مصر: ملف ٤٩٣ عن ١٩٠٧-١٩١٠ بعنوان "تقرير نهائى من وزارة العدل عن الموضوع الذى أثارته وزارة الخارجية بشأن إصلاح المحاكم المختلطة المصرية"، وملف ٤٩٢ عن ١٩٠٧-١٩١٠ بعنوان "مراسلات مع وزارة الخارجية بشأن مشروع تطبيق نظام جديد لدفاتر الإقطاعيات الزراعية فى مصر، المُعد بواسطة لجنة الإصلاحات القضائية المكونة بأمر الحكومة المصرية". وتتوالى الملفات التى تجذب أنظار الباحثين، فنجد فى نفس المجموعة الوثائقية المتكاملة والمجموعة الفرعية التى ذكرناها آنفا ملفات ٥٧٤، ٧١٨، ٨٤٣، التى تحوى جميعًا ملاحظات العاملين بوزارة العدل على الموضوعات الخاصة بالنظام القضائى المصرى، وذلك بسبب أن روسيا كان لها دائمًا عضو فى المحاكم المختلطة الدولية المصرية (وأيضًا فى صندوق الدين المصرى، والمجلس الصحى الدولى وغيرها).

فى هذا الأرشيف التاريخى المركزى الحكومى الكثير من الملفات المتعلقة بالعلاقات الكنسية بين البلدين، وبالأوضاع الدينية فى مصر. تنشغل كليًا بذلك الموضوع المجموعة الوثائقية المتكاملة ٧٩٧. ومنها الملف ٣٨٦ التابع للمجموعة الفرعية والمؤرخ فى عام ١٨٥٨، والمعنون "ملف عن الوضع الحالى لكنيسة الروم الأرثوذكس فى مصر". والورقة الثالثة من ذلك الملف تتحدث عن هيئة البطريركية، فبطريرك الإسكندرية يمتلك مقرًا فى القاهرة ويقع تحت هيمنته غبطته ثلاثة أساقفة (ليفيا وفيفايد وإيليابول)[٣]، وسبعة آخرون من رجال الدين. فى الوقت الحالى يقيم أسقف ليفيا فى إمارات حوض نهر الدون، حيث يرأس إدارة أملاك البطريركية هناك، أما أسقف فيفايد؛ فيقيم فى روسيا لجمع العطايا لصالح مذبح الإسكندرية. أما أسقف إيليابول، فهو فى المنفى عقابًا له على حماقة ارتكبها.

الكنائس والمنشآت الدينية فى القاهرة:

كنيسة البطريركية الرئيسية فى القاهرة المسماة على اسم القديس نيقولا، قد شيدت حديثا بإعانات مالية من الحكومة الروسية، وبشكل جزئى من نذور وتبرعات الروم الأرثوذكس في القاهرة.

على ظهر ورقة ٣. عدا ذلك تقع أيضا فى القاهرة ثلاث كنائس صغيرة وفقيرة، منها واحدة فى القاهرة القديمة باسم القديس جيورجيوس. فى القاهرة أيضا مدرستان لأطفال الروم الأرثوذكس من الجنسين ومستشفى واحد. تدير تلك المنشآت لجنة خاصة تمثل البطريركية. وتبلغ نفقاتها ٣٥ ألف فرنك سنويا، تدفع البطريركية ٧٥٠٠ فرنك منها ويدفع المتبرعون الروم الأرثوذكس الباقى (٢٧٥٠٠ فرنك). وتتمتع المدرستان بحالة مرضية للغاية أما المستشفى فحالته سيئة.

يتجاوز عدد الروم الأرثوذكس فى القاهرة ٤٥٠٠ شخص، وهم يتزايدون باستمرار.

أنطوشى(*) سيناء فى القاهرة انتقل إلى كنيسة القديسة كاترين وهى كنيسة صغيرة. ونتيجة خصام مؤسف بين (الورقة ٤) كهنة دير سانت كاترين وبين بطريركية الإسكندرية تم إغلاق هذه الكنيسة التى تحفظ قدرة القديسة المعذبة كاترين لمدة أكثر من مئة عام، ولكن نتيجة وساطتنا، تم افتتاحها من جديد فى نهاية العام السابق بتصريح من البطريرك الراحل إيروفيا.

(*) أنطوشى نطق عربى لكلمة أنطوخيوس ومعناها "كاهن". (المراجع)

الكنائس والمنشآت الدينية فى الإسكندرية:

فى وقت زيارة غبطة البطريرك للإسكندرية التى تواكب الصيف القائظ، يتم استخدام الدير القديم المسمى دير القديس سابا لإقامته، ويدير رئيس الدير كل أمور هذا المقر ويدفع سنويًا لمذبح البطريركية ٢٥٠٠ فرنك.

فى الإسكندرية تقع أيضا كنيسة بشارة العذراء، أكثر الكنائس فى مصر جمالاً بغنى هيكلها، ليس فقط بين كنائس الروم الكاثوليك، بل وبين الكنائس المسيحية الأخرى.

(ورقة ٤ على ظهر الورقة) بدأ بناء تلك الكنيسة فى عام ١٨٤٦ بفضل حمية السكان الروم الأرثوذكس خاصة التاجر اليونانى الغنى "توسيتسا" الذى توفى حديثا، ذلك الرجل الذى أنفق معظم ثروته مرضاةً للرب. انتهى بناء الكنيسة فى عام ١٨٥٦. وتم صرف أكثر من مليون فرنك على بناء وزخرفة كنيسة بشارة السيدة العذراء التى بُنيت على أرض تبرع بها السيد "توسيتسا". وتدير الشئون الاقتصادية والمالية للكنيسة لجنة خاصة منتخبة من رعية الكنيسة. يتكون دخل الكنيسة من التبرعات التى يقدمها تجار الإسكندرية من اتباع كنيسة الروم الأرثوذكس، ومن تلك التبرعات يتم دفع ٢٥٠٠ فرنك لكرسى البطريركية.

تتبع كنيسة بشارة السيدة العذراء بالإسكندرية (ورقة ٥) مدارس للجنسين ومستشفى، تتم إدارتها بواسطة اللجنة المذكورة. وتضم تلك المدارس ٨٠٠ تلميذ، وهى فى حالة ممتازة وتؤدى مهمتها بشكل مرضٍ وكاف. لقد قام ببنائها المرحوم "توسيتسا" وتكفل بإعالتها، منفقًا عليها ما يقرب من ٥٠٠ ألف فرنك.

تم بناء المستشفى فى عام ١٨٢١ بتبرعات الروم الأرثوذكس، وقد تحسن بشكل ملحوظ منذ دخوله تحت إدارة لجنة كنيسة بشارة السيدة العذراء، وتبلغ ميزانيته ٣٥ ألف فرنك سنويا، منها ٧٥٠٠ فرنك تدفعها البطريركية.

يعيش في الإسكندرية ما يقرب من ستة آلاف من الروم الأرثوذكس، وبفضل حميتهم المسيحية تم العديد من الأعمال الطيبة والمفيدة، وبهذا الصدد هم يصلحون للتقديم كقدوة لغيرهم من بني عقيدتهم في الشرق (ورقة٥).

الكنائس في المدن الأخرى:

من بين المدن المصرية الأخرى، توجد كنائس فقط في السويس ودمياط ورشيد. لكنها تعاني من وضع مزرٍ للغاية ويتم الإنفاق عليها من قبل رعيتها بدون أي تعاون من البطريركية. وربما سيكون مرغوبًا بناء كنيسة في مدينة المنصورة حيث يتزايد بشكل ملحوظ عدد السكان من الروم الأرثوذكس.

سكان البلاد من الروم الأرثوذكس والأكليروس:

يبلغ تعداد الروم الأرثوذكس في كل أنحاء مصر ١٢ ألف شخص[٤]، وبها ٩ كنائس و١٨ قسيسًا، منهم فقط سبعة يتلقون رواتب (ورقة ٦) من خزينة البطريركية والباقي يعيلهم أتباع الكنيسة. ويعيش رجال الدين حياةً بائسةً للغاية، أغلبهم أناس محرومون من أي تعليم ومن أي صفات واجبة للقيام بالتوجيه الأخلاقي للرعية. بهذا الصدد تتعلق الآمال من جديد على بطريرك الإسكندرية المنتخب "كالينيكا" إذ ينتظرون منذ زمن بعيد وصوله من القسطنطينية. حيث سيسدي غبطته بالطبع في مجاله فائدة عظمى للرعية من الروم الأرثوذكس بالموارد المادية التي في حوزة البطريركية، والتي ليست بقليلة، كما يفترض الكثيرون.

ويتكون دخل البطريركية ومصاريفها من الآتي:

- (ورقة ٦ على ظهر الورقة) الأراضي في إمارات الدون.. ٢٨٠٠٠٠ فرنك.
- تبرعات مختلفة في القاهرة.......................... ١٥٠٠٠ فرنك.

- عطايا مدفوعة بواسطة دير القديس سابا بالإسكندرية.... ٢٥٠٠ فرنك.

- عطايا مدفوعة من كنيسة بشارة السيدة العذراء بالإسكندرية.. ٢٥٠٠ فرنك.

إجمالى ٣٠٠٠٠٠ فرنك.

المصروفات:

- رواتب سبعة قساوسة................................٦٢٥٠ فرنكًا.

- إعانات مالية لمؤسسات خيرية فى القاهرة.............٧٥٠٠ فرنك.

مثلها فى الإسكندرية.................................. ٧٥٠٠ فرنك.

بإجمالى ٢١٢٥٠ فرنكًا.

الباقى ٢٧٨٧٥٠ فرنكًا

للأسف ظلت أمور البطريركية تُدار بغباء حتى الآن، (ورقة ٧)، وعلى الرغم من دخلها الكبير فإنها باستمرار يعوزها المال.

الإعانات المتلقاة من روسيا:

بغض النظر عن الهدايا الكبيرة التى تلقتها بطريركية الإسكندرية فى أوقات مختلفة من القياصرة الروس الكرماء، وهى عبارة عن قلائد كنائسية، وأيقونات وأشياء أخرى، ناهيك عن الإعانة السنوية للمدارس التى ذكرناها فيما سبق التى ستتم بدءًا من عام ١٨٦٠. تم السماح لغبطة البابا بإيفاد الأسقف فيفايد "نيكانور" لجمع صدقات لصالح كرسى البطريركية. لقد تجاوزت حملة الجمع تلك أكثر من خمسين ألف روبل فضة، تم تسليم البطريركية بالفعل جزء منها من خلال القنصلية العامة الروسية، والجزء الباقى لم يتم إرساله بعد من سان بطرسبرج. آملاً فى التأكد من الاستخدام المفيد للمبلغ المعطى، (ورقة ٧ ظهر الورقة) يتوجه القنصل

العام بطلب إلى غبطة البطريرك لإعلامه بطريقة وبوجوه صرفها. تلقى القنصل ردًا مصحوبًا بنسخة يتضح منه أن كل حصيلة التبرعات تم صرفها فى أغراضٍ لمرضاة الرب.

جزء من إرث "أنيستيا" الداخل إلى خزينة البطريركية:

فى بداية العام الحالى دخل خزينة البطريركية ١٢٥ ألف فرنك من تركة اليونانى "أنيستيا" الذى توفى فى القاهرة حديثًا، ونأمل فى أن يتم استغلالها فى غرض مفيد.

تلك التبرعات من الأشخاص تعطى الحق لدرجة ما للرعية فى مراقبة الاستخـــدام الصحيح للمال الذى تبرعوا به، وغالبًا ما تسبب ذلك فى خلافات (ورقة ٨) بين الرعية والكرسى البطريركى، لكن يمكننا أن نأمل بجرأة فى أن تلك الخلافات لن تتكرر فى عهد الرئيس الحالى لكنيسة الروم الأرثوذكس المتمتع بسمعة إنسانية. كانت تلك الخلافات، تقع غالبًا بسبب غياب أى تنظيم فى إدارة شئون البطريركية، والضعف الغريب لشخصية البطريرك الراحل "إيروفيه". بقدر ما تكون أنظمتنا حصيفة، بقدر ما تكون بحق مسيحية رائعة.

بجانب تدقيق وتقرير دخل كنيسة الروم الأرثوذكس المصرية، تنقل لنا مصادر الأرشيف التاريخى المركزى الحكومى معلومات عن الموقف السياسى الداخلى المعقد فى تلك الكنيسة الذى كان يحتدم من وقت إلى وقت آخر بين الرعية وقيادة الكنيسة. ويحتوى ملف ١١٥ التابع للمجموعة الفرعية ٣٧ من نفس المجموعة الوثائقية المتكاملة ٧٩٧ على معلومات من ذلك النوع، وهو بعنوان "عن أحداث الفوضى فى أبرشية الإسكندرية"، ومؤرخ فى عام ١٨٦٧، ويقع فى ١١٣ صفحة. يخبر السيد مورافييف وزارة الخارجية بهذا الصدد (ورقة ٣) فيقول: "منذ

أيام تلقيت تلغرافا من البطريرك "نيكانور" فحواه أن ٥٠٠ من المصريين قد اقتحموا البطريركية بنية إسكان الأرشمندريت "يفجينى" فيها بالقوة.

ورقة ١٦ نسخة

من بلاغ سرى لقنصلنا العام فى الإسكندرية موجه إلى وزارة الخارجية بتاريخ ٢٢ يونيو ١٨٦٧.

معلوم لمعاليكم من تقاريرى وبلاغاتى وتقارير من سبقونى فى المنصب، فى أى حال سيئة تعيش كنيسة الروم الأرثوذكس فى مصر، خاصة منذ وقت تعيين غبطة "نيكانور" بطريرك الإسكندرية. منذ وقت قديم، معروف أن اليونانيين المحليين مشهورون بمكائدهم وسوابقهم الفاضحة، لكن مجال نفوذهم لم يتسع مثلما، هو الآن فى عهد نيكانور الضعيف. لقد أحاط (ورقة ١٦ ظهر الورقة) المتآمرون الذين اعتادوا العيش على حساب البطريركية والخلافات بنيكانور، وأجبروه على ارتكاب حماقة تلو حماقة. بالمناسبة لقد أوعزوا له أن ينصب فى منصب "أسقف" من يسمى "ميليتيا"، وأن يختار من أراضى "ولاشيا" أفاناسى كأسقف ليفيا، وهؤلاء الاثنان متآمران وذوى سمعة سيئة.

لم يكن ممكنا للوضع المؤسف للكنيسة هنا ألا يجذب اهتمام سفيرنا فى القسطنطينية، وأيضا اهتمام الخديو فى مصر. لقد حازت على عقل الاثنين فكرة تعيين نائب لغبطة نيكانور، ليقوم بإدارة البطريركية بالنيابة عنه. فى البداية لم يعارض غبطته ذلك، بل وطلب من الحكومة المصرية التصديق على تعيين المذكورين سلفا "ميليتيا" و"أفاناسي" نائبين له، ولما كان الاثنان معروفين بجوانبهما السيئة، فإن الحكومة لم تصدق على تعيينهما. سمح نيكانور لرعية الكنيسة فى الإسكندرية بانتخاب نائب له. عندئذ قام الرعية من الروم الأرثوذكس فى القاهرة والإسكندرية بانتخاب النائب الذى كان يقطن آنذاك فى القسطنطينية الأرشمندريت

يفجيني، والذى كان يدير أيام غبطة البطريرك كالينيكا بطريركية الإسكندرية لمدة عام كامل. بعد انتخاب "يفجيني" توجه رعايا الكنيسة إلى ولى عهد الخديو وبطريرك عموم الكنيسة وسفيرنا طالبًا التصديق على انتخابه. وقبل تعيين يفجيني، أوفد قداسته إلى مصر شخصًا موثوقًا به، وذلك لمعرفة عن قرب إذا ما كان غبطة نيكانور بالفعل قد وهن من الناحية الجسمانية والعقلية بحيث لم يعد قادرًا على إدارة البطريركية، وعندما تأكد بالفعل عدم قدرته، عيَّن عندئذ فقط يفجيني نائبًا لكرسى الإسكندرية.

بعد أن تلقى يفجيني الموافقة من الباب العالى، وصل إلى الإسكندرية، حيث استقبله رعية الكنيسة وكثير من اليونانيين، وفى اليوم نفسه استقبله الخديو رسميًا. حمل يفجيني إلىَّ رسالة من الجنرال- أديوتانت "إيجناتيف" الذى كتب إلى: "قدم إلى الأب يفجيني كل العطف والمساندة فى تسهيل عمله الصعب فى استعادة الأمن والوفاق، وفى المهمة المكلف بها الخاصة بإدارة البطريركية والحفاظ على ممتلكات كرسى كنيسة الإسكندرية. عقب تلقى هذه الرسالة، استقبلت "يفجيني" فى اليوم التالى مباشرةً لوصوله، ووعدته بالمساندة. على الرغم من أن غبطة نيكانور قد قابل يفجيني، فإنه رفض الاعتراف به كنائب له.

بعد ذلك بقليل سافر نيكانور إلى القاهرة، وظل يفجبنى فى الكنيسة، يقوم بصلوات الظهيرة والمساء والصباح، ولكنه عمليًا تم إبعاده تمامًا عن مهامه. أصبح وضعه بالمرة غير مريح، ولذلك طلب من الحكومة المصرية أن تمكنه من إدارة البطريركية فى الإسكندرية وفى القاهرة أيضًا، وحيث إن الأسقفين ميليتيا وأفاناسى يضعان فى طريقه العراقيل، فإنه يطالب بإبعادهما عن البلاد. وتلقت الوزارة المصرية طلب يفجيني وعندما تأكدت من أن ميليتيا وأفاناسى لا يتآمران فقط ضد يفجيني، بل ويقنعان الناس بمقاومته حتى بالسلاح؛ استجابت لطلب يفجيني ونفت

الاثنين خارج حدود مصر، والغريب أن الذى ألقى القبض عليهما لم يكن من الشرطة بل من اليونانيين أنفسهم. بعد ذلك تم تمكين يفجينى من دخول إدارة البطريركية، حيث وجد أن كل محتوياتها قد نهبت من قبل الأشخاص المحيطين بالبطريرك والأسقفين المبعدين خارج مصر، أما نيكانور نفسه، فهو شخص شريف للغاية، ولكنه للأسف ليس ضعيفًا من الناحية العقلية فقط، بل وإنه (ورقة ١٩ على ظهر الورقة) لا يرى شيئًا مما يحدث حوله. بدأ يفجينى فى ممارسة عمله فى الإسكندرية ولكن البطريرك لم يسمح له بالعمل فى القاهرة. ووصلت المؤامرات فى القاهرة لدرجة أن كنيسة البطريركية فى القاهرة توقفت عن العمل، وهكذا تم حرمان الروم الأرثوذكس من القداس والصلوات، فاشتكوا للمحافظ الذى كتب عن ذلك إلى شريف باشا الذى يحكم البلاد فى غيبة الخديو. وطلب شريف باشا من بطريرك الأقباط والمسئول عن إدارة كنيسة الأرمن للروم الأرثوذكس فى مصر الذهاب إلى الأب نيكانور، وإقناعه بالاعتراف بيفجينى كمساعد له وتركه يدخل البطريركية.

وفى الوقت نفسه ، قام المحرضون هنا، الذين يخشون يفجينى بسبب معرفته بكل أفعالهم الدنيئة، بإجبار البطريرك على التوقيع على رسالة موجهة لى، قاموا بتأليفها. يشتكى نيكانور فى الرسالة من أفعال الحكومة المصرية تجاهه، واتهمنى بالتساهل مع تلك الأفعال، طالبًا طرد يفجينى سريعًا من مصر، كما هدد بأنه فى أسوأ الأحوال سيقوم بالاحتجاج لدى الدول الكبرى، ومن بينها إمبراطور روسيا.

قمت بالرد على هذا الخطاب، وذكرت أن غبطته يعانى من ضلالات بشأن تصرفاتى، وأننى لن أسمح أبدًا للحكومة المصرية بأن تمس كنيسة الروم الأرثوذكس أو أن تغضب شخص غبطته. وفى الوقت نفسه نصحته بالاعتراف بيفجينى وبوضع نهاية لحالة الفوضى والوشاية الحادثة فى كنيسة الروم الأروثوذكس

هنا منذ فترة. ولقد أثرت هذه الرسالة ونصائح بطريرك الأقباط والقائم بإدارة الكنيسة الأرمنية غبطة نيكانور، فقام بالذهاب إلى محافظ القاهرة الذى (ورقة ٢١) أعطى موافقته، فى حضور الشخصيتين الدينيتين المذكورتين، على استقبال يفجينى. لكن فى اليوم التالى مباشرة أحاطه من جديد المتآمرون (من بينهم لعب دورًا كبيرًا أعضاء المجلس الملى غير الشرعى، الذى كونه البطريرك وأسقف ليفيا، المشتاقون لإدارة أموال البطريركية) وأجبروه على تغيير قراره.

عندما رأى شريف باشا أنه بالطرق السلمية لم يستطع عمل شىء مع رعايا الكنيسة المدفوعين فى القاهرة والإسكندرية وأيضًا مع كل اليونانيين الحكماء، دعا "يفجينى" للذهاب إلى القاهرة وأعطى أمرًا (ورقة ٢١ على ظهر الورقة) للمحافظ هناك بإدخاله الى إدارة شئون البطريركية. عند وصول يفجينى للقاهرة وجد فى استقباله فى محطة السكك الحديد المحافظ ورجال الشرطة وأعضاء الطائفة والكثير من اليونانيين، واتجه بمصاحبتهم إلى الحاكم العام. وذهب المحافظ إلى البطريركية للإعداد لاستقبال يفجينى، ولكن عند وصوله إلى بوابات البطريركية وجد البطريرك واقفًا على دكة خشبية ومحاط بالمهيجين، المعروفين له، عندئذ اقترب ناحية غبطة نيكانور وبدأ يقنعه بالسماح ليفجينى بدخول البطريركية. بدأ (ورقة ٢٢) البطريرك يوافق، ولكن أخذه المهيجون مرة أخرى فى أيديهم، ووضعوه أمام الأبواب مرة أخرى. عندما رأى المحافظ أن غبطة نيكانور لا يملك إرادته، أصدر أمرًا باعتقال أربعة من المحرضين الأساسيين الذين كانوا من قبل تحت المراقبة فى البوليس. بدأ هؤلاء المحرضون فى مقاومة السلطات وفى الوقت نفسه التشبث بالبطريرك نيكانور الذى ألبسوه منذ الصباح التاج ووشاح أنينسكايا لإضفاء الأهمية عليه. بعد اعتقال هؤلاء الأربعة من المحرضين عاد الهدوء، ودخل يفجينى البطريركية بمصاحبة (ورقة ٢٢ على ظهر الورقة) الحكماء من اليونانيين.

لسوء الحظ اتضح أن كل الأربعة المعتقلين من الرعية اليونانية، ولذلك اضطرت السلطات المحلية إلى الإفراج عنهم فى اليوم نفسه بناء على طلب القنصل اليونانى. وقام المفرج عنهم بإقناع البطريرك بالسفر إلى الإسكندرية والاحتجاج لدى كل القنصليات ضد تصرفات الحكومة المصرية. كان نيكانور قد أقنعوه بأن يفجينى يريد دس السم له، فأصبح يوافق على كل شىء يبعده عن نائبه، ولذلك ذهب إلى الإسكندرية فى اليوم التالى لوصول يفجينى، لكن حزب المحرضين لم يسمح له (ورقة ٢٣) بالإقامة فى البطريركية ولا فى القصر المخصص لإقامة الضيوف من الشخصيات المهمة والذى خصصه له شريف باشا.

كان هناك فى الإسكندرية أيضًا بعض المتآمرين المتورطين بشكل دنىء فى أمور الكنيسة. ذهب هؤلاء عند وصول نيكانور إلى القنصليات واشتكوا قائلين: إن رجال الشرطة ضربوا البطريرك. نتيجة لهذه الشكاوى حضر إلى القنصل اليونانى وسألنى عما أفكر فيما يجب عمله، أجبته بأنه على الرغم من التقارير التى تلقيتها تؤكد يقينًا أن لا أحد من الشرطة قد خرج عن احترامه الواجب للمقام الرفيع للبطريرك، وقصصت له ما حدث فى القاهرة، فإننى اقترحت عليه الذهاب معًا إلى شريف باشا لطلب توضيح وتحقيق مفصل وعقاب رادع للمذنبين، إذا تم كشفهم. كل ذلك من أجل تهدئة النفوس.

قابلنا شريف باشا فى اليوم التالى، وأعلن أن التقارير التى تلقاها تفيد بأن المحافظ هناك حاول بكل الطرق السلمية، ولكن اضطر لفشل جهوده إلى أن يعتقل وقتيا أربعة يونانيين، قاموا بالتحريض على مقاومة السلطات والتظاهر. أما بالنسبة للبطريرك (ورقة ٢٤) فلم يمس شخصه أى أحد من رجال الشرطة، وبغض النظر عن كل ذلك، وعدنى شريف باشا بأن يأمر بتحقيق حازم وعلنى فى هذا الأمر، ولو وجد أى مذنب من رجال الشرطة فستتم معاقبته.

في الوقت الحاضر يقوم المتآمرون في القاهرة والإسكندرية بتقديم احتجاجات إلى ممثلي الدول الكبرى في الإسكندرية وإلى القيصر، يشتكون فيها من تصرفات الحكومة المصرية، ويشكونني إلى القيصر، ويقوم غبطة نيكانور بالطبع بالتوقيع على كل تلك الشكاوى، ولكن كما وصلني فإن القناصل العموميين هنا لا يريدون (ورقة ٢٤ على ظهر الصفحة) التدخل في أمور لا تخصهم. على الأرجح، سيُرفق برسالتي شكوى غبطة نيكانور وحزب المتآمرين للنظر من جلالتكم حسب القواعد المعروفة لدى، ولذا أسألكم تقبل اعترافي الصريح. تعرفون جلالتكم شخصي منذ زمن طويل وبخبرتكم لم تقوموا بتعييني في هذا المنصب المهم في مصر، لو أنكم لم تكونوا واثقين تمامًا من أنني لن أحافظ على نفوذنا في الشرق فقط، بل وسأعمل على زيادته بكل ما لدى من جهد واستطاعة".

في أواسط صيف ١٨٦٧ يخبر قنصل القيصرية الروسية في القسطنطينية إلى قنصل روسيا في مصر بأن السفير اليوناني في العاصمة العثمانية يلح على استدعاء يفجيني من مصر، وينصح بطريرك القسطنطينية لعموم الروم الأرثوذكس، بألا يدعمه (الملف السابق نفسه. ورقة ٣٤).

أخيرًا، وفي نهاية أغسطس عام ١٨٦٧ قام "المجمع المقدس المصري المحلي" بحرمان الأرشمندريت يفجيني من مقامه المقدس، بسبب الإخلال بحقوق السنودس البطريركي (الملف نفسه. ورقة ٦٦).

استمرت الخلافات بين مجموعتي الروم الأرثوذكس عمليًا حتى يوليو ١٨٧٠، عندما تم تعيين غبطة "سوفروني" على كرسي الإسكندرية، والذي كان بطريركًا لعموم الروم الأرثوذكس في الفترة ما بين عامي ١٨٦٣-١٨٦٧. وعند وصوله إلى الإسكندرية في نهاية عام ١٨٧٠، استطاع وضع نهاية للخصام والفتن بين أوساط رجال الدين وأوساط الروم الأرثوذكس في مصر. يشير الدبلوماسيون

الروس فى القاهرة إلى أن المرحوم "سوفرونى" كان واحدًا من القلائل من رؤساء رجال الدين اليونانيين الذين تعاملوا مع روسيا بمشاعر الإخلاص الحقيقى وبفهم جيد، بأن روسيا هى الحامية الوحيدة لكنيسة الروم الأرثوذكس فى الشرق(٥).

ويخبرنا المصدر نفسه: "إن مرض بطريرك الإسكندرية غبطة "سوفرونى" البالغ من العمر ١٠٢ عامًا وتكليفه الأرشيدياكون "باجونيس" بإدارة البطريركية، قد أثار الأقاويل حول من يخلفه على كرسى البطريركية. لقد كانت دائمًا انتخابات البطريرك تثير الصراع بين جماعات اليونانيين وأحزابهم. تميزت السنوات الأخيرة للمدة البطريركية لغبطة نيكانور (توفى فى عام ١٨٦٩) بالفتن فى الأمور الكنسية. وحتى فى يوم وفاته وصل الهياج إلى حد، أنه بسبب الخلافات بين جماعات اليونانيين تم خطف جثمانه بواسطة الحشد الصاخب، ولم يهدأ اليونانيون إلا بعد تدخل البوليس والقوة المسلحة لكى تهدئ اليونانيين الثائرين. نتوقع تلك المشاهد المؤسفة وأحداث فوضى كبيرة الآن، لأن طباع اليونانيين وميلهم إلى التآمر لم يتغير"(٦).

فى انتخابات عام ١٨٩٩، حدث اضطراب بين الرعايا الروم الأرثوذكس. تدخلت سلطات الاحتلال والقنصل اليونانى "جريباريس" بشكل كبير فى الحملة الانتخابية، ونتيجة لهذا وجد السوريون الروم الأرثوذكس واليونانيون المحليون أنفسهم بلا فاعلية وأهدرت حقوقهم فى انتخاب مجمع الناخبين. عن ذلك يخبر القنصل الروسى "كياندر" المسئولين فى بطرسبرج: "يتصاعد السخط أكثر فأكثر وسط الروم الأرثوذكس المحليين من ذوى الأصول السورية من الطريقة التى تدار بها الانتخابات. ويتضامن معهم اليونانيون ذوى الجنسية المصرية. أحدثت الاحتجاجات ضد تدخل زميلى اليونانى ضغطًا قويًا للغاية على مواطنيه وعلى أثينا. وتم إرسال الشكاوى الخاصة بإبعاد العناصر المحلية بالكامل عن هيئة

الناخبين إلى الباب العالى، وتم تسليمها إلى الحكومة المصرية. وجه الساخطون شكواهم بالكلمات عبر ممثليهم، وكتابة إلى مصطفى باشا فهمى(*)(٧)، ولكنهم اتجهوا بشكل أساسى إلى البعثة الدبلوماسية الإنجليزية(**) هنا، والتى يُعتمد عليها بشكل كامل فى تسيير أمور الحياة السياسية والاجتماعية فى مصر. لقد اقتدى المحتجون بما فعله من قبل "جيباريس"، عندما طلب من البداية تعضيدًا من الإنجليز، وأدخلهم بهذه الطريقة فى شئون لا تخصهم، بل تخص الروم الأرثوذكس فقط.

لقد تسلمت أيضا التماس موقع من ممثلى لجنة لذوى التابعية المصرية. ناهيك عن أن بعض الروم الأرثوذكس المؤثرين قد زارونى وطلبوا منى التحدث بشأن الانتقاص من حقوقهم. لقد أخبرونى، بأنه من البداية كان مفترضا إعطاء العناصر المحلية حق المشاركة فى الانتخابات، ولكن خوفا من النفوذ الروسى تم التفكير فى حيلة تعيين الناخبين من الطوائف، بحيث لم يدخل واحد من ذوى الجنسية المحلية فى هيئة المندوبين الذين انتخبوا البطريرك؛ لأن البطريرك لا يمثل لذوى الجنسية المحلية رأس الكنيسة، بل وأيضا رئيس مجتمعهم الذى تتركز بين يديه كل مصالحهم الخاصة بالشئون العائلية وأمور الميراث، فهم يعتبرون إقصاءهم عن الانتخابات بمثابة فعل يهدد مصالحهم الحياتية وقد يدفع بكثيرين من السوريين إلى الانتقال إلى الكاثوليكية والبروتستانتية(٨). نضيف أن كرسى البطريركية فى الإسكندرية قد شغله المواطن السكندرى فوتى (المتروبوليتانى)، الذى حصل على ١٢٤ صوتا من الناخبين، بينما أعطى ٢٧ مندوبا أصواتهم للسبعة مرشحين الآخرين. لقد تم ترشيح فوتى من قبل أثينا.

(*) مصطفى باشا فهمى رئيس وزراء مصر من ١٨٩١– ١٨٩٧، ١٨٩٥– ١٩٠٨. (المراجع)

(**) فى تلك الفترة كانت مصر تحت الاحتلال البريطانى من عام ١٨٨٢، والوجود البريطانى كان يتمثل فى دار المعتمد البريطانى ولم تكن هناك بعثة دبلوماسية بالمعنى الاصطلاحى للكلمة. (المراجع)

الهوامش

(١) انظر بالتفصيل ملف ٣٥٦٧، مؤرخ فى عام ١٩٠٧، ومعنون "كشف نقل بضائع ومسافرين بخط الإسكندرية الدائرى فى النصف الثانى من عام ١٩٠٦".

(٢) م.بوجنبول. "تقرير عن ظهور ونشاط شركة "الأسطول التطوعى" فى فترة وجودها". سان بطرسبرج، ١٩٠٣. ص ٥٦- ٥٧. المجموعة الوثائقية المتكاملة ٣١٧، مجموعة فرعية ١/٨٢٠، ملف ٥٧٤، أوراق ٣٢٦.

(٣) يدور الحديث هنا عن العقارات التى أهداها الرعية الروم الأرثوذكس فى مولدافيا ولاشيا إلى كنيسة الإسكندرية، كثير منها تابعة لدير طور سيناء. فى عام ١٨١٢، وبعد انتهاء الحرب الروسية- التركية ذهبت تلك العقارات والأملاك إلى روسيا. وفى عام ١٨٧٣ قررت حكومة القيصرية أن تلك الأملاك يستخدمها مستأجرون أفراد بشكل غير فعال فأخذتها مستأجرة إياها للأبد، يأخذ دير طور سناء فقط ٢/٥ المداخيل من ١٣ ضيعة وعقارًا يبلغ مساحتها ١٥ ألف هكتار التى تبلغ ٦٠ ألف فرنك. بشكل إجمالى تتلقى كنيسة سيناء ثلثى ميزانيتها من الأراضى الروسية.

(٤) ضمن عددهم نحو مئتين من الملكانيين السابقين، والذين لجأوا إلى عقيدة الروم الأرثوذكس فى العام الماضى نتيجة لاضطهادهم من رجال الدين الروم الكاثوليك. بعض أناس منهم رجعوا إلى عقيدتهم السابقة مرة أخرى،

منذ أن سمحوا بالصلوات حسب التقويم اليوليوسى فى كنائسهم التى كانت قد أغلقت بإلحاح من الأسقف الكاثوليكى.

(٥) أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية، مجموعة فرعية ٤٨٢ ملف ٨٣٧، ورقتا١٩٥، ١٩٥ على ظهر الورقة.

(٦) المصدر السابق نفسه، ورقتا ١٦٧، ١٦٧ على ظهر الورقة.

(٧) مصطفى باشا فهمى كان رئيسا للوزراء فى ذلك الحين- ملاحظة للمؤلف.

(٨) أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية، مجموعة فرعية ٤٨٢ ملف ٨٣٧، ورقتا ٣٢٦-٣٢٧.

الأرشيف الحكومى المركزى للأسطول البحرى العسكرى

تفصح التسمية بكلماتها عن نفسها، فذلك الأرشيف وُلد من أرشيف إدارة الأدميرالية العليا البحرية التى أنشئت بأمر من بطرس الأول فى عام ١٧٢٤، ويقع فى قلب مدينة سان بطرسبرج فى الجهة المقابلة من متحف الأرميتاج فى مبنى ٣٦ فى شارع خالتورين. وقد قام بتصميم ذلك المبنى المعمارى م.إ.ميسماخير، وتم بناؤه فى الفترة ما بين ١٨٨٣ و١٨٨٧. ويضم نحو مليون ونصف ملف عن تاريخ الأسطول، خلال الفترة من عامى ١٦٥٩- ١٩٤٠. ومن أجل تيسير عملية البحث عن المعلومات فى الأرشيف الحكومى المركزى للأسطول البحرى العسكرى، تم عمل فهرست بعنوان دقيق لكل وثيقة، يشمل رقم المجموعة الوثائقية المتكاملة والمجموعة الفرعية والملف والصفحة. كما أصدر قسم النشر بالأرشيف العديد من المنتخبات الخاصة بمواضيع معينة، ليس لتسهيل عمل الباحثين عن المعلومات فقط، بل وللحفاظ على أصول الوثائق؛ لأن ضرورة استخدامها قد انتفت مع نشرها مطبوعة فى تلك المنتخبات. على سبيل المثال، تم إصدار سلسلة من المنتخبات للوثائق الأرشيفية الخاصة بنشاط قائدى الأسطول الأدميرالات م.لازاروف، ف.كارنيلوف، س.ماكاروف، ب.ناخيموف، ف.أوشاكوف. استهدفت كل تلك الطبعات مساعدة الباحثين المؤرخين فى عملهم العلمى. لأجل هذا الهدف أيضًا، تعمل خزانة الكتب المطبوعة فى هذا الأرشيف. حيث تم هنا إيداع الكتب النادرة عن الأسطول والتى طُبعت فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وتبلغ أكثر من خمسين ألف مجلد. أما الوثائق الخاصة بتاريخ الأسطول البحرى الحربى الروسى؛ فإنها موجودة فى مؤسسة أخرى تسمى الأرشيف المركزى للأسطول البحرى الحربى، وتقع فى مدينة جاتشينا بمحافظة لينينجراد.

من بين المجموعات الوثائقية المتكاملة، سنجد موضوعات استكشاف وغزو مناطق المحيط الهادى والمحيطات العالمية والبحار المتاخمة لروسيا، ونشاط بعثات الاستكشاف العلمية، والإبحار حول العالم، والملاحة فى أعالى البحار فى الفتـرة ما بيــن القــرن الثامــن عشر وأوائل القرن العشرين. ولا شــك أن تلك الموضوعات تثير اهتماما كبيرا. تلقى الضوء على تلك الموضوعات المثيرة وثائق المجموعات المتكاملة الخاصة بهيئة إدارة الأسطول البحرى، والإدارة الهيدروجرافية، والإدارة الهيدروليكية الرئيسية، وأرشيف الهيدوغرافيا والاستكشاف، ومواد الأرشيفات الخاصة لرؤساء وأعضاء بعثات الاستكشاف والملاحة. وتضم الأرشيفات الأخيرة وثائق، تتعلق بأول رحلة بحرية روسية حول العالم تحت قيادة ي.ف.كروزنشتيرن، ويو.ف. ليسيانسكى (١٨٠٣-١٨٠٦)، وأول رحلة استكشاف روسية للقطب الجنوبى باستخدام الزورقين "الشرق" و"مسالم" بقيادة كل من ف.ف.بيلينجاوزن، وم.ب.لازاروف (١٨١٩- ١٨٢١)، ورحلات ميكلوخا ماكلاى(١) وغيرهم.

فى وثائق تلك المجموعات سنجد الأوامر الصادرة من الأسطول العسكرى البحرى والإدارات التابعة له ومكاتب القيادات البحرية العليا والقباطنة وغيرهم، وتعكس تلك الوثائق نشاطات الأسطول الروسى: غزوتا الأزوف وبروت اللتان قام بهما بطرس الأول، والمعارك البحرية أثناء الحروب التركية - الروسية ١٧٣٥-١٧٣٩، ١٧٦٨-١٧٧٤، ١٧٨٧-١٧٩١، ١٨٠٦-١٨١٢. كما يحتفظ الأرشيف بوثائق انتصارات الأسطول الروسى فى معارك شيشما (١٧٧٠) وكيرتشين (١٧٩٠) وكالياكاريا وكورفو(١٧٩٩) تحت قيادة الأدميرالات ج.أ.سبيريدوف، وف.ف.أوشاكوف، ود. ن. سينيافين(٢).

سنجد أيضا الوثائق الخاصة باشتراك الأسطول الروسى فى الحروب الروسية- التركية: ١٨٢٨-١٨٢٩، ١٨٧٧-١٨٧٨، ١٨٥٣-١٨٥٦ فى

المجموعات الخاصة بمكاتب وأقسام وزارة البحرية، وهيئة أركان حرب البحرية الرئيسية، والحملات الحربية التابعة للأسطول، وبمكتب القائد الأعلى لأسطول البحر الأسود، وبمكاتب الموانئ وغيرها. من بين تلك الوثائق سنجد المواد الخاصة بمعركتى "تفارين"(*) (١٨٢٧)، و"سينوب"(**) (١٨٥٣)، وأيضا معارك الدفاع عن مدينة "سيباستوبول" (١٨٥٤- ١٨٥٥)، الخاصة بفنون الحرب البحرية للأدميرالات: م.ب.لازاروف، ف.أ.كوريلوف، ب.س.ناخيموف، ج.إ.بوتاكوف.

فى الأرشيف أيضا معلومات عن تاريخ وسياسة واقتصاد عدة دول أجنبية فى أوروبا وآسيا وأمريكا وإفريقيا، وعن علاقاتها الاقتصادية والسياسية والثقافية مع روسيا. كما يحتفظ ذلك الأرشيف بمجموعات من سجلات المناوبة والملاحة لسفن ومراكب الأسطول البحرى العسكرى السوفيتى فى الفترة ما بين ١٩١٨- ١٩٤٠، وسجلات مرور الخدمة من أواسط القرن الثامن عشر حتى عام ١٩١٧، وكثير من غيرها(٤).

إذا تفحصنا مجموعات وثائقية محددة تتعلق بوثائق عن مصر، فأمامنا المجموعة الوثائقية المتكاملة رقم ٤١٧، ومجموعتها الفرعية ١، المعنونة (هيئة الأركان البحرية العامة "قسم المراجعة البحرية العسكرية")، ومن الممكن أن تقسم وثائق تلك المجموعة إلى بضعة أقسام. فى القسم الأول: يجب أن نضع كشوف المراجعة المقدمة عن إبحار السفن التى تطوف البحر المتوسط. فطبقًا للقواعد كان

(*) كانت المعركة الأولى فى ١٨٢٥، وفى ١٨ يونيو ١٨٢٥ دخل الجيش المصرى نفارين بقيادة إبراهيم باشا، والمعركة الثانية كانت فى ٢٠ أكتوبر ١٩٢٧ حيث تدمر الأسطول المصرى والعثمانى. (المراجع)

(**) أما معركة سينوب وهى ميناء على البحر الأسود فقد انتهت فى ٣٠ نوفمبر ١٨٥٣ بتدمير الأسطول العثمانى، فاشتعلت الحرب بين الدولة العثمانية وروسيا التى عرفت بحرب القرم وانتهت فى ١٨٥٦ بصلح باريس. (المراجع)

مكوثها هناك يستمر مددا طويلة كافية، تتراوح بين عدة أشهر وعام وأكثر. كانت السفن المستخدمة كمقار حربية، والراسية فى ميناء بيريه أو فى واحدة أو أكثر من جزر أرخبيل اليونان للقيام بأعمال عسكرية، تزور باستمرار موانئ البحر المتوسط، ومنها بورسعيد والإسكندرية. وكانت تلك السفن، بعد طوافها فى البحر المتوسط، تتجه إلى الشرق الأقصى عبر قناة السويس. وكل ما كان يراه بحارة تلك السفن، تم تسجيله فى كشوف وتقارير المراجعة المقدمة عند العودة إلى هيئة عمليات وزارة الأسطول البحرى فى سان بطرسبرج. ولقد مكنت تلك الرحلات البحرية الطويلة التى يرجع تاريخها إلى النصف الثانى من القرن الثامن عشر، البحارة الروس من التعرف على حياة شعوب الشرق طوال فترة تاريخية مميزة. سنسوق مثالاً لتلك الوثائق فى هيئة تقارير مراجعة لطواف السفن الحربية الروسية فى شرق البحر المتوسط فى النصف الثانى من ثمانينيات القرن التاسع عشر بعنوان "خاص بإبحار فصيلة السفن فى البحر المتوسط بقيادة الكونت- أدميرال ن.إ.كازناكوف"[٥]، والملف المعنون "خاص بإبحار السفينة الشراعية المتطورة "بلاستون" فى المحيط الأطلسى والبحر المتوسط"[٦]، والملف المعنون "خاص بإبحار الفرقاطة "ديمترى دونسكوى" فى البحر المتوسط"[٧]، وملف آخر بالعنوان نفسه"[٨]. وملف "إبحار فصيلة من السفن فى البحر المتوسط بقيادة كونتر- أدميرال ن.إ. كازناكوف ١٢ أبريل- ٧ أكتوبر ١٨٨٦"[٩]، والملف المعنون " تقارير ومقتطفات من تقارير ضباط السفن الحربية ووصف موانئ البحر المتوسط. يناير ١٨٨٦"[١٠]، وملف "خاص بإبحار السفينة الشراعية المتطورة "السهم" فى مياه الأرخبيل اليونانى، ٣ يناير- ١١ديسمبر ١٨٨٧"[١١]، وملف بعنوان "خاص بتخصيص السفينة الشراعية المتطورة "العربيد" كقاعدة فى بيريه، وإبحارها فى البحر المتوسط، ووصولها الى ميناء كرونشتادت. ٩ . ٣. ١٨٨٨- ٢٣. ٩. ١٨٨٩"[١٢]، وملف "تخصيص السفينة الشراعية المتطورة "تشورنو موريتس"

كقاعدة فى بيريه وطوافها بالبحر المتوسط. ٢٩. ٥. ١٨٨٩ – ١٥. ٦. ١٨٩٠"[١٣]، والملف "الوصف الجغرافى العسكرى لجزر وموانئ أرخبيل اليونان وتركيا فى ١٨٨٩"[١٤].

أما القسم الثانى من مواد المجموعة الوثائقية المتكاملة ٤١٧ (المجموعة الفرعية ١)، فيحتوى على معلومات جغرافية إقليمية عن مصر، والوثائق التالية تتبعه: "معاهدة عن ضمان حرية الملاحة فى قناة السويس وقواعد مرور السفن ليلاً عبر القناة. ٣. ٢. ١٨٨٧– ٢٩. ١١. ١٨٨٩"[١٥]، وملف معنون "خاص بقياس السفن الذاهبة للإبحار خارج البلاد من أجل تقدير رسوم المرور خلال السويس"[١٦].

ويضم القسم الثالث لوثائق الأرشيف الحكومى المركزى للأسطول البحرى العسكرى تقارير ثمينة للغاية عن رحلات الإبحار حول العالم، والتى يتم خلالها زيارة مرافئ مصر، وكالمعتاد تعبر فيها السفن قناة السويس. هنا تعتبر سجلات المناوبة والسير للسفن سجلات تاريخية، حيث تُسجل الأحداث المختلفة فى حياة ذلك البلد، سياسية كانت أو اجتماعية أو اقتصادية. نشير هنا إلى ملفات بعناوين مثل: "عن الإبحار حول العالم للقرويطة "الفارس" تحت قيادة س.أ.ماكاروف. الجزء الأول"[١٧]، وملف: "عن الإبحار حول العالم للقرويطة "الفارس" تحت قيادة س.أ. ماكاروف، ٢ يناير ١٨٨٧– ٢٤ مارس ١٨٨٨. الجزء الثانى"[١٨]، وملف "خاص بالإبحار حول العالم للقرويطة "ريندا". ٢ يناير ١٨٨٧– ٢٤ مارس ١٨٨٧"[١٩]، وملف "خاص بإبحار الفرقاطة "أدميرال ناخيموف" على هيئة نصف دائرة من كرونشتادت حول إفريقيا وحتى فلاديفوستوك، وإيابا إلى كرونشتادت عبر قناة السويس. ٦. ٤. ١٨٨٨– ١٨. ١٠. ١٨٩١"[٢٠].

القسم الرابع فإنه يضم وثائق السفن المتجهة إلى الشرق الأقصى السوفيتى، والتى كانت تعبر قناة السويس بشكل دائم، وبه ملفات: "خاص بإبحار السفينة الشراعية المتطورة "سيفوتش" عبر قناة السويس"[٢١]، و"تقارير عن التفتيش ومناظرة السفينتين الشراعيتين المتطورة "القرصان" و"أوبريتشنيك" العائدتين من المحيط الهادى ١٨٨٣- ١٨٨٦، والسفينة الشراعية المتطورة "بلاستون" العائدة من الملاحة فى البحر المتوسط ١٨٨٤- ١٨٨٦"[٢٢]، و"خاص بإبحار السفينة الشراعية المتطورة "كلب البحر" من بيريه إلى فلاديفوستوك. ٢ يناير- ١٤ أكتوبر ١٨٨٧"[٢٣]، و"خاص بإبحار الفرقاطة "الكورى" من الإسكندرية إلى فلاديفوستوك ثم إلى ساخالين. ٢ يناير ١٨٨٨- ٢٩ سبتمبر ١٨٨٩"[٢٤]، و"خاص بإبحار القرويطة "الفارس" فى بحار الشرق الأقصى وعودتها عبر قناة السويس إلى كرونشتادت. ٧. ١. ١٨٨٨- ٨. ٧. ١٨٨٩"[٢٥] وهلم جرا.. انظر فى ملفات ٣٦٠، ٣٦٣، ٤٠٤، ٤٩٩، ٥١٤، ٥٤٤.

تساعد الباحثين فى هذا الصدد التقارير السنوية العامة عن إبحار السفن: "تقارير إبحار السفن فى مجموعات. عام ١٨٨٥"[٢٦]، و"تقارير مختصرة عن إبحار السفن فى عام ١٨٨٧"[٢٧]، و"مواد متعلقة بوضع برنامج الإبحار للسفن لعام ١٨٨٩" (تقارير ومحاضر ومذكرات ومراسلات)[٢٨]، و"التقارير السنوية المختصرة عن إبحار سفن الأسطول فى عام ١٨٨٨"[٢٩]، و"التقارير السنوية لإبحار سفن الأسطول فى عام ١٨٨٩"[٣٠].

وتقدم سجلات وتقارير الملاحة لسفن شركة "الأسطول التطوعى"، التى ذكرناها من قبل، للباحثين معلومات مثيرة عن البلدان والموانئ التى زارتها، والأحداث التى تجرى فيها. ومن هذه التقارير يجب أن نذكر: "معلومات عن إبحار وأماكن وقوع سفن الأسطول التطوعى. عام ١٨٨٦"[٣١]، و"معلومات عن إبحار

وأماكن وقوع سفن الأسطول التطوعى من ٢. ١٠ ١٨٨٧- ١١. ٢. ١٨٨٨"[٣٢]، و"معلومات عن إبحار وأماكن وقوع سفن الأسطول التطوعى. عام ١٨٨٨"[٣٣]، و"تقارير ومحاضر مختصرة عن نشاط الأسطول التطوعى فى ١٨٧٨- ١٨٨٨، و١٨٩١- ١٩٠١"[٣٤].

نجد امتدادا للمعلومات عن الملاحة فى أعالى البحار لسفن الأسطول الروسى، التى تزور موانئ مصر وتمر عبر قناة السويس فى المجموعة الفرعية ٢ لنفس المجموعة الوثائقية ٤١٧ المعنونة "هيئة الأركان البحرية العامة"، والتى تعبر وثائقها عن خبرات عملية هائلة للأسطول البحرى العسكرى الروسى، وتقدم باستمرار كل جديد حتى نشوب الحرب العالمية الأولى. نجد ذلك فى ملفات ٨٤٦ "تقرير عن فحص وتفتيش القارب الحربى "كوبانيتس" العائد من الملاحة خارج البلاد عام ١٩٠٥"، والملف ١٠٤٨ "معلومات عن القارب الحربى الملاحى "دونيتس" من ٢٢ يونيو ١٩٠٦ حتى ٢٩ سبتمبر١٩٠٧"، وأيضًا الملفات ١١٨٢، ١١٩٨، ١٢١٢، ١٢٣٨، ١٢٦٦، ١٢٧٨، ١٢٨٤، ١٢٨٥، ١٢٨٦، ١٢٨٧، ١٢٩٩ وغيرها.

بالإضافة إلى القرارات الخاصة بالمسائل الفنية البحتة والمهنية، يقوم قباطنة السفن بتسجيل الأحداث التى تجرى فى بلدان الرسو بما فيها الأحداث السياسية، لضرورة أخذها فى الحسبان لتقدير الإبحار فى أعالى البحار. ناهيك عن أن الوجود فى بؤر النزاعات، كان لا بد أن تستخدمه بطرسبرج لمعرفة وتوضيح الأوضاع فى النقاط "الساخنة". ففى مصر كان متوقعًا ومنتظرًا احتدام الأوضاع مسبقًا، لذلك كما ذكرنا سابقًا عن مهمة العقيد "سولوجوب"، تم إرسال سفينتين حربيتين هما "الفارس"، و"إيريكليك". تتحدث تقارير قبطانى هاتين السفينتين الروسيتين عن مدى أهمية المعلومات المسجلة عن الأحداث فى سجلات وتقارير

السفينتين. ففى تقرير قبطان السفينة "إيريكليك" (المؤرخ فى ٨ أغسطس)، والذى وصل إلى شواطئ مصر فى بداية شهر أغسطس بعد قصف الإسكندرية مباشرة، يقول: "فى صباح آخر، وفى الفجر طلبت المرشد البحرى، لكنه لم يجئ لأن الجنرال سيمور قد حظر دخول السفن إلى البوغاز حتى يعبر فى قناة السويس كل وسائل النقل وعدد السفن الحربية المعروف (المحملة بجنود الإنزال). فى الساعة السابعة صباحًا أرسلت إلى بورسعيد ضابط الملاحة المقدم "تشيتيركين"، وكلفته باستكشاف إمكانية الدخول إلى البوغاز، ومقابلة قنصلنا السيد برون، ومعرفة إذا كان هناك مكانٍ خال بالميناء. فى الساعة العاشرة صباحا وصل على سفينة بخارية القنصل ج.برون، وفى الساعة الحادية عشرة والنصف دخلت البوغاز....." (٣٥).

ثم يستمر قائلاً: "فى ٨ أغسطس وفى الساعة الثالثة صباحًا تلقى القنصل برون من الكونتر- أدميرال الإنجليزى "جوسكين" 'إعلانًا رسميًا بأنه عملاً بأمر الخديو، سيتم إشغال قناة السويس بالقوات الإنجليزية لحماية القناة من أى أعمال محتملة من المتمردين. عقب ذلك استقبلت أيضًا رسالة أخرى من المقدم "جوسكين" يعلمنى فيها بأن بورسعيد ستحتل بالجنود الإنجليز، وهو ما تم تنفيذه فى الخامسة صباحًا، وتم أسر مئتى جندى من الحامية المحلية، التى تركها عرابى باشا. أما الثلاثمئة شخص الذين بقوا، والضباط ونصف سكان الحى العربى، والعمال العرب والشغالون عند الأوروبيين فقد اختفوا لحين تحسن الأحوال. وفى هذه الأثناء بدأ محافظ بورسعيد إسماعيل باشا حلمى فى ممارسة واجباته، وكان عرابى باشا قد عزله، وظل يعيش على ظهر سفينة إنجليزية لمدة أربعة أسابيع قبل ذلك اليوم (٣٦).

يستمر قبطان الباخرة الحربية فى الكتابة فيخبرنا: إنه فى الساعة الخامسة صباحًا احتل قائد البارجة الإنجليزية "أيريس" بفرقة مسلحة مبنى إدارة قناة السويس، على الرغم من الاعتراض الرسمى لمديرها "دى جافارى"، الذى أعلن أنه

لن يترك إدارته حتى لو استخدموا القوة، وأضاف: ولو وصل الأمر للاشتباك بالأيدى، وهو ما استخدمه الإنجليز فعلاً بطريقة مهذبة. بعدها خرج "دى جافارى" من الإدارة، وأعطى أمرًا بعدم إعطاء المرشدين البحريين للسفن العابرة للقناة(٣٧). أخبرنى "جورا" بأنه بعد ذلك، فى الساعة السادسة، دخلت أول سفينة ناقلة للجنود، وبعدها تقاطرت كل خمس دقائق السفن الحربية الأخرى. وبعد ساعة، دعا الأدميرال سيمور السيد "دى جافارى" لمقابلته، وأخبره بأنه تلقى أمرًا برفع الحراسة عن مبنى الإدارة، وأن له الحق فى الاستمرار فى أعماله المعتادة، ولعله الآن يعترف بحقيقة احتلال الإنجليز للقناة. أجاب مسيو "دى جافارى" بأنه سيخبر تلغرافيًا "دى ليسيبس" فى الإسماعيلية بكل ما جرى، فأعطى الأدميرال سيمور موافقته على ذلك كما يكتب قائد السفينة "إيريكليك". ولكن عند وصول دى جافارى إلى مقر إدارته، عرف أن خطوط التلغراف أتلفها الإنجليز من الليلة الماضية (٣٨).

طبقًا لرواية "جور" ذهب الأدميرالات سيمور وجوسكينز وويلسلى إلى الإسماعيلية فى منتصف ذلك النهار. كانت الإسماعيلية قد تم احتلالها فجر ذلك اليوم. وقامت السفينة المدرعة بقصف معسكر العرابيين فى "جاويش"، وأجبرت الثوار على الانسحاب.

فى اليوم التالى - ٩ أغسطس- وصل إلى بورسعيد زورق بخارى مصحوبًا بأخبار عن أن "دى ليسيبس" وصل إلى اتفاق كامل بشأن قناة السويس مع الأدميرال سيمور والجنرال ويلسلى، وأنه فى أول فرصة سيسافر إلى أوروبا. ويخبرنا قبطان السفينة "إيريكليك" بأن خمسين سفينة ناقلة للجنود تقل عشرين ألف جندى قد وصلت إلى الإسماعيلية، وأن من بين تلك السفن سبع سفن مدرعة تقل كل واحدة منها ثلاثمئة من جنود الإنزال وعددًا آخر من البحارة.

وفى العاشر من أغسطس، كما يشير كاتب التقرير، أقام المصريون سدًا على ترعة المياه العذبة عند التل الكبير حتى يقطعوا إمدادات المياه عن مدينة بورسعيد التى استولى عليها المحتلون. فى اليوم نفسه وفى الساعة الواحدة ليلاً سُمعت أصوات طلقات أسلحة نارية فى المدينة بالقرب من مكان رسو البواخر عند حاجز الأمواج. نتيجة لذلك تم إطلاق إشارات الخطر، ودخلت إلى المدينة قوات الاحتلال. ثم اتضح أن اثنين من العرب كانا يحملان القمامة من داريهما، فأطلق عليهما جنود دورية إنجليزية النار فأصابوهما. كان جنود الدورية قد ارتابوا فيهما فصرخوا عليهما ولكن لم يردا لعدم معرفتهما باللغة الإنجليزية. وقد أصاب ذلك الحادث الجميع بالاستياء؛ لأنه بالقرب من الدورية كان هناك اثنا عشر جنديًا، وكان بمقدورهم عند الضرورة التعامل مع العربيين بكل سهولة. بعدها، تم وضع الرشاشات الثقيلة فى أماكن كثيرة بالشارع الواسع الذى يفصل بين الحى العربى والقسم الأوروبى فى المدينة. يضيف قبطان السفينة "إيريكليك" هنا: "أنه فى بورسعيد، كما فى الإسكندرية، يشكى السكان مساءً وليلاً من سُكر وعربدة وشجارات الجنود الإنجليز"[٣٩]. فى ليلة ١١-١٢ أغسطس تغيَّر "إيريكليك" موقعها فترسو على رصيف ميناء الإسكندرية. وفى ٢١ أغسطس تظهر الباخرة "إيريكليك" من جديد فى الإسماعيلية، حيث تنتهى الاستعدادات للمعركة الحاسمة مع المتمردين(*). فى الإسماعيلية هناك احساس كبير بعدم كفاية المياه العذبة، التى تُعطى للسفن والقوات بحصص مقننة. يكتب جور: "امتلأت المدينة الصغيرة -الإسماعيلية- بالجنود الذين تم توزيعهم على: شاطئ القناة، الشوارع، الميادين، حول المدينة. وعلى المرسى الوحيد بالمدينة يتم تفريغ جميع أنواع الذخائر ليل

(*) وصف الثوار فى بلد ما بالمتمردين يعكس رؤية كاتب التقرير تجاه الحركات الوطنية ضد التدخل الأجنبى أو ضد الظلم الاجتماعى..أى أنه تعبير نسبى بالنسبة لقائله. (المراجع)

نهار، والتى تُنقل بدورها على عربات نقل وبالخيول إلى المخازن التى بنيت بطول اثنين ونصف فيرستيا(٤٠) على طريق سكة حديد فرعية تتصل بسكة الحديد الرئيسية المتجهة الى القاهرة.

ارتفعت الأسعار فى الإسماعيلية خاصة على المياه العذبة التى أصبحت تباع فيها الزجاجة بخمسين سنتيمًا. ارتفعت أجور العمال الذين أصبحوا يتلقون أجرًا من الإنجليز قدره عشرة شلنات فى اليوم. وبالقرب من شريط السكة الحديد، وعلى بعد واحد ونصف فيرستيا، بدءوا فى بناء بطارية مدفعية. وحسب رأى مساعد قنصلنا "ملاجفير"، وصل الإسماعيلية ٢٧٠٠ جندى مقاتل على ٧٠٠ حصان و١٠٠٠ بغل"(٤١).

يشير قبطان الباخرة الحربية الروسية إلى المقاومة الصلبة للمصريين خاصة فى الدفاع عن قلعة "الجميل" الواقعة على بعد سبعة كيلو مترات من اللسان الرملى غرب بورسعيد. لقد ارتفعت الروح القتالية لحامية تلك الطابية بفضل وصول عدة مئات من الحمالين إليهم من أهالى بورسعيد الذين رفضوا خدمة السفن الإنجليزية وغادروا ميناء المدينة كاحتجاج على التدخل البريطانى ويقدر عددهم هنا بنحو ٣٥٠٠ فرد. بهذا الصدد يكتب جور أن التدابير التى أخذها الإنجليز قد ضمنت الأمن فى المدينة فى الوقت الحالى، ولكن فى ضوء احتمال وقوع هجوم مفاجئ من المصريين الموجودين فى طابية الجميل والذين يقدرون بألف ومئتى جندى؛ فإن زورق مدفعية يخرج ليلاً كل يوم ليقف فى عرض البحر، على بعد ثلاثة كيلو مترات غرب بورسعيد، كى يغطى بالنيران شريط الأرض الضيق بين بحيرة المنزلة والبحر المتوسط فى حالة التحرك المفاجئ للقوات المصرية نحو بورسعيد. يدافع عن المدينة ٦٠٠ بحار إنجليزى وجندى من مشاة البحرية، والذين تعضدهم نيران المدفعية السريعة من الفرقاطات الحربية الراسية على المرسى فى البحر.

وعدا ذلك نقل الإنجليز اثنين من التحصينات الميدانية الى غرب المدينة(٤٢). وينهى كاتب ذلك التقرير روايته عن بورسعيد وقلعة الجميل فى تلك الأيام العصيبة من شهر أغسطس، وعند اقتراب نهاية أحداث التدخل البريطانى. يشير الكاتب: "انتهت العمليات العسكرية الناجحة للجيش البريطانى فى ٣٠،٣١ أغسطس باحتلال القاهرة وأسر زعماء الثورة الرئيسيين، عدا محمود سامى باشا الذى أسعفه الوقت ليختفى فى الصعيد، مما أدى فى نهاية المطاف إلى النهاية الفعلية للثورة. فى الوقت الحاضر هناك استعادة كاملة لأمن الأوروبيين الذين يعيشون فى مصر، ولكن يظل السؤال قائمًا، لمدة قصيرة من الوقت، حول عدم الاعتراف بسلطة الخديو من قبل أماكن قليلة مثل: أبوقير ودمياط وطابية الجميل. ربما استسلم المكانان الأولان، والمكان الأخير فى حالة عدم الاستسلام سيتم قصفه غدا من فرقاطتين مدرعتين وبارجة وقاربى مدفعية، تلك السفن غادرت بورسعيد واتجهت نحو الطابية التى غالبًا لن تبدى مقاومة متميزة. وفى حالة عدم استسلامها ستكون هدفًا جيدًا لرماية تلك السفن التى اختارها الأدميرال "سيمور" لتلك المهمة فقط؛ لأنها لم تحظ بفرصة ممارسة الرماية فى واحدة من العمليات العسكرية التى جرت مؤخرًا(٤٣).

ينخرط بفعالية أيضا فى مراقبة ما يحدث فى مصر قبطان السفينة الشراعية المتطورة "الفارس"، القادم من عدن بعد أن شارك فى إصلاح الباخرة "موسكو" التابعة لشركة الملاحة والتجارة الروسية التى تحطمت. يكتب الكابتن- ليفتنانت "لومن الثانى" فى تقريره المؤرخ ١٨ سبتمبر ١٨٨٢: "خلال الأسبوع الحالى جرت الأمور السياسية فى طريق استعادة الحكومة الشرعية للبلاد، واستسلام القلاع الحربية الأخيرة فى أبوقير ودمياط والجميل، التى قامت حامياتها من أول طلب من الإنجليز بتسليم أسلحتها فى عقب تسليم باقى الجيش المصرى لأسلحته، ذلك الجيش الذى تم القضاء عليه تماما بأمر من الخديو فى ١٠ سبتمبر لتمرده على الخديو.

يتم السماح للرتب الدنيا فى حالة تسليم أسلحتهم بالذهاب الى بيوتهم والتمتع بالعفو الشامل، أما الضباط فيُقدمون إلى المحاكمة، وتم تشكيل لجنتين لهذا الغرض، أولاهما بالقاهرة والثانية بالإسكندرية"(٤٤).

يؤكد كابتن السفينة "الفارس"، أنه بعد انتهاء الحملة الحربية تم تعيين إدارات جديدة للنقاط الرئيسية فى مصر، خاصة عند محطات السكك الحديد بين القاهرة والإسكندرية، التى فُتحت أمام حركة الركاب، وتم احتلالها بواسطة حاميات صغيرة من الإنجليز، والتى ستبقى غالبًا حتى إقرار نظام جديد لإدارة البلاد وتنظيم الجيش من جديد. وفى الإدارة الجديدة لن يكون هناك دور مهم "للمصريين الأصليين، لأن كل المناصب المؤثرة تم شغلها بالشخصيات المرضى عنها من قبل القنصل العام الإنجليزى مستر "ماليت". أما الجيش، فحسب تعبير الأدميرال هوسكينز، ستتم قيادته من قبل ضباط شركس ذوى رواتب جيدة. ومن المقرر أن يصل إلى الإسكندرية خلال أيام الشخصية الشهيرة "بيكر" باشا، لتنظيم سلك الضباط من جديد ولتأسيس البوليس أيضًا"(٤٥).

ويتابع الكابتن- ليفتنانت ملاحظاته، ليقر أن كل تلك الإجراءات والتدابير فى المستقبل سوف تؤدى إلى القضاء التام على استقلال مصر الذاتى، وأنه سيتم استخدام الخديو كوجه ظاهرى له، ولكن ستظل مصر عمليًا لسنوات طويلة مجرد مستعمرة للإنجليز لا أكثر. ولن يجدوا صعوبة خاصة فى حكمها، خاصة أن المقاومة الضعيفة التى أبداها فى الحرب الحزب الحاكم سابقًا، أظهرت بوضوح عدم الاستعداد الكامل وعجزه فى صراع الصعوبات السياسية.

يذهب كاتب التقرير، بعد ذلك، إلى توصيف أحد أهم مشكلات ذلك الوضع، وهى حيادية وموقع ونشاط شركة قناة السويس، ويقول كشاهد عيان: "من الواضح أن الخضوع التام للسكان، والذى بدا فى عدم وقوع حادث واحد من الفوضى، مما

سمح للإنجليز - بعد استعراض جيشهم أمام الخديو في القاهرة- بإرسال القوات والسفن الفائضة إلى بلادهم وتقليص نفقات إقاماتهم العسكرية، والتي حسب تقدير إحدى إدارات شركة قناة السويس قد وصلت إلى ٩٥ ألف جنيه إسترليني، وهو مبلغ ضخم، لكنه لا يمثل خسارة للخزانة البريطانية. حسب الشائعات التي تتردد بين الشخصيات المتنفذة هنا، أعطت الحكومة الإنجليزية نفسها الحق في استخدام الدخل المتحصل للخديو من قناة السويس لمدة معينة، وهو ما يقدر بثلاثة ملايين فرنك في السنة، أي نحو ١٥% من دخل القناة حسب الاتفاق الذي وقعه إسماعيل باشا عند حفر القناة(*). بجانب تعويض النفقات الزائدة على الحرب، سيعطي ذلك للحكومة الإنجليزية فوائد جمة أخرى، فسيسمح لها بمراقبة أعمال إدارة شركة قناة السويس، وسيؤدي ذلك إلى التأثير في إدارة القناة. سيفضي التنازل، الذي قدمه الخديو - حسب امتياز الشركة والمتمثل في إعطاء الشركة الحق في الملكية العامة لشواطئ القناة والأراضي المتاخمة للقناة- إلى إعطاء الحكومة الإنجليزية إمكانية لعب دور مهم في مستقبل القناة بوضع الخطوات الأولى في تنمية نفوذها بشكل تدريجي حتى الاستحواذ النهائي على القناة، دون اقتراف أي عمل عدائي تجاه الدول الأوروبية الأخرى(٤٦).

(*) لم يوقع إسماعيل باشا عقد اتفاق حفر قناة السويس وإنما الذي وقعه محمد سعيد باشا (عم الخديو إسماعيل) وذلك في ٣٠ نوفمبر ١٨٥٤ مع فرديناند دي ليسيبس الفرنسي. وقد طرح دي ليسيبس أسهم شركة القناة في ٥ نوفمبر ١٨٥٨ وخصص لمصر ٤٤% من الأسهم (١٧٦٦٤٢ سهمًا من إجمالي ٤٠٠ ألف سهم) باعها إسماعيل في ١٨٧٥ لإنجلترا مقابل أربعة ملايين جنيه إسترليني لتسوية بعض الديون. كما نص الاتفاق على أن تحصل مصر على ١٥% من أرباح القناة عند تشغيلها وقد تنازل عنها إسماعيل في ١٨٧٩ للبنك العقاري الفرنسي مقابل ٢٢ مليون فرنك لتسديد الديون. وأصبحت مصر لا تملك شيئًا في القناة. (المراجع)

وفى نهاية تناوله لمسألة سحب القوات الفائضة البريطانية إلى وطنها، يصف قبطان السفينة الشراعية المتطورة "الفارس" تفصيليا ميناء الإسكندرية، ويسرد مليا خصائصه الفنية. يكتب قائلاً: "من التسهيلات الضخمة المقدمة من ميناء الإسكندرية لإنزال القوات العسكرية، سنجد إمكانية دخول السفن البخارية بغاطس حتى ٢٥ قدما إلى الرصيف الداخلى الذى يسير بمحاذاته قضبان للسكك الحديد، وضعها إسماعيل باشا، مهيئة لنقل البضائع التجارية، لتصل الميناء بمحطة السكك الحديد الرئيسية. هناك أيضا الأرصفة وحواجز الأمواج فى الميناء، حيث تصبح أماكن الوقوف لسفن الأسطول العديدة هادئة تماما. على الرصيف هناك العديد من المحال الحديدية، وبها مخازن للفحم والعلف والأطعمة ومختلف المواد الحربية المهمة. فى تلك الظروف الجيدة لن يتمنى الإنجليز أكثر من ذلك. لذا لم يكن نزولهم إلى الشاطئ يحتاج أى تدابير خاصة. وبموازاة الرصيف، تستطيع عشرين سفينة الرسو فى وقت واحد. كان سبب بطء ترحيل القوات، مع وجود تلك الإمكانات، عدم كفاية القطارات لنقل القوات من داخل مصر[٤٧].

فى الأرشيف الحكومى المركزى البحرى العسكرى، نجد مصدرًا رائعًا آخر. من بين تلك الكمية اللا نهائية من المواد الوثائقية التى لم يتم استخدامها بعد للأغراض العلمية، فى مقدمتها "السجلات التاريخية" للسفن الحربية وليس معروفا لنا، فى أى نوع من السفن وجدت تلك السجلات التى أظهرت إمكانات قباطنها وضباطها فى تسجيل، ليس أوامر القيادة القادمة من أعلى، بل وكل الأحداث المهمة ومنها ذات الصفة العسكرية والسياسية. هنا يصبح هؤلاء شهود عيانٍ للأحداث التى تجرى أثناء إبحارهم الطويل خارج روسيا. فعندما يزور قباطنة تلك السفن مختلف القارات والبلدان والموانئ والمدن، تصبح لديهم إمكانية فريدة لمشاهدة وتقييم المعلومات الفذة عن هذه أو تلك من الظواهر الطبيعية وإرسال معلومات أول مشاهد لها إلى مواطنيهم والتشاور بشأنها.

إنهم عادة، ما يكملون الوقائع المعروفة بتفاصيل جديدة مثيرة من موقع المراقب غير المشترك فيها، ويتعرفون على آراء شهود العيان لتلك الأحداث المعروفة مباشرةً دون وسيط. وهذا بالضبط ما حدث بالنسبة للسفينة الشراعية المتطورة "الفارس"، فمن "السجل التاريخي"(٤٨) أضفنا إلى معرفتنا أنه بعد هدوء ثورة أحمد عرابى باشا فى عام ١٨٨٢، "تم العثور على كميات ضخمة احتياطية من القذائف والذخائر مملوكة للحكومة المصرية فى إنجلترا.. يظهر ذلك ببلاغة أنه لم تكن هناك أسباب تسمح للأسطول الإنجليزى بالحصول على هذا النجاح الكامل بلا عقاب. يبدو أن وراء ما حدث، فى الأساس، عدم حزم سلك الضباط المصريين والتعليم العسكـــرى غيـــر الكـــافى وقلة التأهيل العسكرى للرتب الصغيرة. ونحن لا ننكر شجاعة هؤلاء الجنود، التى أظهروها فى بداية المعركة بدافع الحمية الدينية، والتى كانت قدوة لضباطهم وعرابى باشا نفسه، فلم يغادروا بطاريات المدفعية أثناء عملها. وهى شجاعة لم ينكرها لهم حتى الإنجليز". (ورقة ٨٩).

فى نفس "السجل التاريخى" للسفينة "الفارس"، سنجد الكابتن- ليفتنانت "ليمان الثانى" يلاحظ "النظام" الذى طبقه المحتلون فى مصر، خاصة فى الإسكندرية: "لم يتم ذلك بدون إعدام بعض رميًا بالرصاص بشكل علنى، تلك الإعدامات نُفذت بشكل غير إنسانى بالمرة، ولم يكلف الإنجليز أنفسهم عصب أعين المحكوم عليهم بالإعدام، وقاموا فقط بربطهم وجهًا لوجه فى شجرة بقصر القناصل وقاموا بدفعهم فى ظهورهم حتى كادوا يقعوا فى مرمى دفعة طلقات بنادق الفصيلة. (أوراق ٩١ على ظهر الورقة، ٩٢)

سنجد الوثائق فى المجموعات المتكاملة للأرشيف الحكومى المركزى للأسطول البحرى العسكرى، تعكس احتفالات افتتاح قناة السويس. فى ملف ٣١٠١ المعنون "عن إيفاد شخصيات من وزارة البحرية فى مهمة للمشاركة فى افتتاح قناة السويس

(١٧ سبتمبر – ٣ نوفمبر١٨٦٩)". يخبرنا الملف بأن الخديو إسماعيل باشا، عبر ناظر الخارجية نوبار باشا، أرسل إلى العلماء والمختصين الروس دعوة لـــ (عشرين شخصا) لحضور افتتاح قناة السويس. تتضمن الدعوة التكفل بمصاريف السفر والإقامة فى مصر، التى ستكون على حساب حاكم مصر(٤٩). تقبل الجانب الروسى الدعوة ولكنه قرر إيفاد وفد مكون من ٥-٦ أشخاص، من بينهم منشئ أحواض السفن الجديدة فى كورنشتادت المهندس الجنرال- ليفتنانت بارون "تيزينجاوزن"، ونائب مدير قسم الهيدروجرافيا فى وزارة البحرية الكونتر-أدميرال "جوركوفينكو". فى ٣ نوفمبر ١٨٦٩، وصل "جوركوفينكو" وغيره من المدعوين، الممثلين للأوساط الاجتماعية والتجارية، إلى بورسعيد على الباخرة "الجنرال كوتسيبو". لقد شاركوا فى المراسم الاحتفالية بمناسبة افتتاح قناة السويس(٥٠).

تحتفـــظ المجمـــوعات الأرشيفيـــة البحـــرية، فى سان بطرسبرج، بوثائق المباحثات بين رئاسة الشركة الروسية للملاحة البخارية والتجارة، وبين إدارة شركة قناة السويس حول إعطاء قطعة أرض على شاطئ قناة السويس لبناء مقر إدارة ومخازن للشركة الروسية. فى إحدى تلك الوثائق، نعرف "إن الشركة الروسية للملاحة البخارية والتجارة استلمت بالفعل من المسيو دى ليسيبس اقتراحًا بتملك مكان فى بورسعيد، أسوة بشركة "ميسيجرى إمبريال" ووزارة البحرية الفرنسية... الفائدة من ذلك التملك غير مشكوك بها، حيث إن بانتهاء بناء خط السكة الحديد فى بلادنا الواصل بين الشمال والجنوب، سيكون هذا الخط والقناة معًا طريقًا لكل العلاقات التجارية مع الشرق. لذا فمن المحتمل للغاية أن تحتاج الشركة إلى أماكن للتخزين فى بورسعيد والسويس لتلبية احتياجات عمليات الترانزيت والتخزين الضخمة وللوقود وما شابه. نتيجة لهذا التصور، قام مجلس إدارة الشركة الروسية بتخصيص ٥٠ ألف روبل أو ٢٠٠ ألف فرنك لدفعها إلى شركة قناة السويس مقابل قطعة الأرض الواقعة على حافة حوض ميناء بورسعيد، المقدرة

بأربعة آلاف متر مربع، بشرط أن تعطى الحكومة المصرية وثيقة تثبت أن تلك القطعة معطاة لنا بحق التملك الكامل والأبدى مع جميع حقوق الملكية الأخرى" وزارة الخارجية الروسية(٥١).

يقدم هذا الأرشيف أيضًا معلومات مثيرة جدًا عن موانئ مختلف البلدان. ولهذا تم تخصيص المجموعة الوثائقية المتكاملة ٨٩٨ ومجموعتها الفرعية١ والملف ٤٧ المعنون "معلومات قنصلية عن موانئ سينوب وبورسعيد والبصرة وغيرها- عام ١٩١١"(٥٢).

بورسعيد: ميناء مهم من الناحية التجارية كنقطة ترانزيت، على الرغم من أن كثيرا من البضائع المجلوبة إليه تجد طريقها إلى ربوع مصر.

تعين الحكومة المصرية رئيس الميناء، بينما الإدارة الصحية للميناء تابعة للجنة الدولية للصحة فى الإسكندرية. وتدير شركة قناة السويس العمل فى بعض الإدارت والمجالات فى المدينة.

تشغل بورسعيد بشكل عام وضعا استثنائيا طبقًا للمعاهدة الموقع عليها فى ١٨ أكتوبر ١٨٨٨(*)، بوصفها أرضا محايدة ولا تحتفظ بأهمية عسكرية خاصة لطرف ما.

لا توجد إحصاءات دقيقة عن عدد السكان فى بورسعيد، الذى يُقدر بنحو ٥٠ ألف شخص تقريبا.

وتركيبة السكان مختلطة.. الأغلبية من العرب أبناء البلاد والزنوج. وهناك سكان من الدول الأوروبية، أكثرهم عددا اليونانيون (عشرة آلاف شخص)، وبعدهم

(*) يشير إلى اتفاقية الأستانة فى ١٨ أكتوبر ١٨٨٨ بشأن حرية الملاحة فى قناة السويس والتى تعرف فى المراجع الغربية باسم اتفاقية القسطنطينية. (المراجع)

الإيطاليون، ثم النمساويون (العرق الغالب فيهم السلافى)، والإنجليز - المالطيون، والفرنسيون، وأخيرًا أعداد قليلة من الألمان والإسبان والروس.

لكل البلدان الأوروبية تقريبًا ممثلون دبلوماسيون فى بورسعيد. أما القناصل الحكوميون الموجودون بها، فهم: الإنجليزى (قنصل عام)، والفرنسي، والإيطالى، والنمساوى والإسبانى واليونانى.

لا توجد أحواض لرسو السفن فى بورسعيد، ولها بوغاز واحد محمى برصيف كاسر للأمواج بطول اثنين ونصف كيلو متر. وأماكن الرسو ١٦، عليها ٢٢ شمندورة، ١٤ منها فى آسيا وثمانية فى إفريقيا. وعمق الشاطئ تسعة أمتار ونصف متر.

ولبورسعيد ثمانى ضفاف مرصوفة:

أ- كورنيش فرانس-يوسف، وطوله ٩٠٠ متر.

ب- كورنيش الحوض التجارى، وطوله ١٢٥ مترًا.

ج- الكورنيش المقابل لمبنى إدارة شركة قناة السويس، وطوله ١٢٥ مترًا.

د- الكورنيش المقابل للأدميرالية الإنجليزية وطوله ١٥٠ مترًا.

هـ- اثنان يقعان فى الشمال والجنوب من حوض شريف وحوض عباس بطول ١٣٠ مترًا، كورنيش عباس بطول ١١٠٠ متر.

وتمتلك شركة قناة السويس خمسة أوناش بحرية بخارية عائمة، بقوة ٦٠، ٣٥، ٢٥، ١٢، ٨ طن.

وتشرف على الاتصالات التلغرافية، فى بورسعيد، شركتان، إحداهما مصرية والأخرى إنجليزية. لا تمتلك المصرية أى كابل من الكابلات التى هى ملك

للشركة الإنجليزية. وتحتفظ مصر باتصالات تلغرافية بالعالم، بشكل أساسى، عبر سوريا. وتتجه التلغرافات المرسلة من بورسعيد عبر القاهرة إلى العريش، ثم تُنقل إلى بيروت. أما التلغرافات المرسلة إلى موانئ البحر الأحمر، فتنقل عبر الكابل إلى بريم وعدن.

يصل نطاق التلغراف المصرى إلى سواكن بالسودان، وبعدها تُنقل التلغرافات إما عن طريق الكابل العثمانى وإما عن طريق الكابل الإنجليزى.

وتمتلك شركة التلغراف الشرقية الإنجليزية كابلاً، يصل بين بورسعيد والإسكندرية مباشرةً، ومن الإسكندرية تتجه شمالا خمسة كابلات مملوكة لتلك الشركة. ثلاثة منها تتجه إلى جزيرة مالطا، وواحد إلى قبرص، وآخر إلى جزيرة كريت.

وبجانب شركة البريد المصرية، توجد أيضا شركة فرنسية للبريد، وتمتلك شركة قناة السويس حوضًا واحدًا عائمًا للسفن، طوله تسعون مترًا وحمولته ثلاثة آلاف طن.

ولا توجد فى بورسعيد أدميرالية، بما كل ما يعنيه ذلك المصطلح. تُجرى الإصلاحات الضرورية للسفن فى الورش الضخمة لشركة قناة السويس، وفى الورشة الميكانيكية للبيت التجارى دوروفى "*Dorovi et C*"، حيث يُفضل اللجوء إلى الأخيرة لسرعتها ورخصها نسبيًا. فى حالة عمل إصلاحات كبيرة وجوهرية، يتم اللجوء إلى ورش شركة قناة السويس التى تستطيع القيام بذلك بسهولة.

يمكن الحصول على كل ما تحتاجه السفن من أنواع الإمدادات المختلفة، وبنوعية جيدة. يتم الإمداد بالمياه عبر أنبوب ممتد من نهر النيل، ويتم ترشيح المياه بأجهزة خاصة. نوعية المياه جيدة. ويتم السماح بالمرور للسفن بواقع فرنكين للطن الواحد.

لا توجد مخازن حكومية للفحم، ولكن بضعة مخازن خاصة، كلها إنجليزية عدا واحد ألمانى. حتى وقت قريب، ولبضع سنوات، كانت السفن الألمانية تستخدم الفحم الإنجليزى، ولكن عندما أدرك الألمان الفائدة من استخدام فحمهم، بنوا مخزنهم الخاص. فى الوقت الحاضر يستخدم الألمان حصريًا الفحم الخاص بمخزنهم. وتستخدم السفن الروسية الفحم الإنجليزى منذ افتتاح القناة. ولا توجد فى بورسعيد ولا فى مصر مناجم للفحم.

فى عام ١٩١٠ تم نقل ٢٢٢٧٧٠ طنًا من الفحم إلى بورسعيد بمبلغ ١٧٦١٤٣ فرنكًا (بما يساوى ١٧٢١٦٩٨ روبل). وقامت شركة بريطانية، تملك بواخر مخصصة لذلك الغرض، بنقل تلك الكميات من الفحم. يمثل محافظ المدينة السلطات المدنية فيها (٥٣).

ولا تحتفظ المجموعات الوثائقية للأرشيف المركزى الحكومى للأسطول البحرى العسكرى بالوثائق البحرية العسكرية فقط، بل بوثائق جميع مجالات العلوم والتقنية والحياة الاجتماعية أيضًا، لكن كلها بدرجة ما على علاقة بالمواضيع البحرية. على سبيل المثال تُعد مذكرات الأدميرال إ.أ شيستاكوف، الذى كان يدير وزارة البحرية فى الثمانينيات من القرن التاسع عشر، مصدرًا ثمينًا ومهمًا لتلك المعلومات. فى تلك المذكرات المعنونة "نصف قرن من حياة غير عادية" نجد شخصية أ.م.كومانى صديق الأدميرال والذى عمل فى القاهرة فى ذلك الوقت عضوًا فى المحكمة المختلطة فى مصر. تلك المحكمة تعد واحدًا من أكثر المواضيع المعقدة فى تاريخ مصر الحديث.

بدأ الإصلاح القضائى أو المحاكم المختلطة، الذى قام بمبادرة من إسماعيل باشا ونوبار باشا، العمل فى بداية السبعينيات من القرن التاسع عشر. كان الخديو إسماعيل الطامح لوضع مصر فى وضع مساوٍ "للحفلة الأوروبية" التى أقامها، قد

قام باتخاذ إجراءات تحد من حقوق المحاكم القنصلية والمحاكم الشرعية، فأدخل التشريع الأوروبى إلى الأراضى المصرية. وبعد العديد من المشاورات مع ممثلى الدول الأوروبية فى الفترة ما بين ١٨٦٧ و١٨٧٢، تم تكليف المحامى الفرنسى "مونورى" بإعداد قوانين القضاء المختلط، والتى تمت مباركتها من الدول الموقعة على اتفاقات القسطنطينية. فى العام نفسه تم إصدار القوانين التالية: المدنى، التجارى، البحرى، إجراءات التقاضى، الجنائى والإجراءات الجنائية، وقوانين المحاكم المختلطة. كانت تلك القوانين عبارة عن نسخة مقلدة من القوانين الفرنسية، وأكثر اختصارًا وعموميةً من الأخيرة، وفى أحيان ناقصة وبها الكثير من الأخطاء والسهو.(لتفصيل أكثر انظر: ص ٢٧٢- ٢٩١ من المذكرات).

وقد تبادل أ.م. كومانى مع الأدميرال المتقاعد إ.أ.شيستكوف الحديث عن ذكرياته وتأملاته عن العمل فى المحاكم المختلطة المصرية من الداخل. كان الحديث مثيرًا وغير مألوف بالنسبة للأدميرال المتقاعد، والذى لم يتعرف على الواقع المصرى من قبل، لدرجة أنه ذكره فى مذكراته (أنظر بالتفصيل فى ج.أ.نيرسيسوف. ص. ١٤٥- ١٥٠). يكتب شيستكوف: أسعدنى، ما عطل مسيرة حياتى الناضجة فى "فيسبادن"، وهو حضور صديقى أ.م. كومانى القادم من مصر. بعد أن نفض صديقى عن عقبيه تراب أرض الفراعنة ، تهيأ لى أنه حساس للغاية من أى عقبة تقابله. لا أستطيع بالطبع لومه بسبب حساسيته الزائدة، ولكن قراراته المتسرعة بشأن ترك مكان عمله تثير فىَّ سخط الصديق. حدثت تلك القضية بسبب قلنسوة للرأس، كما سترون من القصة التالية، وبالطبع أيضًا شخصية "كومانى". تلك القضية مشوقة كدليل على النظام الفريد فى مصر المعشوقة من الغرب. أحيانًا يؤدى التمعن فى تفاصيل المصادفات الصغيرة إلى نظرة ثاقبة لمصائر الناس. ومثلما تنظر من خلال الميكروسكوب، فقد يغير تمامًا "الجزء" من نظرتك المجردة إلى "الكل"، وكم من رجال عظماء يتراءون لنا فى غلاف فكاهى!

تمتلك كثيــر مــن الــدول الأوروبية فى الــدول الشرقية، ما يسمى "حقوق الاستسلام"، وبمقتضى تلك الحقوق يحتفظ بالسلطة القضائية على التابعين للدول المسيحية قناصل تلك الدول. تستبعد بنفسها الشريعة الإسلامية، القائمة على القرآن، إمكانية محاكمة المسيحيين بقوانين تركيا ومصر. يمكننا القول إن الخديو تاجر بمعنى الكلمة، ولا يوجد تاجر يمكن مقارنته بحاكم طبعه التجارة. لقد قدر الخديو أن تقديم رشاوى للقناصل، فى حالات المخاصمات القضائية بينه وبين ذوى التابعية الأوروبية، سيكون أكثر كلفة له. وقد كانت النزاعات مستمرة، لأن الخديو المالك الوحيد لضيعة مصر، فى عهده أصبحت البلاد مجرد محل تجارى كبير يحمل يافطة "إسماعيل باشا"، ولكن دون إشهار للشركة. لقد قدر "الخبيث" أنه من الأرخص له أن يكون لديه قضاة دائمون بدلاً من أن يقدم الرشاوى للموظفين نصف الدبلوماسيين الواقعين دائما تحت سيطرة حكوماتهم. تلك هى بداية، ما يسمى بالإصلاح القضائى فى مصر الذى فكر فيه نوبار باشا وزير الخديو الحاذق ذو الأصل الأرمنى. ومن ضمن وسائل الراحة التى كفلها الخديو لنفسه، تفتق فكره بمساعدة من قضاته الذين أجزل لهم العطاء، أن يصدر قانونًا يعطيه الحق فى فرض إتاوات على الأجانب. ولأجل استبدال شروط الاستسلام وفى الوقت نفسه كفالة نظام قضائى للأجانب، ابتكر نوبار باشا نظامًا قضائيًا مختلطًا من درجتين، أغلب قضاته من الأجانب. وافقت كل الدول على ذلك عدا فرنسا التى أدركت أضرار النظام الجديد. وقامت حكومات تلك الدول بتعيين أشخاص ليمثلوا الغرف التجارية، ومن روسيا وبأمر من "إيجناتييف" قنصلنا فى القسطنطينية، تم إرسال "كومانى" العاطل سابقًا العارف جيدًا بلغات وعادات الشرق، ليكون عضوًا بالمحكمة القضائية العليا. وطبقًا لاتفاق مسبق كان مقررًا أن يقوم القضاة بإعداد القانون على أساس قانون نابليون، وإعداد لائحة داخلية لأنفسهم. لكن قبل افتتاح المحكمة، وقعت حادثة تمس بشكل مباشر اللائحة الداخلية. حيث إن الخديو يعلم أن

المظهر فى الشرق يعطى غنى للجوهر، فقد فكر أن يجعل القضاة الجدد يلبسون زى الموظفين المصريين، ووافق على قراره القضاة الإيطاليون، الذين يشتركون فى صفقات تجارية منذ وقت طويل مع مصر. اقترح الخديو أن يحمل القضاة سمات معينة لهيبتهم، فأجابه شريف باشا- الذى أخذ مكان نوبار- بأن ملابس القضاة الفرنسيين هى الأكثر احترامًا وملائمة، وحيث إن القانون الفرنسى هو أساس القانون الجديد. لكن القاضى الإيطالى، بصفته كاثوليكيًا مخلصًا، تذكر أن غطاء الرأس لدى القضاة الفرنسيين يشبه ذلك الذى لدى رجال الدين اليونانيين، وثار فى تعصب واضح قائلاً: من الأفضل أن يرتدوا الطرابيش. تحمس الخديو فى سرور لتلك الفكرة وتمنى أن يبـدو القضــاة أمام الشعب كمواطنيهم. فى الشرق لا يستطيع ذوو الجنسية المسيحية أن يظهروا فى المكاتب الحكومية بالطربوش؛ لأن الطربوش يعبر عن رمز للقومية، كغطاء الرأس "كوكارد" لدينا فى روسيا. تم توقيع مرسوم من الخديو بمواصفات الزى الرسمى للقضاة، وألزامهم بارتدائه فى حفل الافتتاح الرسمى للمحكمة المختلطة. وهكذا كتب "كومانى"، بإحساس استقلالية القاضى وأيضًا من وحى إخلاصه العائلى، أنه لن ينفذ أمر الخديو لأن اتفاقية القضاء المختلط لا تتضمن أى شىء خاص بزى القضاة. فى الوقت نفسه، وافق رفاقه من القضاة الآخرين - المرتبطين بدرجة أو بأخرى بصفقات الخديو- على ذلك، قد يكونون اتفقوا معه نظريًا ولكن نظروا إلى الموضوع عمليًا بوجه آخر.

وبالمناسبة وبخصوص نظرة الخديو التجارية، من الضرورى ملاحظة أن أوروبا التى تنفى رشوة الموظفين فى بلادها، لا تنظر بحزم إلى ذلك الداء فى الشرق. لقد اشترى الخديو موافقة الدول على اختصاصات الخديو الجديدة بسبعة ملايين ليرة تركية، ولقد خضع كل من "ديكاز" (رئيس وزراء فرنسا- المؤلف) و"إيجناتيف" لحسابات الخديو. لقد كان قنصلنا "ليكس"، وهو حسى كالفيلسوف اليونانى إبيقور، إلى جانب الفرعون تمامًا الذى يستطيع إرضاء كل أنواع الضعف

الإنسانى. وحتى أصحاب التيجان، خضعوا لنفوذ ثروة الخديو. لقد استدان بجلانتيمو الثانى "*pegalantimo II*"، المحتاج دائمًا إلى النقود، منه أثناء مباحثات إنهاء شروط الاستسلام سبعة ملايين فرنك.

أصـــر كومـــانى علـــى موقفه، وكان يجب أن يستقيل أكرر؛ فإن إخلاصه لعائلته، وذكريات عداء الأسلاف للأتراك، دفعاه إلى الإصرار، ولكنه كإنسان من أحسن من وطأ أرض الشرق، أدرك أن المخالفة الأولى للاتفاق لن تكون الأخيرة. وبالفعل كان "كومانى" الوحيد الذى تعلل بالمرض لكى لا يحضر حفل الافتتاح فى زى تركى. أما الخديو، فتمنى انتخاب صديقه الإيطالى نائبًا للرئيس وإجراء الانتخاب سريعًا. لكن الإيطالى نفسه اعترض على ذلك؛ فخروج كومانى من المحكمة يجعل عدد أعضائها غير كاف لإجراء الانتخابات. وهكذا، وبسبب المشاعر المهتاجة المدفوعة بمحاولات الخديو، بجانب المرض بسبب الظروف المناخية، والتعود على الراحة، كان على الغريب الرجوع من مصر وعبور نهر ربيكون(٥٤).

المواد، التى قدمناها سابقًا من الأرشيف الحكومى المركزى للأسطول العسكرى البحرى والمتعلقة بمصر، ليست سوى قطرة فى محيط المعلومات التى تحتويها المجموعات الوثائقية المتكاملة. ولا شك، أن رحلة البحث الهادفة فى الوثائق فى اتجاهات التاريخ المختلفة وفى الاقتصاد والسياسة والاجتماع وغيرها، ستؤدى الى اكتشافات جديدة فى طبقات كنوز أرشيفات الوثائق الضخمة التى تستطيع أن تحدث قفزات كبيرة فى الدراسات الخاصة بمصر.

الهوامش

(١) ن.ن.ميكلوخا ماكلاى (١٨٤٦- ١٨٨٨): عالم ورحالة روسى مهتم بالإنثروبولوجيا والثقافات الإثنية، اهتم بجنوب شرق آسيا، وله رحلة شهيرة إلى غينيا الجديدة أثبت فيها عدم صحة النظر إلى سكان تلك الجزر كجنس مختلف عن الجنس البشرى- المترجم.

(٢) أسماء مواقع حربية بحرية وقعت فى البحر الأسود وقت الحروب التركية- الروسية المتتالية، والتى كانت للإمبراطورية الروسية تطمح فيها للمرور إلى المياه الدافئة فى البحر المتوسط – المترجم.

(٣) معركة نفارين البحرية بين الأسطولين التركى والمصرى بقيادة إبراهيم باشا وبين أساطيل روسيا وإنجلترا وفرنسا فى عام ١٨٢٨، فى تلك المعركة تم القضاء على الأسطولين المصرى والتركى بعد معركة استمرت ثلاث ساعـــات، وكانت نتيجتها حصول اليونان على استقلالها من للإمبراطورية العثمانية- المترجم.

(٤) لوصف أكثر تفصيلاً للأرشيف الحكومى المركزى للأسطول العسكرى البحرى، أنظر فى الدليل "وصف ملفات أرشيف وزارة الحربية. مجلدات ١-١٠، سان بطرسبرج، ١٨٧٧- ١٩٠٧.

(٥) المجموعة الوثائقية المتكاملة ٤١٧، المجموعة الفرعية ١، ملف ٥٤، عام ١٨٨٥، ٢٥٨ ورقة.

(٦) المصدر نفسه، ملف ٦٦، ١٩٨٥، ١٢٤ ورقة.

(٧) المصدر نفسه، ملف ٧٨، عام ١٨٨٥، ٩٧ ورقة.

(٨) المصدر نفسه، ملف١١٤، عام ١٨٨٦، ١١٥ ورقة.

(٩) المصدر نفسه، ملف ٢٠١، ٣٣٣ ورقة.

(١٠) المصدر نفسه، ملف ٢٠٨، ١٨ ورقة.

(١١) المصدر نفسه، ملف ٢٢٨، ١١٩ ورقة.

(١٢) المصدر نفسه، ملف ٣٧٨، ١٩٤ ورقة.

(١٣) المصدر نفسه، ملف ٥٠٥، ١٥٢ ورقة.

(١٤) المصدر نفسه، ملف٥٩٧، ٢٤٣ ورقة.

(١٥) المصدر نفسه، ملف ٢٥٢، ٢٣ ورقة.

(١٦) المصدر نفسه، ملف ٤٨١، عام ١٨٨٠، ٦٠ ورقة.

(١٧) المصدر نفسه، ملف ١٣٥، عام ١٨٨٦، ٨٦ ورقة.

(١٨) المصدر نفسه، ملف ٢٢٧، ١٤٣ ورقة.

(١٩) المصدر نفسه، ملف ٢٢٤، ١٣٣ ورقة.

(٢٠) المصدر نفسه، ملف ٣٨٤، ٤٢٨ ورقة.

(٢١) المصدر نفسه، عام ١٨٨٦، ٨٦ ورقة.

(٢٢) المصدر نفسه، ملف ١٤٨، ٥٣٠ ورقة.

(٢٣) المصدر نفسه، ملف ٢٢٥، ٧٥ ورقة.

(٢٤) المصدر نفسه، ملف ٢٣٠، ١٢٠ ورقة.

(٢٥) المصدر نفسه، ملف ٣٥٢، ١٢٨ ورقة.

(٢٦) المصدر نفسه، ملف ٥٠، ٣٠٦ ورقات.

(٢٧) المصدر نفسه، ملف ٣٠٦، ٢٧٨ ورقة.

(٢٨) المصدر نفسه، ملفان ٣٦٥، ٣٧٣.

(٢٩) المصدر نفسه، ملف ٤٦٥، ٢٢٥ ورقة.

(٣٠) المصدر نفسه، ملف ٥٦٩.

(٣١) المصدر نفسه، ملف ١١٦، ١١٥ورقة.

(٣٢) المصدر السابق نفسه ، ملف ٢٢٢، ١٧٤ ورقة.

(٣٣) المصدر السابق نفسه ، ملف ٣٥١، ١٩٤ ورقة.

(٣٤) المصدر السابق نفسه ، ملف ٤٥٦.

(٣٥) الأرشيف الحكومى المركزى للأسطول البحرى العسكرى، مجموعة وثائقية متكاملة ٤١٠، مجموعة فرعية ٢، ملف ٢١٧٦. ١٦٨ ورقة مكتوب عل ظهرها.

(٣٦) المصدر السابق نفسه ، ١٦٩ ورقة على ظهر الورقة.

(٣٧) المصدر السابق نفسه.

(٣٨) المصدر السابق نفسه ، أوراق ١٧٠، وعلى ظهر ورقة ١٧٠.

(٣٩) المصدر السابق نفسه ، ورقتا ١٧٠،١٧١.

(٤٠) فيرستيا: وحدة قياس طولية روسية قديمة، تقدر بنحو ١٠٧٠ مترًا.

(٤١) المصدر السابق نفسه ، أوراق ١٧٨، ١٨٦، ١٨٦ على ظهر الورقة.

(٤٢) المصدر السابق نفسه. ورقة ٢١٠ على ظهر الورقة.

(٤٣) المصدر السابق نفسه. أوراق ٢١٠ على ظهر الورقة، ٢١١.

(٤٤) المصدر السابق نفسه. ورقة ٢٢٨.

(٤٥) المصدر السابق نفسه.

(٤٦) المصدر السابق نفسه ، أوراق: ظهر ورقة ٢٢٨- ورقة ٢٢٩.

(٤٧) المصدر السابق نفسه ، ورقة ٢٤١.

(٤٨) الأرشيف المركزى الحكومى للأسطول البحرى العسكرى. المجموعة الوثائقية المتكاملة ٨٧٠، المجموعة الفرعية ١، عام ١٨٨٠، ملف ١٣١٨١أ.

(٤٩) المجموعة الوثائقية المتكاملة ٤١٠، المجموعة الفرعية ٢، ملف ٣١٠١، ورقة٢.

(٥٠) المصدر نفسه السابق، أوراق ٣ على ظهر الورقة،١٤.

(٥١) "عن اقتراح وزارة الخارجية الروسية عن التنازل لوزارة البحرية الروسية والشركة الروسية للملاحة البخارية والتجارة عن قطعتى أرض فى بورسعيد ٨ فبراير- ١٥ مارس ١٨٦٩"- المجموعة الوثائقية المتكاملة ٤١٠، المجموعة الفرعية٢، ملف ٣٠٥٣، أوراق ٤، ٤ على ظهر الورقة.

(٥٢) المجموعة الوثائقية المتكاملة ٨٩٨، المجموعة الفرعية ١، الملف ٤٧، ٥٨ ورقة.

(٥٣) المصدر السابق نفسه. أوراق ٢- ٥.

(٥٤) الأرشيف الحكومى المركزى للأسطول العسكرى البحرى. المجموعة الوثائقية المتكاملة ٢٦، المجموعة الفرعية ١، ملف٢٠، أوراق ١٨٩- ١٩٢.

الأرشيف الحكومى لمقاطعة أوديسا

يحتفظ الأرشيف الحكومى لمقاطعة أوديسا فى بداية الثمانينيات من القرن العشرين بنحو ٩٠٠ ألف ملف بدءًا من عام ١٨٠٠. تعكس وثائق الحقبة "ما قبل السوفيتية" تاريخ منطقة "نوفوروسيسك" ومن ضمنها مقاطعات خيرسون، وتافرى، وإيكاترينوسلاف، وبيسآراب. وتلقى وثائق المجموعات الوثائقية المتكاملة لإدارات محافظى مقاطعتى "إيكاترينوسلاف" و"نوفوروسيسك"، وإدارة رئيس القرى الجنوبية، ولجنة رعاية المستوطنين الأجانب لأنحاء روسيا الجنوبية، وإدارة أوديسا الخاصة بالمستوطنين الأجانب لأنحاء روسيا الجنوبية، الضوء على تاريخ تعمير جنوب روسيا. سنجد وثائق عن تعمير أوديسا والقِرم وساحل بحرى الأزوف والأسود، وأيضا عن طبيعة الملاحة والتجارة فى بحر الأزوف والبحر الأسود، وبناء الخطوط الحديدية فى جنوب روسيا.

فى المجموعات الوثائقية لإدارة ميناء أوديسا، وإدارة الهندسة الرئيسية لموانئ نوفوروسيسك التجارية، ومكتب رئيس الدائرة الجمركية الجنوبية وجمرك أوديسا، وإدارة أعمال ميناء أوديسا وغيرها، سنجد وثائق عن بناء ميناء أوديسا وتطور التجارة مع البلدان الأجنبية، والأوضاع فى ميناء أوديسا والموانئ الأخرى فى البحر الأسود، وحركة السفن الروسية والأجنبية(١).

وقد أسعفنى الحظ بزيارة الأرشيف الحكومى لمقاطعة أوديسا، فى بداية صيف عام ١٩٨١، قبل انهيار الاتحاد السوفيتى بفترة طويلة. وعندما كنت أقوم بجمع المادة لرسالة الدكتوراه فى العلوم التاريخية، وهى بعنوان "تشكل الطبقة

العاملة المصرية فى ظروف التحديث الاستعمارى ١٨١٤-١٩١٤". لقد توقعت أن أجد وثائق ضرورية عن ذلك فى أوديسا، وذلك لأن الكتائب الأولى للطبقة العاملة المصرية وأيضًا الإضرابات العمالية الأولى بدأت فى بورسعيد والإسكندرية. ففى أوديسا، تقع واحدة من إدارتين لشركة الملاحة البخارية والتجارة الروسية، والإدارة الأخرى فى مدينة سان بطرسبرج. كما أن تجارة روسيا الجنوبية، بكل ما لها من مؤسسات وبنية تحتية، قد خدمت أحجامًا كبيرة لتجارة روسيا مع الشرق. لقد وجدنا فى أرشيف أوديسا وثائق فريدة ونادرة، خاصة فيما يتعلق بإقامة علاقات تجارية مع الشمال الشرقى لقارة إفريقيا. من وجهة نظرى أن تلك الوثائق لم تفقد أهميتها وقيمتها حتى الآن، ولذا نشير هنا ونذكر بضرورة التعامل معها بجدية وفهم لظروفها الموضوعية ومسبباتها. إن استخدام ومراجعة تلك الوثائق ضرورى لتطور العلاقات الروسية- المصرية، كما يشير إلى ذلك الوطنى الروسى والأديب والشخصية العامة إيجور بيتروفيتش كوفاليفسكى[٢].

بدعوة من حاكم مصر محمد على، وصل فى نهاية النصف الأول من القرن التاسع عشر إلى مصر مهندس المناجم الروسى "كوفاليفسكى" ليساعده فى ملء خزانة الدولة عن طريق التنقيب عن الذهب[*]. بعد انتهاء مهمته وضع إيجور بيتروفيتش كوفاليفسكى نتائج وعصارة فكره فى مذكرتين: الأولى بعنوان "ضرورة إقامة قنصلية روسية على شاطئ البحر الأحمر (فى مصوع) من أجل رعاية الحجاج المسلمين من ذوى الجنسية الروسية، والمراقبة الميدانية لتطور الأحداث

(*) فى تلك الفترة كان "الذهب" قاعدة التعامل التجارى بين الدول منذ العصر التجارى فى مطلع القرن ١٦ المعروف اصطلاحًا "العصر المركنتيلى Mercantilism". وطبقًا لهذه القاعدة كانت قوة الدولة الاقتصادية تقاس بحجم ما لديها من ذهب سواء من التصدير أو من اكتشافه فى الدولة الى أن تغيرت هذه القاعدة قبيل الحرب العالمية الأولى وأصبح ما لدى الدولة يعتبر "رصيدًا" وتصدر بقيمته عملات معدنية غير الذهب أو عملات ورقية. (المراجع)

السياسية فى منطقة البحر الأحمر، والثانية عن فائدة إقامة صلات تجارية مباشرة بين روسيا وبعض موانئ البحر الأحمر. ونسوق هنا مقتطفات من المذكرة الأخيرة(٣).

مشروع التجارة بين روسيا ومصر ومع شواطئ البحر الأحمر

(مذكرة إ.ب. كوفاليفسكى)

(ورقة ١٣). أثارت الأسعار الباهظة للحديد الإنجليزى والفرنسى، والنوعية الرديئة للحديد الإنجليزى نائب السلطان(*) فى مصر محمد على، فدخل فى مشاورات مع قنصلنا العام فى مصر- حسب معلوماتى- للاستفسار عن السُبل التى يستطيع من خلالها الحصول على الحديد من روسيا. لقد طلب منى بعض المعلومات بهذا الصدد، وقد تعجلت فى تقديم مذكرة تفصيلية له عن أسعار الحديد الإنجليزى والروسى، متضمنة أسعار النقل إلى الإسكندرية. اتضح منها أنه على الرغم من السعر العالى غير المناسب لحديدنا فى أوديسا، فإنه أرخص بنحو ٤٠% من الحديد الإنجليزى، وأن نوعيته لا تقل عن أى حديد آخر سوى بعض أنواع الحديد المنقوش النمساوى.

(على ظهر ورقة ١٣). بناء على تلك الحسابات، قرر محمد على إرسال وسيط إلى أوديسا لشراء الحديد من أنواع القضبان والمسطحات خاصة المدرفل للآلات، وأيضًا لحجز بعض الأشياء الضخمة من الحديد الزهر. لكن المرض المفاجئ الذى ألمّ بمحمد على، والذى أفضى فيما بعد إلى موته، قد أوقف ذلك المشروع، الذى لم يجد ابراهيم باشا(**)- المدرك لأهميته- فرصة لتحقيقه.

(*) لم يكن محمد على نائبًا للسلطان بل كان واليًا شأن الولاة الذين كانت ترسلهم الدولة العثمانية إلى مصر منذ أن دخلتها فى عام ١٥١٧. (المراجع).

(**) لقد مات إبراهيم باشا قبل والده محمد على. (المراجع).

بناء على ذلك يُعتبر الحديد بجميع أنواعه، والمصنوعات الحديدية الضخمة وأوعية الحديد الزهر والنحاس، مجالاً ذا فائدة غير مشكوك فيها لتجارتنا مع مصر. وأيضًا سيصبح نقل تلك السلع ،عبر برزخ السويس(١٢ ساعة من الإبحار) إلى الجانب المصرى والسودانى والإثيوبى والعربى من البحر الأحمر، أكثر فائدة بكثير من المصنوعات الاستعمارية الأصلية. ونعتقد أن البضائع المهمة التى يمكن تصديرها من روسيا (ورقة ١٤) هى الجلود التى يتم جلبها إلى الإسكندرية من إنجلترا أو فرنسا، وجلود الحملان من الهند لصنع الأحذية، أما لحم البقر فيتم استيراده على هيئة لحم مملح أو فى عبوات محكمة الإغلاق أيضًا من إنجلترا، ويتم سوق الماشية من السودان لمسافة ثلاثة آلاف فيرستيا(*) فى الصحراء من أجل الباشا والمقربين له، وينفق أكثر من نصفها فى الطريق. وأخيرًا الدهون والحبال التـــى يتم إعدادها فى مصر من ليف النخيل ونوعيتها رديئة، حيث إن نبات القنب لا يزرع إلا بكميات قليلة. لن أتحدث عن تجارة الفحم الحجرى، على الرغم من أن فحم الأنتراسيت لدينا أجود من الفحم الإنجليزى، كما أن قِصر الطريق بين جنوب روسيا ومصر يجعله متفوقًا على الفحم الحجرى الإنجليزى.

قد لا تستطيع منتجاتنا من الأقمشة والمانيفاتورة منافسة المنسوجات الإنجليزية فى السوق المصرية، تلك المنسوجات تغرق أسواق الشرق كافة. نستطيع فقط تصدير ورق الكتابة، إذا تم إعداده ليناسب الأنواع التى يستخدمها المصريون.

من المفهوم بالطبع، أنه فى حالة تطور ونمو التجارة مع مصر وشواطئ البحر الأحمر سنجد سلعًا أخرى يمكن تصديرها من جانبنا، والتى ستدلنا عليها التجربة وأيضًا الأشخاص المقيمون بشكل دائم فى تلك البلدان، ومنهم على سبيل المثال قنصلنا العام فى مصر.

(*) (فيرستيا: وحدة قياس طولية روسية قديمة، تقدر بنحو ١٠٧٠ مترا- المترجم).

أما السلع الممكن استيرادها من مرافئ البحر الأحمر ومن مصر، ففى مقدمتها البن "الحبشى" وبن "المُخا"(*)، وبعد ذلك يأتى العاج والصمغ وصبغة النيلة، ومواد الصباغة والأدوية، وأيضا المنسوجات الحريرية من الحرير الهندى والموسلين، والمنتجات القطنية (ورقة١٥)، والتبغ "السورى" والزنجبيل والقرنفل وغيرها.

كى نوضح أهمية التجارة مع مصر وحدها، من المهم أن نضيف هنا أن إيرادات ذلك البلد فى عام ١٨٤٦ تصل إلى ٣٠ مليون روبل من الفضة، ومن ضمنها المتحصلات من بيع الانسجة القطنية والسكر وصبغة النيلة التى تجاوز *4,1* مليون روبل.

نحن نعرف كيف أن تجار بلادنا يتحركون بصعوبة تجاه أى عمل جديد، لقد أثبتت التجربة أن تعاون الحكومة، المباشر وغير المباشر، فى التجارة وغيرها من المجالات ضرورى ولازم. لكن الحكومة لا تستطيع أيضًا تعريض رأس مالها للمخاطرة، ولذلك أعتقد أن الإجراء التالى قد يفيدنا: فى البحر الأسود هناك ثلاث بواخر مدرعة كبيرة لنقل البضائع (الباخرة الرابعة تحت إمرة قائد أسطول البحر الأسود). من بين تلك البواخر، تعمل اثنتان فى ربط أوديسا بالقسطنطينية، وكلاهما تقوم بثلاث رحلات فى الشهر إلى القسطنطينية ذهابًا وإيابًا، وهكذا تضطر كل واحدة منهما إلى انتظار دورها فى الذهاب إلى القسطنطينية اثنا عشر يومًا. كان هناك اقتراح بإرسال تلك الباخرتين فى فترة الراحة إلى ميناء أزمير، ولكن يعمل على ذلك الخط الملاحى الكثير من البواخر الفرنسية والإنجليزية والنمساوية والتركية، مما لا يجعل تلك الباخرتين رابحتين فى رحلاتهما، إذ المسافة بين

(*) المخا: ميناء يمنى على مدخل البحر الأحمر وكانت المراكب التى نحمل البن نبحر منه ومن هنا جاء قول "بن المخا" أى القادم من هناك. (المراجع).

ميناءى القسطنطينية وأزمير للبواخر تساوى ضعف المسافة بين القسطنطينية والإسكندرية، أى ما يوازى أربعة أيام. ولو أضفنا الى تلك الباخرتين الباخرة الثالثة، المُحتفظ بها كاحتياطى، فإنها لن توفر الاتصال بين القسطنطينية والإسكندرية فقط، بل وسيصبح الذهاب إلى القسطنطينية من أوديسا كل سبعة أيام بدلاً من عشرة أيام فقط، كما هو موجود الآن (ورقة ١٦)، ويبدو ذلك مفيدا لنا للغاية.

لو أن الحكومة قررت الاشتراك الفعلى فى تلك التجارة كما فعلت فى تجارة "أسترأباد"[٤]، سيصبح نقل البضائع، الذى ستتكفل به الحكومة، هو نصيبها فى رأس المال لتلك المؤسسة. فى كل الأحوال، سيصبح ذلك للوهلة الأولى تخفيفًا كبيرًا عن كاهل الناس الذين يعتبرون أن تلك الأراضى مجهولة، لم يتم اكتشافها بعد، وأنها بعيدة للغاية ويكتنف الذهاب إليها المخاطرات والحــوادث. إن الحديث لا يدور هنا عن خارج حدود الوطن، ولكن عن أماكن لم يتاجر فيها آباؤهم وجدودهم، عن أراضٍ من الممكن ألا يكونوا قد سمعوا عنها. سيكون إقناعهم بفائدة الاتجار مع مصر والأراضى المتاخمة لها أصعب من فائدة الاتجار مع آسيا الوسطى وبخارى وخيفا[٥] وغيرها، تلك أسماء الأماكن التى يعرفونها (ورقة ١٦) عن طريق سماع ما تحكيه القوافل المقبلة منها، أما مصر فإنها غريبة على أسماعهم.

سأجرؤ على التفكير فى تكوين بيت إفريقى للتجارة، مثلما يوجد بيت أستراباد التجارى. سيستطيع مثل ذلك البيت، بإسهام نشط وحماية من الحكومة، أن يحقق الأهداف المرجوة. هناك مدينتان مفيدتان لتأسيس ذلك البيت التجارى فيهما: أوديسا التى تبحر منها وإليها البواخر نحو القسطنطينية، ومدينة تاجانروج حيث تتركز التجارة للجنوب عبر السكك الحديد، ومن ثم يمكننا العثور بسهولة على

رأس المال والبضائع اللازمة لمثل تلك الشركة هناك. تستطيع الحكومة إقرار أيهما الأكثر ملاءمة حسب وجهة نظرها.

أنا بعيد جدًا عن الاستسلام غير المشروط لإغواء أفكارى (ورقة ١٧)، على الرغم من أننى أجدها سهلة التنفيذ للغاية. لن أخفىَ المعوقات التى قد تعترض طريق تجارتنا فى مصر والتى تتمثل فى الحكومة الحالية فى مصر. لم يكن محمد على أو إبراهيم باشا الباحثان عن مقاومة مضادة للنفوذ التجارى الإنجليزى فى مصر ليضعا العراقيل أمام نمو تجارتنا ، بل كانا سيتعاونان مع تلك التجارة بالطبع ويدعمانها. لكن حاكم مصر الحالى عباس باشا فقير فى الصفات الحميدة وغنى بعيوب وشهوات كثيرة، سينحاز بالقطع إلى الجانب الذى يرضى مصلحته الشخصية، وإلى نصائح المحيطين به. فى تلك الحالة يجب أن نتوجس من تحول مصر إلى مقاطعة تركية أو مستعمرة إنجليزية، على الرغم من أنها من الناحية (على ظهر ورقة ١٧) الرسمية تستطيع المحافظة على استقلالها. لكننى أعتقد أن بعثتنا فى القسطنطينية تستطيع التغلب على تلك العقبة، وهذا سيكون أحد أسباب التعرف عن قرب على تلك البلاد والتعرف على الروس.

من المفهوم أن إقامة قنصلية لنا عندئذ فى السويس أو أحد موانئ البحر الأحمر(فى سواكن أو مصوع) سيصبح ضروريًا، وببساطة سيبدو وجود قنصلية عامة محلية ضرورة قصوى بذلك المعنى.

أنا لا أروج هنا لنقل البضائع من الإسكندرية إلى السويس وللملاحة عبر البحر الأسود، تشهد قنصليتنا العامة على رخص أجور النقل بالجمال فى الحالة الأولى والسفن العربية فى الحالة الثانية، وتشهد أيضًا بأمان الطرق عبر خليج السويس (ورقة ١٨) والملاحة عبر البحر الأحمر.

فى النهاية كان يجب أن أقدم معلومات عن أسعار البضائع التجارية التى ذكرتها سابقًا، لكن الأسعار متغيرة وثانيا إننى سأقدرها بشكل تقريبى فقط، وأن أى خطأ صغير سيحدث، قد يؤدى فى تلك الحالة إلى زيادة فقدان الثقة، تلك الثقة التى يُنظر إليها بعين الاعتبار فى مشاريع من ذلك النوع. سيصبح من الأفضل، حسب وجهة نظرى، قبل أن نبدأ فى تجارة صحيحة ذات أبعاد كبيرة وقبل إنشاء البيت التجارى، إرسال شحنة صغيرة من البضائع فى أول فرصة إلى الإسكندرية والسويس للتجربة، ولتتكون فى الغالب من المعادن المأخوذة عبر صفقة متبادلة أو على أقصى تقدير بأسعار المصنع، ولنرسل معها شخصًا متمتعًا بثقتنا التامة، يستطيع أن يستخلص المعلومات والنتائج من التجربة فى المكان وأن يوضح عبر الأمثلة، إلى أى درجة (على ظهر ورقة ١٨) يمكن أن تكون تجارتنا مع تلك البلاد ذات فائدة.

فى كل الأحوال لن يكون تزيّدًا أن نتبع القواعد فى إرسال تلك الشحنة من البضائع إلى مصر، وأن نخضعها إلى التفتيش الدقيق بواسطة أشخاص عارفين بهذا العمل، لأن النوعية الرديئة والغش سيثيران عدم الثقة فينا من المرة الأولى، وسيقتلان أى مشروع فى بدايته، ولعل ذلك ما حدث فى بعض الأمثلة التى حدثت لتجارتنا.

وفى تقرير موجه من القنصل العام فى مصر "فوك" إلى مبعوثنا فى القسطنطينية "تيتوف"، نجد تأييدًا لفكرة إيغور كوفاليفسكى ولكنه يحددها بشكل أوضح ويقترح فى البداية الاقتصار على مصر فى ذلك المشروع[٦].

"بالطبع سيكون ذا فائدة لنا أن نحاول ربط وإقامة صلات مباشرة بين مصر وموانئنا الرئيسية على البحر الأسود، وحتى نبعث الى الإسكندرية بشحنة بضائع روسية للتجربة ليد السيد أنسطاسى، الذى يمتلك (على ظهر ورقة ٨) فى

الإسكندرية أحد البيوت التجارية الممتازة التى أدارها مؤقتًا قنصلنا العام هناك فى عام ١٨٤٠. يمتلك أنسطاسى مشاعر ونوايا حسنة تجاه روسيا وتجاه كل الروس، وكما أعلن لى، فهو يأخذ على عاتقه كل شيء من استلام وبيع البضائع حتى إرسال البضائع المصرية إلى روسيا كمقابل متكافئ لها، وأنه عمومًا سيتعاون فى تطوير التجارة تدريجيًا وفى إقامة علاقات تجارية دائمة بين المنطقة هنا وروسيا.

السيد أنسطاسى يعرفه الجميع هنا بنزاهته وقناعته، وأيضًا بعلاقاته التجارية الواسعة (ورقة ٩)، ويتمتع هنا بالاحترام، ولا يمكننى أن أجد أو أوصى بشخص غيره. لا يوجد من يستحق الثقة الكاملة ولا من يتجمع فيه هذا الكم من الصفات الجيدة والطيبة والمأمولة. يفترض بعض هنا أن حديدنا لا يمكن بيعه بالأسعار المتدنية التى يباع بها الحديد الإنجليزى. وليست أيضًا أشكال حديدنا متنوعة، سواء على شكل قطع أو قضبان أو مسطحات، ولذا فإنها غير مريحة للاستخدام مثل الحديد الإنجليزى. يمكن قول الملاحظة نفسها بالنسبة للنحاس. لو كان ممكنا عمل وإرسال الحديد والنحاس فى أشكال مختلفة وملائمة (على ظهر ورقة ٩) والنزول بالسعر إلى أدنى من سعر الحديد الإنجليزى، لكان استهلاك حديدنا أسهل وأكثر فائدة.

من بين المنتجات النحاسية سيمكن بسهولة بيع السيماور، ومواقد التدفئة للغرف التى تستخدم الفحم، والشمعدانات البسيطة ذات الأحجام الكبيرة لأن كل أبناء الشرق معتادون على إيقافها على الأرضيات، وكنكات القهوة المختلفة والأباريق، والمغاسل ذات الأشكال الشرقية وما شابهها. بالإضافة إلى ذلك، هناك الكثيرون هنا الذين يستخدمون الخيوط الذهبية واللامعة أو الأسلاك للحياكة بالذهب. يمكن استهلاك وبيع الأشياء الجلدية وجلود الماشية البسيطة أكثر من منتجات جلود الحملان (ورقة ١٠) وتحصيل أرباح منها. من المنتجات المصرية

هنا، أفترض أن نضع المنسوجات القطنية فى أولوياتنا. وأرى أن نرسل فى المرة الأولى للتجربة شحنة بضائع على حساب الخزانة الحكومية، وسيكون مرغوبًا من أجل ربط وتوطيد العلاقات التجارية إقامة صلات بين بعض البيوت التجارية فى أوديسا وتاجانروج وبين بيت أنسطاسى التجارى هنا. بالنسبة للتجارة فى السويس والبحر الأحمر، اقترح أن نترك ذلك جانبًا الآن ونبدأ فيه فيما بعد، عندما تتوطد التجارة مع الإسكندرية ومصر وتتخذ مسارًا صحيحًا وناجحًا. بهذا الصدد، سيصبح نافعًا لنا (على ظهر صفحة ١٠) السيد كوستا، الذى يدير تجارة ضخمة ويمتلك علاقات واسعة فى تلك البلاد. لذلك فإننى أقاسمكم الرأى تمامًا، أيها الحاكم الرحيم، فى أنه فى المرة الأولى يكفى أن يكون لدينا وكلاء فى السويس، يتراسلون مع السيد كوتسيمكو فى جدة على الجانب الآخر من البحر الأحمر. مع ذلك يوجد لدى السيد كوستا مراسلون تابعون له فى جدة ومصوع، وسيكون ذلك نافعًا لنا فى هذا الصدد. تمر التجارة بين إثيوبيا ومصر عبر النيل وسنار، أما تجارة إثيوبيا مع البحر الأحمر فتمر كلها عبر شبه الجزيرة العربية. وهكذا لا يستطيع الرحالة الوصول إلى السويس من مصوع مباشرة، بل يذهب أولاً إلى جدة، لأنه فى مصوع لا يوجد قارب واحد يذهب إلى السويس.

فوك:

لكن رأى السيد فوك القنصل العام الروسى فى مصر، لم يكن كافيًا. كان أمام الفكرة اللامعة لإيغور كوفاليفسكى، التى دعمتها تجربته الخاصة، طريق طويل شائك أعده رجال أعمال فى جنوب ووسط للإمبراطورية الروسية. تتحدث عن ذلك وثائق أرشيف مقاطعة أوديسا، وعلى سبيل المثال المجموعة الوثائقية المتكاملة ٢، المجموعة الفرعية ١، ملف ٢٨٢.

(ورقة ٧) أصدرت تلك الوثيقة إدارة المانيفاتورة والتجارة الداخلية التابعة لوزارة المالية للإمبراطورية الروسية، ووجهتها إلى القائم بأعمال المحافظ العام لمقاطعـــة نوفوروسيسك وبيسآراب. عنـــوان الوثيقـــة "بخصوص تأسيس صلات تجارية مباشرة بين روسيا وبين مصر وبلدان ساحل البحر الأحمر".

تتحدث الوثيقة: "لقد قام السيد وزير الخارجية بإرسال نسخة لى من مذكرتين كتبهما "يودبولكوفنيك" كوفاليفسكى، الضابط فى فرقة المهندسين الجيولوجيين، عن فائدة إقامة علاقات تجارية مباشرة بين روسيا وبين مصر وإثيوبيا وغيرها من الدول الساحلية، وأيضا نسخة من استنتاج القنصل العام الروسى فى مصر عن هذا الموضوع.

١. لم يكن حاكم مصر السابق محمد على غير راضٍ عن الأسعار الغالية للحديد الإنجليزى (على ظهر ورقة ٧) والنمساوى، وأيضًا النوعية الرديئة للنوع الأول، لذا أعرب عن رغبته فى جلب حديد من روسيا، ودخل فى مشاورات بهذا الصدد مع قنصلنا العام فى مصر. بمراجعة مذكرة شبيهة كتبها كوفاليفسكى عن أسعار الحديد الروسى والإنجليزى، اقتنع محمد على بأن حديدنا، على الرغم من سعره الغالى غير الملائم فى أوديسا، سيكون أقل تكلفة من الحديد الإنجليزى بنحو ٤٠%، وفى الوقت نفسه ستكون نوعيته أقل فقط من بضعة أنواع للحديد النمساوى. أيقظت تلك الحسابات فى محمد على النية فى إرسال وسيط تجارى إلى أوديسا لشراء الحديد فى شكل القضبان والمسطحات، خاصة حديد المراجل من أجل الآلات، ولشراء بعض الأشياء الضخمة الحديدية، لكن الوفاة السريعة له قد أعاقت تنفيذ خططه المفيدة له، التى لم يلحق أن ينفذها ابنه إبراهيم باشا الذى يعرف فائدة ذلك لمصر.

٢. تلك الظروف، كما يعتقد (ورقة٨) السيد كوفاليفسكى، تثبت وجود حاجة فى مصر لحديدنا، والذى بالإضافة إلى المصنوعات الحديدية كبيرة الحجم وأوعية الحديد الزهر والنحاس، تكون مجالاً للتجارة مع مصر مفيدًا لنا. وفى حالة نقل تلك البضائـــع عبـــر بـــرزخ السويس إلـــى سواحل البحر الأحمر المصرية والإثيوبية والعربية ستصبح أكثر ربحية وفائدة من المصنوعات الاستعمارية الأصلية.

بعد ذلك قام السيد كوفاليفسكى بحصر الأشياء التى يمكن أن تكون مفيدة فى حالة إرسالها من روسيا إلى مصر والحبشة، كذا الأشياء الممكن استيرادها من تلك البلدان(٢) ويجمل كوفاليفسكى الإجراءات التالية من أجل فتح علاقات تجارية سريعًا مع تلك البلدان فيما يلى:

١. إقامة بيت تجارة إفريقى فى أوديسا أو تاجانروج للتجارة مع مصر، ليكون شبيهًا لبيت تجارة أستراباد وبمشاركة وحماية حكومية نشيطة.

٢. تأسيس وكالة قنصلية فى السويس وفى أحد موانئ البحر الأحمر، وغالبًا فى سواكن أو مصوع لتوزيع تجارتنا وأيضًا لرعاية ذوى الجنسية الروسية من المؤمنين بالعقيدة المحمدية(*)، والذين يقومون بأعداد كبيرة بزيارة سواحل البحر الأحمر للسجود أمام قبر النبى محمد.

٣. إقامة خط ملاحى منتظم للبواخر لنقل البضائع بين أوديسا والإسكندرية، وذلك لتوفير وسيلة نقل سريعة ومريحة لتجارتنا إلى مصر. وبهذا الصدد يوضح كوفاليفسكى أنه من الممكن الوصول إلى الإسكندرية بالباخرة فى ٥-٦ أيام، وأن المرور ببرزخ السويس أو النقل على ظهور الجمال لا يمثلان أى صعوبة وأن نقل

(*) درج الكتاب فى الغرب المسيحى على وصف الإسلام بالعقيدة "المحمدية" نسبة إلى النبى محمد صلى الله عليه وسلم مثلما نسبوا المسيحية إلى المسيح. (المراجع)

بضائعنا إلى موانئ البحر الأحمر المختلفة سيتم بسهولة وراحة، ومن الممكن أن يحدث بواسطة السفن العربية ذات أسعار النقل الرخيص.

كما أن القنصل العام فى مصر المستشار الحكومى "فوك" فى تقريره الخاص بموضوع تصورات بودبولكوفنيك "كوفاليفسكى" السابق والموجه إلى (ورقة٩) سفير للإمبراطورية الروسية لدى الباب العالى العثمانى، المستشار السرى تيتوف، قد قدم من جانبه ما يلى:

١. إن حديدنا لا يمكن أن يباع فى الإسكندرية بالأسعار المنخفضة للحديد الإنجليزى، ناهيك عن أن أشكال حديدنا من قطع وقضبان ومسطحات بالمقارنة بالحديد الإنجليزى ليست متنوعة ومريحة للتحضير. وتنسحب تلك الملاحظة أيضًا على النحاس.

ولكن إذا كان ممكنًا إنتاج الحديد والنحاس فى روسيا فى أشكال ملائمة للاستخدام، والنزول بالأسعار إلى أقل من الحديد الإنجليزى ، فإننا نستطيع بيع تلك السلعة فى مصر وبشكل مجزٍ. من المصنوعات النحاسية يمكن فى الإسكندرية البيع المريح للسلع الآتية: السيماور، ومواقد التدفئة (المناقل)، والشمعدانات البسيطة كبيرة الحجم، حيث يعتاد ابناء الشرق وضعها على الأرض، وكنك القهوة، وأحواض المغاسل (على ظهر ورقة ٩) ذات الأشكال الشرقية وغيرها. عدا ذلك، هناك استهلاك كبير فى مصر للخيوط اللامعة والذهبية وأسلاك الحياكة الذهبية. يمكن للمنتجات الجلدية والمصنوعة ببساطة من الصوف أن يتم بيعها وجنى الأرباح منها أكثر من أغطية الأحذية المصنوعة من جلود الحملان.

٢. وبالطبع يكون ذا فائدة لنا أن نحاول إقامة علاقات تجارية مباشرة مع مصر بإرسال شحنة من البضائع فى البداية إلى الإسكندرية وتوكيل البيت التجارى للسيد أنسطاسى لبيعها، خاصة أنه قد أبدى استعداده أن يأخذ على عاتقه كل

ما يتعلق باستلام البضاعة وبيعها وتبادلها مع منتجات مصرية، وبشكل عام العمل التدريجى على التطور التدريجى للعلاقات التجارية بين روسيا وتلك المنطقة. لكن يجب أن نضع جانبا الآن التجارة مع السويس وموانئ البحر الأحمر حتى تتم إقامة مسار صحيح وناجح لعلاقاتنا التجارية مع مصر عبر الإسكندرية (ورقة ١٠).

٣. فى ذلك المنظور، يكفى أن يكون لنا وكيل فى السويس، يستخدم مراسلات السيدين كوستا وكوتسيكا (ممثلين غير حكوميين فى السويس- ملاحظة المؤلف) من أجل الحصول على معلومات عن أوضاع التجارة فى المناطق الساحلية للبحر الاحمر.

يعتبر مستشار السير تيتوف سفيرنا فى تركيا رأى قنصلنا العام فى مصر مهمًا للغاية.

هناك أيضًا بضع معلومات إضافية، لقد تم النظر إلى كل تفاصيل الموضوع فى مجلس وزارة المالية الذى بحث جميع الجوانب ووجد أن إقامة علاقات تجارية بإفريقيا يجب أن تبدأ أولاً بالاقتصار على مصر، وليس معنى ذلك غض البصر عن الحبشة والبلاد الأخرى الواقعة على البحر الأحمر، كما أن إقامة خطوط مواصلات مباشرة مع الإسكندرية من موانئ بحر الأزوف المريحة للاتصال بداخل روسيا، ستقدم ميزات مهمة للتجارة الروسية بفتح الطريق من ناحية (على ظهر ورقة ١٠) لبيع مربح للمنتجات الوطنية مثل: الحديد والمصنوعات المعدنية والحبال والدوبار والمصنوعات الجلدية وغيرها، ومن ناحية أخرى لاستيراد الصمغ العربى ومواد الصباغة والبن والمنسوجات القطنية اللازمة للصناعات الروسية. كما أنه من الممكن توقع أرباح مهمة من تجارة أخشاب البناء التى تنمو بغزارة فى شرق البحر الأسود، وسيكون مربحًا للغاية نقلها إلى الميناء القريب. ولكن كى نحصل على نجاح هذا العمل، يجب تجميع جهود بضعة بيوت تجارية لتكون شركة برأس مال كبير.

لا يوجد شك لدينا بأن منافسة النمساويين وأيضًا الإنجليز خاصة، الذين سبقونا فى حيازة السوق المصرية بمنتجاتهم، ستصبح عقبة مهمة فى طريق بيع البضائع الروسية خاصة إذا كانت أسعارها (ورقة ١١) أعلى من المنتجات الشبيهة المجلوبة من النمسا وإنجلترا. ولأن تلك التجارة فى المرحلة الأولى سيصاحبها بعض الإخفاقات وأن الأخيرة سيصاحبها بالقطع بعض الخسائر، ولكن كل ذلك يجب ألا يوقف طموحنا ويمنعنا من الوصول إلى أهدافنا. تستطيع الحكومة، على الرغم من عدم مشاركتها المباشرة فى دورات التجارة لتلك الشركة، أن تتعاون بالاعتماد على إجراءاتها لإنجاح ذلك المشروع، وذلك سن خلال الحماية والرعاية الدائمة وفى أحسن الأحوال الدفاع عن الحقوق التجارية لتجارتنا من خلال وساطة قناصلنا وبعثتنا فى القسطنطينية وسيكون من الحذق طلب السماح من جلالته، أولاً: إعفاء الشركة فى البداية من دفع رسوم لطائفة التجار عن الرأس مال المؤسس لتلك الشركة، وثانيًا إرسال بواخر النقل المنتظمة مباشرة إلى الإسكندرية، لو وافق مسبقًا على ذلك المشرف العام على إدارة النقل (على ظهر ورقة ١١) ولم يبد أى ممانعة.

على أساس استنتاج مجلس وزارة المالية الأمر أرجو جلالتكم باقتراح كل ما سبق من معلومات وتصورات وتقديمها إلى التجار فى موانئ البحر الأسود وبحر الأزوف، وأن نسألهم فى النهاية إذا كانوا راغبين فى تكوين شركة للتجارة مع مصر، وفى تلك الحالة بعد صياغة لائحة المشروع وبيان المميزات الضرورية لنجاح مسيرة المشروع أن نخبر بعد ذلك وزارة المالية لاتخاذ اللازم.

أجد من واجبى إرفاق هذا الخطاب إلى السيد الحاكم العسكرى لمدينة موسكو مصحوبًا باقتراح لتجار موسكو لتأسيس تلك الشركة المقصودة.

وزير المالية الأمير ف. فرونتشينكو

(ورقة١)

السيد رئيس مدينة أوديسا

٢٠ يناير ١٨٥١

أعلمنى السيد وزير المالية فى ٢١ ديسمبر الماضى بخطاب رقم ٧٣٥١ عن المذكرتين اللتين تلقاهما من وزير الخارجية، واللتين كتبهما بودبولكوفنيك "كوفاليفسكى" لصالح إقامة علاقات تجارية مباشرة بين روسيا وبين مصر والحبشة والدول الأخرى فى البحر الأحمر وأيضًا تقرير القنصل العام فى مصر، الذى يخلص إلى رأيه بشأن هذا الموضوع. (على ظهرورقة١). وقام السيد سكرتير الدولة والأمير فرونتشينكو بسرد تفصيلى لما فى مذكرتى بودبولكوفنيك "كوفاليفسكى" وتقرير القنصل العام وأيضًا تصورات واستنتاج مجلس وزارة المالية فى هذا الصدد، مقترحًا على عرض كل تلك التصورات والمعلومات السابقة على التجار فى موانئ البحر الأسود وبحر الأزوف وأن أستقصى رأيهم فى إذا ما كانوا يرغبون فى إنشاء بيت تجارى للتجارة مع مصر وفى تلك الحالة بعد صياغة لائحة المشروع وبيان المميزات الضرورية لنجاح مسيرة المشروع أن نخبر بعد ذلك وزارة المالية لاتخاذ اللازم.

مرفق مع الخطاب نسخة من اقتراح السيد وزير المالية ، وأتشرف بأن أسأل سموكم خاضعًا، إعطاء الأمر اللازم لتنفيذ طلبات وزير المالية من تجار ميناء أوديسا.

القائم بمنصب المحافظ العام

جنرال- ليفتانت فيدوروف

فيما يلى تقرير ممثلى رجال الأعمال الذين بحثوا الإمكانية المحلية لإقامة علاقات تجارية مباشرة مع مصر وغيرها من بلدان الشمال الشرقى لقارة إفريقيا.

إلى معالى السيد رئيس مدينة أوديسا

تقرير بتاريخ ٥ فبراير ١٨٥١

(ورقة ٥). تم سماع ما وقعه معاليكم عن إقامة علاقات تجارية مباشرة بين أوديسا وبين مصر والدول المجاورة لها وفق مشروع بولكوفنيك- مهندس "كوفاليفسكى" فى اجتماع قسم أوديسا بالمجلس التجارى المنعقد فى الأول من الشهر الجارى.

نظر القسم فى كل التفاصيل التى احتواها اقتراح السيد كوفاليفسكى وأيضًا الاستنتاج الذى قدمته رئاسته، وأخذنا آراء الكثير من التجار هنا فى المدينة. نتشرف بأن نقدم لكم تصوراتنا بخصوص ذلك الموضوع:

يبدو اقتراح الباشا المصرى بإقامة علاقات تجارية مباشرة مع أوديسا وعمومًا مع روسيا ليس جديدًا، فقد كان للمرحوم محمد على وكلاء خاصون منذ أكثر من

ثلاثين عامًا في مدن قرصة وأوديسا وأفيروف وفى بطرسبرج. ولكن كل تلك الشركات لم تنجح لعدم قيام تلك الأعمال على أسس تجارية صحيحة، وذلك لأن:

١. البضائع، التى نستطيع إرسالها إلى مصر خاصة الحديد والحبال والمصنوعات الحديدية والنحاسية وغيرها، ستكلف مصر(على ظهر ورقة٣) سعرًا باهظًا أكثر من مصنوعات فرنسا وإنجلترا، ومن هنا سيصبح الطلب على منتجاتنا معدومًا. يمتلك بعض التجار الروس علاقات تجارية مع مصر منذ زمن طويل (السادة رودوكانكى ورالى وتسيسينى فى أوديسا، ورالى- سكارامانجو فى تاجانروج وغيرها)، ولكن تلك العلاقات غير دائمة ولا تحمل للتجار أى فائدة.

٢. لعل السلعة الرئيسية التى ننتجها وليس فقط لمصر بل لكل الشرق هى الحديد الروسى، والذى يفوق الحديد الإنجليزى من ناحية النوعية، ولكن على الرغم من تأكيدات السيد كوفاليفسكى فإن تجار أوديسا يعرفون أن حديدنا ليس فى مصر فقط بل فى تركيا أغلى بكثير من الحديد الإنجليزى. كما أن شكل قضبانه لا يتم صنعه فى مصانعنا كما يريدون فى الشرق، وعمومًا ليس كما يريد الصناعيون خارج حدودنا. ولقد تحدث التجار هنا وفى الخارج أكثر من مرة مع السيد ديميدوف وغيره من رجال الصناعة لدينا، ولم تتغير قضبان الحديد فى شكلها ، بل ولم تلق مراسلاتنا معه أى نجاح. الحديد الروسى فى نوعيته أحسن من الحديد الإنجليزى، وهناك بعض منتجاته يتم شراؤه فى الشرق على الرغم من غلو سعره. لكن فى المنظور الحاضر وبأسعاره الحالية لا يمكن التفكير فى بذل الجهد فى تلك التجارة فى مصر وفى أى مكان فى إفريقيا. وبالنسبة للسيماور ومواقد التدفئة فإنها غير مطلوبة فى تلك البلدان حيث يكون المناخ حارًا وليست هناك حاجة لاستخدامها.

٣. بالنسبة للبضائع الممكن استيرادها من مصر(على ظهر ورقة ٥) والأجزاء الأخرى من إفريقيا مثل: بن المُخا والشام، والبخور والصمغ، والأقمشة القطنية والعاج وغيرها. وبن الشام مطلوب فى روسيا وحتى فى غيرها من أنحاء أوروبا بكميات ضئيلة للغاية، وذلك لعدم تعود المستهلكين عليه وغلو ثمنه. إنه أغلى من البن الأمريكى بنحو ٣٠%، ومن رطل بن المُخا نحصل علـــى أقــل مـــن نصف عدد الفناجين الذى نحصل عليه من البن العادى أو الأخضر. بالنسبة للأقمشة القطنية فإن المصانع، ليس فقط فى روسيا، بل وفى إنجلترا لا تطلبه أبدا لأن آلاتنا والآلات الإنجليزية غير مهيئة لاستعماله. لا تستحق البضائع الأخرى الحديث عنها، لأنها تصلح كإضافة للشحنات ولا تصلح كشحنات أساسية تعتمد عليها السفن.

٤. من كل ما سبق يتضح أن تأسيس تلك الشركة غير ضرورى، لأنه لو وجد التجار فائدة لهم منها، لكانوا أقاموا علاقة تجارية مع مصر منذ زمن طويل. فى الوقت الحالى لن تجلب أى رعاية أو حماية حكومية نفعًا كبيرًا، وستسبب للتجار والبعثة فى الشرق عراقيل وصخبًا غير مفيد.

بناء على ذلك يرى قسم أوديسا فى المجلس التجارى، وعلى الرغم من أن رؤساء البيوت التجارية الكبرى فى مدينتى تاجانروج وروستوف موجودون حاليًا فى أوديسا ويشاركوننا رأينا: السادة راللى ورودوكانكى وغيرهما (على ظهر ورقة ٦)، فإن القسم على أى حال يرى السؤال عن رأى رئيس مدينة تاجانروج مفيدًا".

نائب الرئيس:

توقيع غير واضح

رفض تجار تاجانروج ومن بعدهم تجار موسكو تأييد مشروع كوفاليفسكى، على الرغم من وعود الحكومة بتقديم مزايا كبيرة لهم. وهكذا لم تتحقق تصورات إيغور بيتروفيتش فى الواقع فى ذلك الوقت، أكثر من ذلك نال كوفاليفسكى عدم الرضا بسبب حبه للحرية وآرائه المستقلة، التى تعرضت للقيصر جزئيًا ولطريقة الحكم. ولذا لم تلق رحلته الخطرة إلى مصر والسودان والحبشة فى ١٨٤٧-١٨٤٨ التقدير الملكى الواجب. فى ٢٣ أكتوبر عام ١٨٤٨ يصل أمر إلى هيئة أركان فيلق ضباط المناجم بالجيش بمنح كوفاليفسكى وسامًا من الدرجة الثانية، "لتنفيذه المهمة التى كلف بها فى الخارج". ولعل ذلك جعل القنصل العام فوك فى تهنئته له يقول: "هل يساوى ذهابك بعيدًا إلى هذا الحد لاستلام ذاك الوسام". لم يعط القيصر أيضًا التصريح بترقيته استثنائيًا إلى بولكوفنيك.

لكن التاريخ كان له رأى آخر، فقد تحققت فى الحياة أفكار كوفاليفسكى عن إقامة علاقات تجارية مباشرة بين الموانئ الروسية الجنوبية وأيضًا ساحل البحر الأحمر بعد نهاية حرب القرم (التى شاركت فيها مصر) فى عام ١٨٥٦، وذلك بإنشاء الشركة الروسية للبواخر والتجارة. لقد أمكن على القاعدة الوثائقية المتينة لأرشيف أوديسا إعادة بناء موضوع صعب يتناول مشكلة نشوء الصلات التجارية بين الإمبراطورية الروسية والقارة الإفريقية، على الرغم من خاصية التناقض داخلها. ولعل خمسة عشر عامًا أخرى كانت كافية لتغيير مواقف دوائر رجال الأعمال فى جنوب روسيا تجاه إقامة علاقات تجارية مباشرة بين روسيا ومصر، بفضل افتتاح قناة السويس(٨).

لقد اختفت الآلية المعقدة لنشوء التعاون التجارى بين روسيا ومصر فى الغلاف السميك لوثائق الأرشيفات الروسية، تلك الوثائق تستحق التعامل معها بحذق لوضع الصورة الحقيقية لنشوء وتطور العلاقات التجارية بين الدولتين. فى الوقت

نفسه، يمثل ذلك الكم الكبير للوقائع العلمية الطبيعية مثالاً واضحًا يوضح حجم وأبعاد المادة التاريخية المحتفظ بها فى الخزائن الروسية، وقدرتها على كشف النقاب عن كثير من المواضيع المعقدة، ليس فقط الحوار الحضارى- الثقافى الروسى- المصرى، بل وأيضًا العديد من صفحات التطور التاريخى لمصر نفسها. عدا ذلك، تعطى تلك الطبقة السميكة من المعلومات والوثائق المختلفة غذاءً وفيرًا لتفكير وتأمل الباحثين الدارسين للمواضيع الشبيهة والقريبة فى الحقبة الحديثة وفى المناطق الجغرافية الأخرى.

فى الختام، يريد المؤلف الإشارة إلى حقيقة ناصعة، وهى أنه خلال ثلاثين عامًا من عمله فى الأرشيفات الروسية عن المواضيع المصرية لم يقابل وثيقة تاريخية واحدة تتحدث عن مصر بشكل سلبى أو تزيف بنية خبيثة الواقع المصرى، أو تتجنى على المصريين. أستطيع الاجابة بأن روسيا والروس، وبغض النظر عن أى صفات يتحلون بها، لم يقدموا على ذلك ولم يستطيعوا فعله لسبب واحد بسيط؛ هو أنهم لو فعلوا ذلك لكان قد أدى الى تقوية عدوهم اللدود ومنافسهم الدائم – للإمبراطورية العثمانية. لذلك لم تؤد عمليًا وأبدًا الحروب الروسية- التركية المتتالية، والتى اشترك فيها المصريون إلى جانب الأتراك، إلى جفاء الحوار الحضارى- الثقافى الروسى- المصرى المستمر لقرون طويلة.

هناك أيضًا سبب خفى للانجذاب للموضوع المصرى، وهو مصر نفسها بواقعها وطاقتها، ووجودها المميز المؤثر فى العالم المحيط والداخل فينا، وبغض النظر عن أى درجة التطور بالنسبة لنا خاصة لروسيا.

الهوامش

(١) أنظر بالتفصيل فى دليل الأرشيف الحكومى لمقاطعة أوديسا. أوديسا، ١٩٦١.

(٢) د.جينادى جورياتشكين، بحثًا عن الذهب، من تاريخ العلاقات الثقافية بين روسيا ومصر فى أواسط القرن التاسع عشر، الإسكندرية، منشأة المعارف٢٠٠٣ (بالعربية)، انظر أيضا جينادى جورياتشكين روسيا ومصر فى ضوء الأرشيفات المصرية (أواسط القرن الــ١٩- بداية القرن العشرين، القاهرة، الهيئة العامة المصرية للكتاب، ٢٠٠٢ ص٢٤١-٢٦٤، ٣٤٧-٣٥٧ (بالعربية).

(٣) أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية//- ٣، المجموعة الفرعية ٣٣، ملف ١، بين عامى ١٨٣٨- ١٨٥٣، أوراق ١- ٣٦ "المقدم كوفاليفسكى. مشروع التجارة بين روسيا ومصر".

(٤) المقصود هنا شركة البواخر الروسية للتجارة مع إيران. فى تلك الشركة أسهمت الدولة من أجل الإنقاص من مخاطرة المساهمين- المؤلف.

(٥) مدينة "خيفا" تقع فى أوزبكستان بالقرب من مدينة خوارزم- المترجم.

(٦) المصدر نفسه السابق. ورقة ٨.

(٧) سلع التصدير هى كالتالى: الجلد والنفط وجلود الماعز والشحوم واللحم المملح وحبال القنب وورق الكتابة والفحم الحجرى. وسلع الاستيراد: القهوة، عاج الفيل، مواد الصباغة والعقاقير، والأنسجة الحريرية الهندية والموسلين، والمنسوجات القطنية، والتبغ وجذور التوابل (ورقة ٨).

(٨) جينادى جورياتشكين. روسيا ومصر... مصدر سابق ص٢٥٧-٢٥٨.

المؤلف فى سطور:

جينادى جورياتشكين

- من مواليد عام ١٩٤٥ فى محافظة إركونسك بسيبيريا الشرقية.
- تخرج فى جامعة موسكو الحكومية- معهد اللغات الشرقية فى عام ١٩٦٩.
- خدم مترجمًا عسكريًا مع الخبراء السوفييت فى القوات المسلحة المصرية ولقاء خدمته فى أثناء "حرب الاستنزاف"، مُنح "نوط الواجب العسكرى من الدرجة الأولى".
- حصل على الدكتوراه من جامعة موسكو عام ١٩٧٥م وكانت بعنوان "تكون الطبقة العاملة المصرية فى المرحلة الناصرية".
- حصل على دكتوراه العلوم التاريخية فى عام ١٩٩٦ وكانت رسالته بعنوان "نشأة الطبقة العاملة والحركة العمالية فى مصر فى الظروف الاستعمارية (١٨٤١ -١٩١٤)".
- يعمل حاليًا أستاذًا فى قسم تاريخ بلدان الشرق الأدنى والأوسط بمعهد بلدان آسيا وإفريقيا. فى القسم نفسه حيث يعمل حتى الآن. فى سنة ١٩٩٦.
- عمل مدير المركز الروسى للعلوم والثقافة بالإسكندرية فى الفترة من يوليو ٢٠٠٠ حتى يناير ٢٠٠٥.
- له العديد من المؤلفات عن مصر باللغة الروسية ومنها: "التحديث الاستعمارى ونشوء الطبقة العاملة المصرية"، "مصر فى عيون الروس"، "الهجرة الروسية الى مصر تونس"، "الإسكندرية الروسية. مصائر اللاجئين الروس فى مصر".

- له أيضا العديد من المؤلفات بالعربية ومنها: "مصر وروسيا فى الأرشيفات الروسية"، و"صفحات من الحوار الثقافى الروسى المصرى"، و"البحث عن الذهب- من تاريخ العلاقات الثقافية بين روسيا ومصر فى أواسط القرن التاسع عشر"، و"ذكريات مترجم سوفيتى على الجبهة المصرية".

المترجم فى سطور:

إيمان يحيى

- من مواليد الجيزة عام ١٩٥٤.
- أستاذ بكلية طب الإسماعيلية – جامعة قناة السويس.
- حصل على الدكتوراه فى جراحة المسالك البولية من الاتحاد السوفيتى عام ١٩٨٧.
- كاتب ومترجم، ترجم العديد من الكتب عن الروسية والإنجليزية منها: "مذكرات شيفرنادزة"، و"الصحة والسلطة– مذكرات كبير أطباء الكريملين"، و"مارتن لوثر كينج"، و"لقاء طهران".
- له العديد من المقالات والدراسات التى نشرت بالصحف المصرية والعربية والمجلات الثقافية.
- عضو مجلس إدارة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية.

مراجع المادة التاريخية فى سطور:

عاصم الدسوقى

- تخرج فى كلية الآداب جامعة عين شمس قسم التاريخ (١٩٦١).
- حصل على الدكتوراه فى التاريخ الحديث من كلية الآداب - جامعة عين شمس ١٩٧٣.
- عضو الجمعية المصرية للدراسات التاريخية (اعتبارًا من ١٩٦٤)، والجمعية التاريخية للعلاقات الدولية - ميلانو - إيطاليا (من عام ١٩٩٣)، ورابطة المؤرخين الأفارقة (من ٢٠٠١).
- باحث زائر بجامعة اكسفورد - مركز دراسات الشرق الأوسط (١٩٧٤)، ومعهد اقتصادات الدول النامية - طوكيو اليابان (١٩٧٦)، وأستاذ زائر بجامعة شيكاغو (١٩٧٨ - ١٩٧٩).
- نشر أكثر من سبعين بحثًا ابتداءً من ١٩٧٥ أهمها: كبار ملاك الأراضى الزراعية ودورهم فى المجتمع المصرى ١٩١٤ - ١٩٥٢ (١٩٧٥)، مصر فى الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩ - ١٩٤٥ (١٩٧٦)، فكرة القومية عند الإخوان المسلمين ١٩٢٨ - ١٩٥٤ (١٩٧٦)؛ مجتمع علماء الأزهر فى مصر ١٨٩٥ - ١٩٦١ (١٩٨٠)؛ ثورة ١٩١٩ فى الأقاليم من الوثائق البريطانية (١٩٨١)؛ البحث فى التاريخ: قضايا المنهج والإشكالات (١٩٨٦)؛ أفكار لم تنشر ١٩٨٢ - ١٩٩٦ الظروف والملابسات (١٩٩٦)؛ التعددية الثقافية والتماسك الاجتماعى فى مصر (٢٠٠٣)؛ ليلة اعتراف

أمريكا بإسرائيل (٢٠٠٤)؛ جدل الهوية والمواطنة في مصر في النص الثاني من القرن العشرين (٢٠٠٥)، العرب والحرب العالمية الثانية (٢٠٠٧)، عروبة مصر من آثارها (٢٠٠٨).

- نشر أكثر من ١٧٠ مقالاً في صحيفتي الأهرام والأهالي، ومجلات الهلال، والقاهرة وإبداع وسطور، والمحيط الثقافي، اعتبارًا من ١٩٨٠، وذلك في قضايا تاريخية وسياسية شائكة مثارة على مسرح الأحداث.
- ألقى محاضرات عامة في موضوعات تاريخية وقضايا سياسية بلغ عددها ١٠٥ محاضرات اعتبارًا من ١٩٨٦ فضلاً عن الأحاديث في موضوعات التاريخ وقضاياه في الإذاعة والتليفزيون.
- اشترك في عدة ندوات علمية متخصصة وثقافية عامة بلغ عددها ١٧٢ ندوة اعتبارا من ١٩٧٧ في مصر، وإحدى عشرة ندوة خارج مصر في كل من الولايات المتحدة الأمريكية، والعراق، وبيروت، والأردن، ودمشق، ودولة الإمارات العربية المتحدة.
- أشرف على ٥٠ رسالة لدرجة الماجستير في التاريخ الحديث اعتبارًا من ١٩٨٠ وعلى ٢٧ رسالة دكتوراه اعتبارًا من ١٩٨٦.

التصحيح اللغوى: كريمـــان البدرى
الإشـــراف الفنى: حســـن كــامـــل